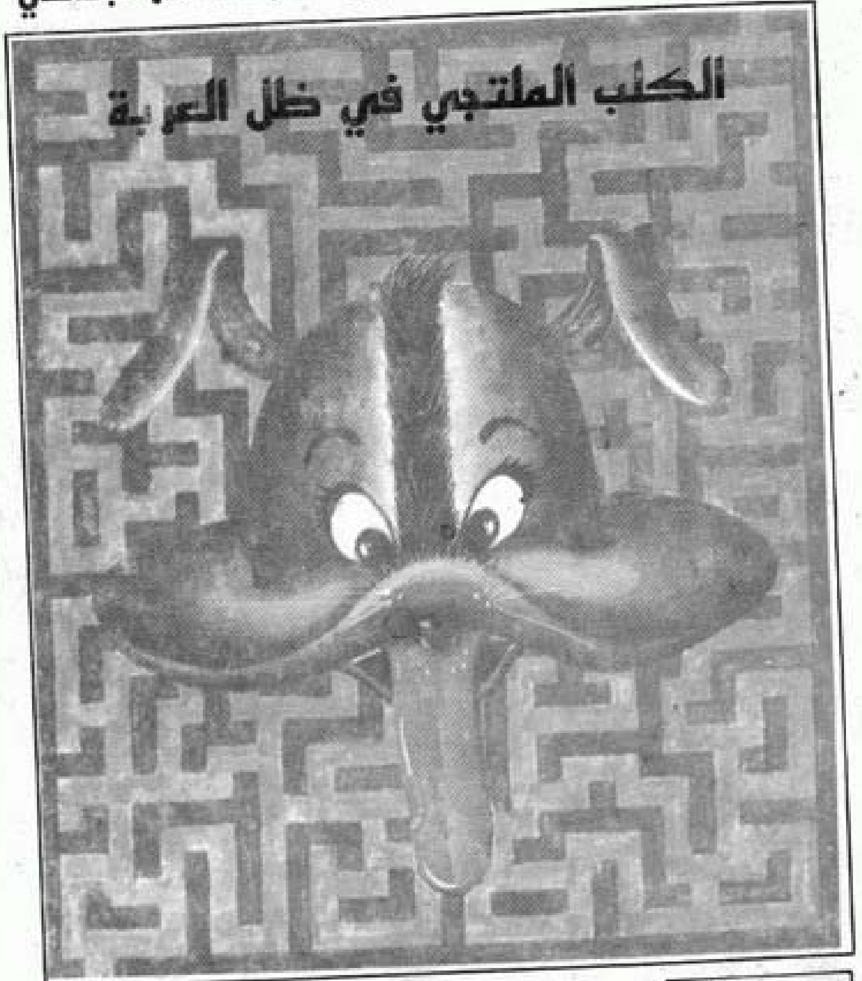
عزيز نسين

زوبك

ترجمة عبد القادر عبداللي



الأهالي

رواية



غلاف الطبعة التركية الاولى ١٩٦١



غلاف الطبعة الألمانية الأولى ١٩٦٥



غلاف الطبعة البلغارية الأولى ١٩٦٧

السعر ● ل.س

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ٢/ ٨٨/ ٣٠٠٠

الأهالي

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلكس ٤١٢٤١٦

رواية

عزيز نسين

زوبُكْ

الكلب الملتجي في ظل العربة

ترجمة : عبد القادر عبد اللي

صياغة : خطيب بدلة



غلاف الطبعة التركية الثامنة

العنوان الأصلي للكتاب :

aziz nesin
ZÜBÜK
Kagni Kölgesindeki it

زوبُكْ . . . الكلب الملتجي في ظل العربة

- كُتِبَتْ هذه الرواية في أواخر الخمسينات ، بعد جولات متلاحقة قام بها عزيز نسين في المحافظات الشرقية من تركيا ، على مدى ثلاث سنوات من عام ١٩٥٤ - ١٩٥٧ .

- صدرت للمرة الأولى عام (١٩٦١) . الطبعة الثانية (١٩٦٧) ، الثالثة (١٩٦٩) ، الرابعة (١٩٧١) ، الخامسة (١٩٧٢) ، السادسة (١٩٧٤) ، السابعة (١٩٧٥) . أما الطبعة الثامنة التي اعتمدناها في الترجمة إلى العربية ، فهي غير محددة تاريخ الطبع ، ولا ندري إن كان ثمة طبعات لاحقة . .

- حولت الرواية إلى فيلم سينمائي قام بدور البطولة فيه الممثل كمال صونال ، وهو أهم ممثل كوميدي في تركيا اليوم .

- ترجمت إلى الألمانية عام ١٩٦٥ ، نفدت نسخ الطبعة الأولى خلال ستة أشهر ، فأعيد طبعها عام ١٩٦٨ ، وعام ١٩٧٥ ، . . وقدمت كمسلسل إذاعي من إذاعة برلين .

- ترجمت إلى البلغارية عام ١٩٦٧ ، وقد بلغ حجم الطبعة الأولى ١٢٠٠٠ نسخة .

- يسعد دار الاهالي أن تنشر ترجمتها العربية الأولى عن لغتها التركية الأم .

عمل روائي كبير ، لكاتب كبير . هذا كل ما يقتضي الأمر قوله .

● *الناشر*

«الكلب يمشي في ظل العربة، فيظن ظلَّ العربة ظلَّه»

منزل بثلاثة أدوار، من الطراز الأرمني القديم، في منطقة يتسع عرض الشارع فيها، قدام مكتب البريد. هذه الفسحة غبارية في الصيف، طينية في الربيع، ثلجية في الشتاء.

يمكن أن ترى في هذه الفسحة الغبارية، عندما تقترب الساعة من الرابعة، ثنائيات وثلاثيات من الشبان، جالسين القرفصاء، أو ماشين، متأبطاً بعضهم ذراع بعض. إنهم ينتظرون عربة البريد، فالعربات التي تحمل البريد تأتي عادةً في مثل هذه الساعة، من جهة الغرب. . ، إنهم لا يرصدون الطريق، لكنْ الهواء، ذلك أن دخان وغبار العربات يُرى قبل العربات.

حصلت حركة في الفسحة، وفي المقهى المطل عليها. في آخر البلدة، عند البيت المتقاطع مع السماء، ارتفعت غمامة صغيرة من الغبار.

- جاءت. .

- هيه. . يا سبع. حاملة الأخبار لمعت، يسبقها غبارها.

- أهو يوم الجرايد؟

- نعم. ألسنا في يوم الخميس؟ . . إنه يوم الجرايد.

اقتربت الغمامة السوداء وهي تكبر، وقفت أمام مكتب البريد. ومن تحت غمامة الغبار والدخان المنقشعة شيئاً فشيئاً، ظهرت عربة البريد الصفراء ككناري. نط أجير بائع الجرايد إلى العربة، فك حبال (الشادر)، ثم ألقى رزمة الصحف على الأرض.

أحد الذين نزلوا من العربة، عرف الحاضرون ـ من خلال لباسه ووقفته ومظهره ـ أنه غريب.. وضع الحقيبة الزرقاء التي بيده اليمنى على الأرض، وضع الكتب والمجلات التي بيده اليسرى فوقها. كان شعره مغبراً، وكذا حاجباه ورمشاه. نفّض نفسه، حمل حقيبته، جال بناظريه مستطلعاً ما حوله.. تطلع إلى اللافتات التي على الجانبين، ثم خشّ في باب ضمن واجهة تشعبت فيها الصدوع، فوقه لافتة مصنوعة من الخشب المعاكس، مدهونة بالأسود، مكتوب عليها بالأبيض: «فندق القصر الجديد».

مرحبا يا سيد قائمقام!..

.. هكذا يروي الشيخ بدر ـ الفهمان، الطامّةَ الكبرى:

بيت إبراهيم بيك زويْك زَادَهْ متاخم لبيت حمزة بيك جفتفران أوغلو. كان حمزة بيك رئيساً للبلدية في ذلك الزمان، وكانت بينه وبين إبراهيم بيك زويْك زاده مهاترات، وعداوة متأصلة، مع أن كلاً منهما ينتمي إلى الحزب نفسه. زويْك زاده يرغب في أن يلهف منصب رئاسة البلدية، وحمزة لا يريد إفلاته. عداوتهما جاءت من هنا.

ذات صباح باكر جاء ابن حمزة بيك إلى بيتنا:

ـ إلْحَقْ إلْحَقْ يا صديقي.. ثمة فرجة تستحق أن تشاهد.

ـ فرجة؟ فرجة ماذا ولاه؟ أية فرجة في هذا الوقت المبكر؟

ـ قل سينما إذا شئت.. قل مسرحاً.. لكن المهم، تعال وانظر..

تصرفت بسرعة، ضممت بنطالي وتبعته.. ذهبنا إلى بيته، فأدخلني مخزن الحطب:

ـ ضع عينك على هذا الثقب وركّزْ.

وفك خشبة عرضانية من الحائط، محدثاً فرجةً بدا من خلالها مطبخ بيت زويْك زاده أمامنا مثل الطبق. كانت زوجة إبراهيم وأمه وأخته الصغرى منهمكات في بعض الأعمال. اعترضت عليه:

ـ ألهذا دعوتني؟ يا عيب الشوم! أيليق بالشاب أن يتلصص؟

ـ لحظة يا صديق.. ليس في هذا ما يعيب. خَلِّ عينك على الثقب، فالفرجة على وشك أن تبدأ..

وقبل أن ينهي جملته سمعنا صوت زويْك زاده ينادي من الدور العلوي:

ـ يا حرمة، يا حرمة.. ألا تريدين غير أن أشبحك من شعرك.. ألست أقول لك

منذ أسبوع إن الحكومة ستأتي؟ . . . الحكومة ضيفة زوبُك زاده . . ماذا نفعل الآن؟ أين الكباب . . أين الخروف المشوي؟

ونزل على السلم صارخاً. ترك زوجته والتفت إلى أخته :

ـ لماذا تقفين مضطربة لا تفعلين شيئاً، هكذا؟ لا تهفهفي لي بثوبك هكذا في كل الاتجاهات، دون أن تنجزي عملاً . أقول لك الحكومة ستنزل في بيت سيدك . . إكنسي السجاجيد والبسط، امسحيها، لملمي غرفة الضيوف، تفقدي اللحف والفرش .

وأخرج من جيبه ورقة مكتوبة أبرزها لأخته :

ـ أرأيت هذه يا بنيتي؟

قالت البنت : ـ رأيتها .

اقتربَ مني ابن حمزة بيك ووشوشني :

ـ منذ أسبوع والعمل على هذا المنوال . كل صباح يقرؤها (ترويسةَ) الرسالة .

صرخ زوبُك زاده في وجه شقيقته :

ـ اقرئي هذه . أعبثاً أرسلناك إلى المدرسة حتى الصف الرابع؟ اقرئي واعرفي من أين جاءت الرسالة لسيدك .

همهمت البنت : ـ ماتك . .

غضب إبراهيم زوبُك زاده :

ـ اقرئي جيداً . ألم أحفظك إياها؟

ـ أهي (ماتك) . . أم (ماتيك)؟

ـ غبية! . . لم تنتبهي . . إن ماترينه هنا هو الأحرف الأولى من اسم الحكومة . قولي لي ماهي .

ـ الأحرف الأولى من اسم الحكومة .

ـ انظري واسمعي جيداً . غداً، في الصباح، سأسألك مرة أخرى، وإذا لم تعرفي سأقبب عينك . دققي النظر فيها . . م، تعني مجلس . . أ، تعني الأمة . . ت، تعني التركية . . ك، تعني الكبير . . م . أ . ت . ك . تعني مجلس الأمة التركية الكبير . . ، وهذا يعني الحكومة، يعني الدولة . . وهذا يعني الوطن والأمة وكل شيء . . الأحرف الأولى من

اسم الحكومة، ألا ألقنك إياها كل صباح؟ . . والآن قولي لي، من أين جاءت الرسالة لسيدك؟

ـ من الحكومة .

ـ عافاكِ . وما هي الأحرُف الأولى من اسم الحكومة؟

ـ م . أ . ت . ك .

ـ حسنٌ . وماذا تعني؟ قوليها واحدة واحدة . .

ـ م تعني مجلس، أ تعني الأمة، ت تعني التركية، ك . . الحكومة، الدولة . . .

غضب إبراهيم زوبُك زاده وراح يحدث نفسه :

ـ إيه، يا إلهي، أنت تعلم . . ماذا أفعل بهاته النسوة اللواتي لا يمتلكن عقولاً؟ إنهن يلعبن بمستقبلي . . فيفرض أنني صرت نائباً في مجلس الأمة . . خذ هاته النسوة إلى أنقرة . . لمن أريهن؟

والتفت صوب أمه هذه المرة :

ـ أمي ، أمي . . أرأيت أنت الحكومة؟

ـ ما رأيناها . . سنراها بمساعيك .

ـ ما أنت وحدك . . البلدة كلها لم تر الحكومة بعد . بمساعي ولدك سيرى هؤلاء المُعْدَمون الحكومة .

وضع الرسالة في جيب بيجامته وصرخ :

ـ هاتوا لي قهوتي .

وخرج إلى الزقاق . سألت ابن حمزة بيك :

ـ إلى أين يمكن أن يذهب هكذا؟ لقد خرج ببيجامته .

قال : ـ الفرجة الحقيقية ابتدأت .

ولئلا يرانا زوبُك زاده، خرجنا من الباب الخلفي لبيت جفتفران أوغلو . تمترسنا خلف زاوية دكان أمين أفندي التاجر، وبدأنا نتفرج . .

وضع زوبُك زاده كرسيين أمام باب منزله، جلس على أحدهما، ومدد ساقيه على الآخر . في قدميه (شحاطة) من الجلد اللميع، يرتدي بيجامته ويلقي على كتفيه سترة .

يرشف القهوة ويضع الفنجان على طربيزة بجانبه. . في إحدى يديه سيجارة وفي الأخرى مسبحة. . طقطقة مسبحة إبراهيم بيك زوبُك زاده تُسمع من الطرف الآخر من البلدة.

ـ وهل ستتفرج على هذا الأهبل؟ . . تعال نتركه ونذهب إلى المقهى.

ـ حلمك يا صديقي، حلمك. . الفرجة الحقيقية قادمة. ابْقَ أنت هنا ريثما أهرع إلى المقهى وأنادي الأصدقاء.

زمق. لم يمض وقت حتى عاد ومعه خمسة، عشرة شبان يلهثون. استحكمنا في زاوية الجدار. كان المتراس جيداً بحيث قفا زوبُك زاده إلينا. استفهمنا من ابن رئيس البلدية:

ـ ما الذي سيحصل؟

قال: انتظروا وسترون.

وفي تلك اللحظة طبطب زوبُك زاده على صدره، وصاح بصوت عال:

ـ وعليكم السلا !!!!. . م أيها الحاكم. .

ما هذا؟ ليس ثمة أحد أمامه، إنه يسلم على الهواء. أنتم تعرفون بيت زوبُك زاده، لا يوجد مقابله لا بَيْتٌ ولا مَيْتٌ. وفي الجهة الثانية من الطريق لا يوجد سوى السفح المؤدي إلى الترعة ذات القصب. . على من يسلم إذن؟

إذ قلنا (على من يسلم إذن؟) وضع صديقنا إصبعه على شفته وقال:

ـ هُسْ، لا يسمعنا. . الفرجة ابتدأت. . انظروا ما سيحدث بعدها. .

ولم ينه كلامه حتى انحنى زوبُك زاده وصاح:

ـ وعليكم السلا !!!. . م أيها الريس.

سألنا ابنَ حمزة بيك:

ـ ولمن هذا السلام؟

ـ إنه يسلم على رئيس البلدية. سلم على أبي. أما سمعتم؟ وأبي لم يغادر فراشه بعد. تحول زوبُك زاده إلى ولي، وصار يرى ما تحت اللحاف الذي وراء الجدار. .

استأنف زوبُك زاده سلاماته:

ـ مرحباً بالسيد رئيس الديوان. . مرحبا ! . . أوه طيب طيب. . إذا صار عندي وقت. . أزورك. . مع السلامة. .

داهمنا الضحك. الرجل يسلم على الهواء أمام أعيننا.

ـ هيه. . أيها السيد المدير. . كم هو جميل صباحنا بكم. . آ. . لا بأس. . الصحة جيدة. . كيف حالكم أنتم؟ هينة هينة. . لا تشغل بالك. . شغلتك، سنحلها.

قال ابن الريس: سلم على مدير المدرسة الإعدادية.

وكيف عرفت؟

ـ يا ابني أنا اعتدت، لقد صرت، من فرط ما استمعت إليه، مثله، أرى الأشباح.

نهض زوبُك زاده وانحنى وسلم على الهواء ثانية:

ـ مرحبا !!!. . يا سيد قائمقام مرحبا !! . . ما الأخبار؟ بالنسبة لنا، لا بأس. . الصحة جيدة. . آ. . طيب طيب. . لا تنشغل من أجلها. . كتبت إلى أنقرة وأنتظرُ الجواب. .

لم يبق أحد في البلدة لم يسلم عليه زوبُك زاده أو يرد سلامه. . كل مسؤولي البلدة يمرون أمام بيته، كل صباح، كالرتل العسكري، يقدمون له السلام ويحيونه. لماذا يسلم على الهواء؟ . . الله. . . إنها واضحة جداً. . لكي يقال إنه رجل معتبر. انظر يا سيد، البلدة، آمرها ومأمورها، أشرافها ومزارعوها. . كلهم يعبرون أمام بيته في الصباح ويأخذونه بالاعتبار. يسلمون عليه. وهاهو مدير المستوصف مر، مدير البريد، مدير التربية، هل بقي أحد لم يسلم عليه وهو ينعق كالغراب (وعليكم السلام)؛ حتى تسمعه زوجته وأمه وأخته، بعدما أسدل ستائر النافذة المطلة على الزقاق، ومنع النسوة من دخول الغرفة العلوية، لئلا ينظرن من النافذة، فيرينه وهو يسلم على الهواء؟ عندما يسلم على الهواء فإن صوته يسمع من الزقاق الذي خلف بيته.

يا سيدي، زوبكنا، هكذا زوبُك. . لو أنه ذهب إلى أنقرة ونزل في فندق لا يعرفه أحد فيه، لمط رأسه من النافذة في الصباح الباكر وصاح (وعليكم السلام أيها السيد رئيس مجلس الأمة)، حتى يجعل صاحب الفندق ومَنْ فيه، يعتقدون أنه صديق رئيس مجلس الأمة.

زوبُك زاده هو الظاهرة المخجلة في بلدنا . . لكن ماالعمل . . إنه أمر واقع . . فَأنْ تكشه غير ممكن . . أن تبيعه غير ممكنٌ أيضاً . . ستتحمل؟ ، شئنا أم أبينا، لاخيار!

الحكومة قادمة

. . ما رواه إسماعيل أفندي ـ عبد الله :

لو تحولت البحار إلى حبر، والغابات إلى أقلام، لما كفت لوصف هذا المنحط. من أية واحدة من نقائصه نبدأ . .

في يوم كنا جالسين في رابطة المعلمين. عندنا، كما في البلدان الأخرى، ثمة نادٍ للمدينة، نادٍ للتجار، نادٍ للصيادين، . . . وأيها ليس عندنا منه. إنه مكان لا يسنح للرجل فيه سوى طول إصبعين، ومساحة بقد الكف. . لكن، ليكن كيفما كان، ليس لنا مكان نرتاده سواه . . إذن، في إحدى الأماسي كنا جالسين هناك. الشيخ بدر الفهمان رجل من النوع الذي قلما يمرّ بالرابطة . . إنه رجل لا مثيل له في . . قلة الشرف . . ، ومع ذلك فهو لا يصب على يدي إبراهم زوبُك زاده ماء في السفالة. للشيخ بدر الفهمان ولد يسمونه (البلاء الأسود)، عدو لنفسه. وإذ نحن في الرابطة، فتح الباب دون أن نشعر به، نصف فتحة، وطب علينا فجأة، وهو يصرخ في وسط الغرفة، كالصَيَّاح :

ـ أيها الرجال، أيها الكادحون، يا أبناء بلدتنا، أيها الأصدقاء . . الحاضر منكم يعلم الغائب . .

ـ مَهْلَكَ يا سبع . . مهلك يا كبشنا . . مهلك. العجل عندما يصل باب الإسطبل، يلتجم. أين نحن؟ المعلمون يستضيفون الواحد هنا، ثم إنهم لا يكشّونه . . كيف تدخل هكذا، أأنت آت لتجبي غلة محل أبيك؟ سلم على الناس مثل البشر . .

رضا بيك، رئيس الديوان، رجل ذو هيبة، عندما يغيب القائمقام ينوب عنه. عمل نائباً للقائمقام ست سبع سنوات. كلامه لاذع. عندما اعترض سبيل الولد، قال الولد :

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام. تفضل، ماذا جرى؟ الآن فاشرح..

- رحماك يا عم رضا.. ثمة أحداث، وأية أحداث.. أحداث ستدخل التاريخ، الناس ستتداولها خمسين عاماً ولا تنساها.

- ألستَ ابن الشيخ بدر الفهمان..؟ اذهب وقل لأبيك أن لا يشكّ بأمك أبداً. الآن أثبتَّ أنك ابن أبيك. أحبَّ أبوك بذرته فبذرها، فكنت أنت.. سلالتكم طلعت الأولى في تلفيق الأحداث.

- لا خرجت من هنا سالماً يا عم رضا إذا كنت ألفق.

- هيه ياه.. لو كان ثمة أحداث وقعت فإن أباك وراءها، وإبراهيم زويُك زاده، اللذين وصلت سمعتهما القذرة حدود بلاد الروم.. وإذا لم يكن أحدهما وراءها فإن هذا يعني أن بلدتنا ستندثر وتُمحى من الخريطة..

- أفقدت القصة تشويقها.

- أحداث أحداث، لعلك يا أخانا تقصد ذلك الشخص الذي سيأتي من طرف الحكومة بأنقرة لزيارة إبراهيم زويُك زاده.. أهو ما تقصده؟ فإذا كان هو فإنه لم يبق أحد لم يعرفه.. زويُكْ زَادَهْ ينادي به منذ أيام، ولم يبق غير أن يركض إلى المكبرات العائدة للبلدية ويعلن فيها.

- وهل حقاً سيأتي ذلك الشخص؟

- ممثل عن الحكومة.. وماذا يعني؟ ممكن أن يكون وزير المالية.. منذ شهر والحكومة ترسل الرسائل إلى زويُكْ زَادَهْ (دخيلك يا إبراهيم بيك) (الأمور تأزمت ونحن متورطون.. صارت الأمور شوربه.. بتنا لا نستطيع الخروج من المأزق.. تبهدلنا أمام الدول الأجنبية وفي الأقاليم السبعة. دخيلك يا زويُكْ زَادَهْ، ليس لنا بعد الله من مدد سواك. لا تتركنا وحيدين.. نحن في مسيس الحاجة للتشاور معك. إركبْ أول قطار إلى أنقرة. إلحَقْ يا زويُكْ زَادَهْ.. إلحَقْ).

- أجل، ما سمعته كالذي قلته أنت تماماً.. الحكومة كتبت لزويُكْ زَادَهْ.. كتبت، وإذا أبى أن يرد عليها، قررت إرسال ممثل عنها.

- يعني في كل هذه البلاد لم يبق عقل مفكر سوى زويُكنا؟..

- أنظر هذا الزويُك.. حكومة بطولها وعرضها، ولا يكلف نفسه عناء كتابة سطرين لها؟ أم أنه سيُزعِلُ الحكومة منا، سيجعلها تمسحنا من الوجود؟

- ماذا، من؟ ستمسحنا؟ وهل وصلت الأمور بالحكومة إلى حد أن تقف في وجه زويُكْ زَادَهْ ؟

- حسنٌ، فهمنا.. لكن، مع ذلك، هي فوق رأسنا.. وهي في كل الأحوال حكومة.. يعني ألا يكتب الواحد سطرين جواباً لرسالة الحكومة؟

- لا يكتب.. لا يكتب.. أنت لا تعرف زويُكْ زَادَهْ كما يجب؟ كتب للحكومة عما سيحدث بالتفصيل.. قال لهم بالحرف (إياكم.. لا تقدموا على ذلك أيها الأصدقاء)، (استمعوا إلي، هذه العقول، حركوها!) قال لهم كل شيء، لكنهم، ولأنهم لا يملكون عقولاً نفاذة، لم ينصتوا إليه. ولهذا قاطع زويُك زاده الحكومة، قال لهم (إذا كان عندكم ما هو أفضل مما عندي فاتبعوه.. اقطعوا حتى صباح الخير التي بيننا..!).
ثم دارت الأيام ومرت الأيام، اضطربت أحوال الحكومة، فأخذت تستنجد بزويُكْ زَادَهْ (أنت لايمكن أن تعادينا في أي وقت من الأوقات، هذه مسؤولية وطنية. إذا كنت لاتشفق علينا فاشفقْ على الوطن.. إذا قلتَ لا آتي، فنحن نأتي اليك). إذن، الضيف الذي سيحل بزويُكْ زَادَهْ، هذا هو: ممثل الحكومة.

- اسخروا، اسخروا، وسنرى. رسالة الحكومة في يد زويُكْ زَادَهْ.. هناك من قرأها ومن رآها.. فماذا تقول؟

- ها.. والذي سيزور زويُكْ زَادَهْ.. أهو نائب يا ترى؟

- استغفر ربك! لو جاء نائب فإنه لا يقبله - على علمي - أبداً..، بل ويطرده من على الباب.. إنه لايرغب في أقل من رئيس مجلس الأمة.

- هيه ياه.. إنه سيظل يزعم أن الحكومة ستحل ضيفة عليه حتى يتمكن من خداع البلدة بأسرها. وبعدها سيدعي أنه قدَّم للحكومة وجهة نظره، وينسحب من المسألة.. يا وَلَهْ.. إن الاقتراح الذي سيقدمه للحكومة، سينزل من الثقب الذي يتبول الانسان فيه..

- هيه ياه.. إن في الرأس الذي لإبراهيم بيك زويُكْ زَادَهْ... عقلاً يمكن

الاستضاءة به. . أتخرج له جماعة من السذج وتصدّقه؟ . . وبلدتنا، من يوم أن وجدت، هل داس ترابها نائب؟

ـ داس. ولا يمكن قول خلاف ذلك. . أنتم يافعون لا تعرفون ذلك. رضا بيك يعرف أحسن. يوم إعلان الجمهورية جاء نائب. كان متجهاً شرقاً إلى منطقة ما، ولأنه لا يوجد طريق آخر، فقد مر من هنا، بالرغم عنه.

ـ أرأيت؟ لم يَدُسْ. عجلةُ السيارة هي التي داست.

ـ لا، بل إن قدمه هي التي لامست الأرض. في تلك الأيام كانت الطرق أسوأ مما هي عليه الآن. دكـان نوري الأعمى يا. . هنالـك طافت الماء، وأوحلت الأرض، فغـاصت السيارة بمن فيهـا. . صاروا يصرخون. أيامنا كان ثمة مروءة، شمرنا عن سيقاننا وغصنا في الوحل حتى وصلنا إليهم، وأخرجنا الأفندي من السيارة. حملناه على ظهورنا ونقلناه إلى الطرف الآخر، ثم أدخلناه المقهى. وبينما كنا نسأله (من أين أتيتم، إلى أين تتجهون، من أي بلد أنتم. . . ؟)، ألا يطلع معنا أنه نائب؟ لو نظرت إليه، رجل مثلي مثلك. . «لا يغرنك الطربوش الذي لا شرابة له، فقد يكون تحت العباءة جندي». تفرسْ فيه قليلاً، نائب مائب ليس ظاهراً عليه، إنه رجل. . رجل. وهكذا فقد داس حينها تراب البلدة نائب. ومن يومها ـ نشكر الله ـ ما داس ترابها لا نائب ولا خائب. قد تسأل لِمَ. لأن المكان الذي عند دكان نوري الأعمى مبيض الأواني أصلح، والسيارات الرائحة الغادية عليه، وظ وظ. . لم تعد تغوص في الوحل. . إنها تروح وتغدو دون أن تتوقف.

ـ ها قد نسيتم، قبل الانتخابات السابقة أتى وزير وألقى خطبة.

ـ حاشى وكلا. . لم يكن وزيراً. . ولكن كان نائباً.

وهكـذا، سيـدي. لقـد استشعرنـا كم هوسافـل زوبُكْ زادَهْ بقـولها منذ تلك الأيام. من يعرف كذبـاً كهذا؟ هل صادف أن أحداً ادعى أن الحكومة ستزوره وهو كاذب؟ . . يقولها. وهذا الكذب، ألا ينفع؟ ينفع. كيف؟ الرجل يقف في ظل الحكومة، فيصبح هو، في هذا المكان الصغير، حكومة. وعندما يلجأ إلى ظل نائب، كم يصبح ثمن هذا النائب؟

وإذا صار نائباً! . .

. . ماروته المولده، الست خيرية:

آه يا ابني. وهل ثمة من لم ينصب عليه. أنا لا أحب أن أعتبر من أهل القيل والقال، لكنك تُعتبر هنا غرّاً، ويجب أن أحكي لك كيلا يضحك عليك يوماً.

أنا، يا ابني، أُعَدُّ من أهل هذه البلدة. . ثماني سنوات ونحن هنا، مطرح ما تُرْزَقْ إلْزَقْ. تزوجنا في استانبول. مرض. عندما وقع في المرض أخذ ينق. عندنا هنا بستان وكرم ودار ورثها عن أبيه، نأتي إلى هنا، منها تغيير جو، ومنها نتكيء عليها في حياتنا. . لكن ألا يموت بعد مجيئنا بثلاثة أشهر؟ . . حن إليه التراب الذي ولد فوقه وعاش فوقه. بعدما دفناه لم نغادر، لنا نصيب في أن نأكل ونشرب هنا. ابنتي صارت معلمة كما كان أبوها، وعندنا هذا البستان، والكرم والدار.

البلدة فقيرة، لكن لا تقف عندها، الناس هنا طيبون جداً. . بس لو كان هذا الزوبُكْ زادَهْ غير موجود فيها. . آه من هذا الزوبُكْ زادَهْ . . آه.

مرة أقرضته ثلاثمائة ليرة. كان يومها أعزب، وعلاقتنا مع أمه لا تخر الماء، مع بعضنا نظل ليل نهار. ثم فوجئنا بأنه يعد نفسه للزواج وإجراءات العرس. كانت أمه على علم بأمر زواجه. وكانت تزمع إقامة حفل زفاف، فطلبت من ابنتي ثلاثمائة ليرة. قلت إن ابنتي جمعت هذه النقود من راتبها ليرة بعد ليرة. وفينا نحن بوعدنا، هم لم يفوا. تزوج زوبُكْ زادَهْ ، نحن مالنا وماله، ليسعدْ، لكن ما مصير النقود؟ أرسلت لأمه (إما أن يرد لابنتي نقودها أو أفضحه في قراني البلدة).

هكذا كانت ابنتي تفكر، لكن هل هذا مـن النوع الذي تهمه الفضائح. ثم حتى لو استطعنا فضحه، سيقول: (الرحمةُ شيء جميل. . ها قد بدؤوا حملتهم! . . لكن نحن ماذا أخذنا حتى ندفع؟ . .). واحد من وسخ الوسخ.

عندما أنذرته جاءتني أمه وأخته. واضح أنه هو الذي أرسلها. لم أُبدِ زعلاً لكونهم لم يعزمونا على العرس. عبست، قلت بفم مائل:

- أهلاً وسهلاً. كيف خطرنا ببالكم..؟ أنسفح بين أقدامكم ماء بارداً أم ساخناً؟

وقبل أن أصل إلى موضوع النقود قالت الأم:

- لا تسألي يا ست خيرية، لا تسألي. لو تعرفين ما يجري لنا. ألم تسمعي؟ الحكومة ستنزل عندنا.. الحركة لم تهدأ في بيتنا منذ أيام.

غمزتني ابنتي (أية حكومة؟).. فاستلمت أمهُ وأخته الحديث مناوبة:

- أية حكومة؟ الحكومة ما غيرها.. الحكومة كلها صديقة ابني.. الروح للروح.

- وصلته رسالة يا خالة خيرية. أخي أقرأنيها.. والله العظيم لقد رأيتها بعيني.

- يا بنت، قولي، ما الذي كان في الرسالة؟

- ما الذي كان يعني.. إنه مما يكتب عادة في الرسائل، سلام وكلام (نسأل الله أن تكونوا بخير وعافية وصحة جيدة في أوقاتكم الخمسة)، (وبالنسبة للأمور التي تعرفها، وصلنا إلى نقطة لم نعد نعرف كيف نتحرك، سنأتي لنأخذ رأيك قريباً!).

- وأيضاً يا بنت، كان ثمة أشياء أخرى يقولونها، يوه..؟

- آه.. يقولون أيضاً: (سلام لكل من يقرؤها ويسمعها).

بين البنت وأمها لم أستطع قول كلمة واحدة حول النقود.

- ويا ست خيرية. هذه العروس نزلت على مستقبل ابني بالنحس. هكذا أفهمني إبراهيم ابني. أصدقاؤه في الحكومة بدؤوا يحرجونه قائلين: (سنجعلك نائباً. أنت ضروري للمرحلة سنفيد من وجودك معنا)، وبرهو، كرمى لها، رفض. قال إنها جاهلة، وفوقها قبيحة ومسترجلة. إنها لا تتمتع بما يخولها لأن تكون زوجة نائب. وقال أيضاً: (كيف آخذ امرأة كهذه معي إلى أنقرة؟). إنه، في النتيجة، سيطلقها، كاني ماني ماقي! سيطلقها يا ست خيرية. الجرس المعلق في رقبة الجمل يقول وهو يهتز: (دنكي دنكي نا.. دنكي دنكي نا)[1] فهل كنتنا هذه تليق زوجةً لنائب؟

---

١ - كل شيء وما يليق به - وفي أمثالنا العامية: (دن دن يا دنو.. كل مين ياخد من دنّو).

- أشراف البلدة ومسؤولوها، جميعهم، يسلمون على أخي في الصباح، ويعتبرونه..، طبعاً، سيصير نائباً. يمرون من أمام بيتنا في الصباح ويتوقفون، بينما أخي لا يعيرهم التفاتا.

- ليس الكل. ولك أنا، عندما يرد السلام على حمزة جفتفرآن أوغلو، يركبني جني.

- لكن أخي قال شيئاً حوله.. ماذا قال؟

- قال لي: خلي هذا الحقير عن بالك يا أمي. أنا لا أرد عليه هو، السلام لله، ولهذا أنا أرد.. طيب، تركنا هذا، لماذا يرد على رضا بيك؟

- يا أمي، يا أمي، كم مرة قال لك أخي: (لا تفكري به، إنه لا يستحق السلام..، لكنه كاتب القائمقام، أيجوز للمرء أن لا يرد سلامه؟).

نسينا قصة الثلاثمائة ليرة. لم نتمكن من لفظ كلمة تتعلق بها..، صحيح نحن لم نصدق ما قالتاه، لكن ماذا لو طلع صحيحاً؟ إن في داخل الانسان دودة تنغل بالشك. القائمقام والحاكم يعملون أمام بيته استعراضاً، كل صباح. ألا يحصل؟ إذا كان هؤلاء قد سمعوا أن لهذا الذي يدعى زوبُكْ زادَهْ صديقاً في الحكومة، فإنهم لن يكتفوا بالسلام عليه، لكنهم سيتدحرجون أمامه. الآن لم يعد ممكناً أن نطلب الثلاثمائة ليرة. فماذا لو طلع كلامهما صحيحاً، وصار نائباً؟.. ألا يخرب فوقنا البسيطة، ونحن امرأتان مسكينتان؟..

من المحتمل أن يطلق زوجته بالفعل، إنها على أي حال امرأة سوقية وجاهلة. المرأة وسخ يَدَيْ الرجل، غسل يديه، انتهى. بعدها يتزوج من أخرى متعلمة، أليس كذلك؟.. الرجل انخرط في عالم السياسة، وهي امرأة غير مأمونة الجانب.. وهو من جهته لا يتورع عن أي تصرف مهما كان بشعاً.

وضعنا يدنا على فمنا، لكيلا أطيل عليك، وسكتنا. لم نطالب بحقنا.

بعد أيام، في المساء، مر زوبُكْ زادَهْ من زقاقنا:

- كيف حالك خالة خيرية؟

كان مهموماً جداً، تحادثنا على عجل. الحكومة سترسل إليه مندوبين عنها. وهل استضافةُ الحكومة بالأمر السهل، وهو قد أنفق ما أنفق من الآن؟

ـ أنا لا أريد شيئاً لي. أنا لا أفكر بنفسي، أفكر بشرف بلدتنا. الحكومة اعتبرتنا أليس كذلك؟ علينا أن نستضيفها على مستوى اعتبارها إيانا. هذا العمل، أساساً، من واجب الحزب أو القائمقام أو البلدية. لكن الخير في أيهم؟ . . لكن، مع ذلك، فالزيارة ليست رسمية، إنها زيارة شخصية لي. إيه. . لكل شيء حكمه.

أخرج الرسالة من جيبه وقدمها لي. نظرت ابنتي فيها. ألا تطلع رسالة حقيقية، وفي أعلاها ترويسة الحكومة؟

ـ رحماك يا إبراهيم بيك، إنه واجب الجميع. ابنتي تمتلك بعض النقود، جمعتها بالحيلة والفتيلة، خذ، هذه خمسمائة ليرة، وعندما تنفرج الأمور عليك، تردها. عيب أن نتركك تخجل أمام الحكومة.

ـ عفواً خالة، لا داعي. أفي الوقت الذي يجب علي أنا أن أساعدكما، آخذ؟ . . دعيها لي، ولا بد من أن أهتدي إلى مخرج. هؤلاء الناس، هل عقولهم سليمة، . . وإذا صرت نائباً، من أجل من؟ من أجلي أم من أجلهم؟ . . لكن لا أحد يفكر في هذا.

هو يمتنع عن أخذها ونحن نتوسل إليه أن يفعل، كيف للمرء معرفة داخله؟ الأمُ تجيئني وتقول: (مسؤو لو البلدة يسلمون على ابني كل صباح)، والأخت تقول: (أخي سيطلق زوجته)، هو يقول: (الحكومة ستزورني) ويخرج من جيبه الرسالة ويطلعنا عليها. . ، أيمكننا بعدها تكذيبه؟ . . إن الانسان يصدق لأنه انسان.

ـ خذها أرجوك.

لم يقبل. أدخلته البيت:

ـ خذ النقود يا إبراهيم بيك.

ـ أعوذ بالله. لا يمكن.

ـ إنني أفكر في سمعة هذه البلدة. . أقول لك خذها.

ـ أرجوك خالة خيرية، أنت أرملة، وإنه لمن المعيب أن نأخذ منك بدلاً من أن نعطيك. . فلو سمعنا أحد. . شيء مخجل.

ـ ومن سيسمع. إنه سر بيننا. لتعم عيناي إن بحت به لأحد.

ـ مستحيل. أسحب من البنك، نشكر الله، عندنا نقود في البنك.

كدنا ننتُف بعضنا، لم يأخذ النقود.

ـ أقول خذها يا ولدي. هل نحن غرباء عنك؟

المهم، بين الأخذ والرد، دسست خمساً من أمهات المئة ليرة في جيبه، وقبلها، عندما أعطيته الثلاثمائة ليرة، عمل هكذا، فوضعتها في جيب معطفه بالقوة. ألم نقدم له خمسمائة ليرة أخرى يبتزنا بها. فكر فقط في أن خمسمائة ذلك الزمان تعادل خمسة آلاف من عملة اليوم. ولكم كنا سنبقى ممنونين لو أن الأمور وقفت عند الخمسمائة والثلاثمائة ليرة. امرأتان مسكينتان نحن، كم من النقود جعلناه، يبتزنا بها. . وفوقها لم يطلق امرأته!!

آه. . كم من السنين مرت ولم نحصِّل الخمسمائة ليرة ولا الثلاثمائة. . كم واحدة من أمهات المائة قدمنا له. . !

وهل ثمة من لم ينصب عليه.

ثلاثة شجعان نزلوا إلى الطريق

.. ما رواه أمين أفندي التاجر:

نزل صابر آغا الآلوجاني إلى السوق. وبينما كان يتحدث من هنا وهناك، في دكان نوري الأعمى مبيض الأواني، قال:

- أنت رجل بحق وحقيق يانوري أفندي، أنت قليل الكلام..، ولذا سأستشيرك في مسألة.

والحق أن نوري مبيض الأواني لا يحرك فمه كثيراً، لكنه، في ذلك اليوم، أقفله تماماً.. السكين لا تفجُّه.

- تفضل. هل عندك مشكلة يا صابر آغا؟

كبيراً كان هم صابر آغا الآلوجاني. ثمة عداوة بين أهالي قريته وأهالي قرية سفجن المجاورة، بسبب السهل. القريتان لا تستطيعان، ولا بأي شكل من الأشكال، اقتسامه. هذه تقول إنه لي، وتلك تقول إنه لي.. ومن أجله، وبين الحين والآخر، تقع المشاكل. شباب من القريتين دخلوا السجن. إذا قلتَ إن المحكمة لا تنتهي منهم، فكلامك صحيح. ضرب صابر آغا مختار آلوجان، أخماساً لأسداس، فطلع معه أن هذه المشكلة، إذا كان لها ثمة حل، فهو بيد إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ. عمل زوبُكْ زَادَهْ لنفسه صيتاً: يحل أكبر المشاكل، يقضي أعقد الحاجات،.. ومن كانت أموره واصلةً طريقاً مسدوداً فليقرع بابه ويقول: (دخيلك يا زوبُكْ زَادَهْ.. إذا كان للأمر مخرج فهو من عندك..).

هو هكذا يا أخي. من أين يعيش إذن؟ ليس له دخل، وأما المصروف فكبير. هل يملك بستاناً، كَرْماً، فداناً أو عدة، مالاً أو ملكية، راتباً من وظيفة؟ لا شيء من هذا طبعاً.. إنه السفيه زوبُكْ زَادَهْ.

سمع مختار آلوجان، صابر آغا، باسم زويْك. عتل قربتين مملوءتين بالجبن، وزقاً عامراً بالدبس، وشكوة من السمن، ووصل باب قاضي الحاجات زويْكْ زَادَهْ . . دخيلك يا زويْكْ بيك الوضع كذا كذا . .

ـ كل الناس يعرفون أن السهل سهلنا، ورثناه عن أجدادنا . . حتى إن اسمه (سهل آلوجان) . . وبالرغم من هذا كله فقد نصَّب أهالي سفجن أنفسهم ملاكاً عليه. نحن بعرضك، الحل عندك. عاقبة الأمر وخيمة، الحرب ستشتعل بين شباب القريتين . . دخيلك يا إبراهيم بيك.

استلم زويْك زادة الحديث:

ـ يا له من زمان فاقد الشرف. ليس ثمة من يقوم بعمل لوجه الحق. الرجل صاحب الوجدان لا يُسند إليه منصب. لا ريب في أنك قرأت يوماً ما، في جريدة، إعلاناً عن مسابقة لانتقاء موظفين. هذه التي يسمونها (مسابقة) ما هي؟ إنها مسابقة في الحقارة. ينتقون قليل الناموس وينجحونه. كلما كان الواحد أكثر ضلوعاً في الوطاوة، كلما كان اختياره لمنصب أعلى. واضح أن قريتكم على حق، والسهل سهلكم . . ، لكن أين العدل؟ إذ 'عبث العملة فوق هذا العمل، يصير. لا تدفع الضريبة، إدفع الرشوة! زماننا هكذا. لقد تألمت لحالكم، معارفي في أنقرة كثيرون . . لكن مشكلتكم لا تنحل بالهاتف، ولا برسالة. لا بد لي من أن أكسب الثواب وأنزل إلى أنقرة. يجب أن نبلِّع عملة هنا وهنا . . لا حل آخر.

وعندما سأل صابر آغا الآلوجاني (كم تكلفنا الشغلة؟) نط زويْكْ زادهْ، وماحط:

ـ ماذا تعني؟ إنها عليَّ. لا تتدخلوا أنتم فيها. أإلى هذا الحد ترانا نتوانى في حل مشكلة لابن بلدنا؟ عندي أصدقاء في الحكومة، أُزَقُّ عليهم، آخذ سند التمليك وأعود.

حاول صابر آغا إعطاءه النقود.

ـ أقطع السلام والكلام بيننا هه! . . أنا لا آخذ.

ـ الرحمة يا إبراهيم بك. كيف ذلك؟ إن هذا الزمان ـ كما تفضلتم ـ دون شرف، إذا لم تدفع الرشوة فلن تجد لمشكلتك حلاً.

ـ خلِّها علينا. ليس لائقاً أن نأخذ مصروفاً من الضعفاء أمثالكم.

ـ يا عيني، إلى أنقرااااااه . . وستبقون هناك وتعملون . . ومصروف الطريق، كيف؟

ـ قلت إنه مستحيل. والله أُقلع عن حل مشكلتكم.

أوشكا على الاقتتال، والنقود في الوسط، واحد يدفعها والآخر يردها. الألف ليرة التي لم يبق لها صاحب ليست مشكلة. أرأيت يوماً نقوداً تُعامل بمثل هذا الازدراء؟ أخيراً دس مختار آلوجان النقود تحت مفرش المسطبة.

ـ ليرض الله عليك: .

وخرج وهو يدعو له بالتوفيق.

ومر زمن. صار يذهب صابر آغا الآلوجاني ويستفسر عن السهل، فيقول له زويْكْ زَادَهْ إنه ذهب إلى أنقرة خصيصاً من أجله . . ، لكن الكلاب الجائعة كثيرة، وإنه لَقَّمَ كل فم جائع ثلاثة آلاف، خمسة آلاف . . ، لا يدري.

ـ من جهتي: صحتين. كل قصدي أن أخدم أبناء بلدي . . غير أنهم لا يشبعون. يجب أن أذهب مرة ثانية، عليَّ أن أسأل عن سهلنا . . يا لهم من نهمين، علي أن أفك عقدة الكيس.

أخرج صابر آغا أوراقه النقدية:

ـ فضائلكم على رأسنا. ليت ما تمسكونه بأيديكم ينقلب ذهباً . . لكن دفع المصروف واجب.كم يستحق علينا؟

ـ ما هذا الكلام؟ ها هه. إذا سمعنا أحد سيقال إن زويْكْ زَادَهْ يحل مشاكل أولاد بلده مقابل نقود. ستقوم القيامة إذن، وتلك من علائمها.

هذه المرة ثلاثة آلاف وضعها صابر آغا الآلوجاني تحت المفرش.

ومرت الشهور ولا خبر. توجه صابر آغا الآلوجاني إلى زويْكْ زَادَهْ، يمشي على خطاه رجل يحمل الهدايا. بادره زويْكْ زَادَهْ:

ـ يا ساتر. لم يتركوا رجلاً صاحب شرف على رأس عمله. ما قولك. الأخلاق تنهار بين عشية وضحاها. في المرة السابقة كتبت من أجل سهلكم رسالة ثقيلة. لو رميتُ سطراً منها أمام كلب واشتمَّها، لأصيب بالكَلَب. لمن كتبت؟ أتدري لمن؟ للوزير ذاته. بدأت

الرسالة هكذا (أيها الكديش المحترم) تصورا! . . الكلفة مرفوعة بيني وبينه. علاقتنا متينة، لا يمكن تفريقنا عن بعضنا. عندنا أيضاً ركوب طريق، ماذا نعمل، المسألة صارت على عاتقنا. واجب ابن البلد ليس سهلاً. ستعملها من أجل الثواب.

بين رُحْ وتعالَ، وهات وخذ، بَلَعَ صابر آغا الآلوجاني، هذا المدعو زوبُكْ زَادَهْ، قليل الناموس، اثني عشر ألف ليرة، خمسة آلاف منها ملمومة من القرويين، على أمل أن يُجعل السهل شراكة بينهم. قال القرويون: إما نقودنا أو سند التمليك. البلاء سينزل على رؤوسهم فالسفجنيون لا يتركون السهل.

عندما أنهى صابر آغا روايته، توجه بالسؤال إلى نوري الأعمى مبيض الأواني الذي وقف شعر رأسه:

- أتيتك مستشيراً. الرجل احتال علينا. سأذهب إليه وأطلب النقود. . ، أعادها أعادها، لم يعدها أطخه. ماذا تقول؟

وهنا دخل الخياط جمال. عيناه تغزلان وقد ازرقَّ حولهما، الزبد يفيض من فمه:

- أتيت أستنير بعقلك يا صديقي. أنا اليوم سأمحو هذا المدعو زوبُكْ زَادَهْ من الوجود. سآخذ عليه إعداماً أو مؤبداً، أعرف ذلك جيداً. لكن ما لا أعرفه هو مصير الأطفال الذين سأتركهم. عندما سأمحوه من الوجود أكون قد خلّصت البلاد من شره. يا ترى إذا قمت بهذا الواجب الوطني، هل يخصصون لأسرتي معاشاً؟ . . أم أنهم يأكلون حقي؟ أجبني يا صديقي نوري أفندي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، بالنسبة لهذا الحقير زوبُكْ زَادَهْ، أأخنقه خنقاً، أم أشرّحه تشريحاً؟ حرام، من أجل إلقاء جثته أرضاً، إضاعة رصاصة. أرشدني أيها الصديق.

لكن هل ظل في رأس نوري الأعمى عقل يرشد به. لاح رأسه يمنة ويسرة وهو يدق بقبضتيه على ركبتيه. وقبل أن يعرف مابه من هذا الدق والنوسان، استأنف الخياط جمال حديثه. أخوه الأصغر حصل على شهادة الدراسة الإعدادية من مدرسة البلدة، ويصر على متابعة التحصيل الثانوي. وكيف يستطيع خياط فقير الحال إرساله إلى المدينة من أجلها. الرجل عاجز أمام تكاليف الحياة، برقبته سبعة عيال. . اقترح عليه أحدهم:

- عند الحكومة مدارس ثانوية داخلية بالمجان، ارسله إلى هناك.

- مالنا أحد، وهذا يحتاج إلى التماس ودعم.

- يوه. . وهل ثمة التماس أقوى من التماس إبراهيم زوبُكْ زَادَهْ. كلمة إبراهيم عند الحكومة لا تقع على الأرض. يكفي أن يطلب. . إذا شاء أن لا يمرِّره بالثانوية، يرسله إلى الجامعة رأساً، ليتخرج أستاذاً. . ؛ يفعل: وهل لزوبُكْ زَادَهْ مثيل يا خيّ؟

كل حجر ترفعه من مطرحه يطلع لك تحته زوبُكْ زَادَهْ. يده في كل مكان. يتراسل مع الحكومة يتهاتفُ مع النواب صباحَ مساء. . وهل بعدِ هذا شيء؟

ركض جمال، صار أمام بيته:

- دخيلك يا أبيه[1] إبراهيم. الوضع كيت كيت. ما يستحيل على غيرك يمكنك.

- لاتقلق. أنا والوزير عجيزتان في سروال واحد. نتحادث دون تفخيم. حتى إنه إذا رآني في مكان أخذني بالحضن. ونتباوس ويقول لي (من أين طلعت ولاه زوبُكْ زَادَهْ؟) علاقتنا هكذا. وأخوك أخي. أكتبُ للوزير (إذا ما عملتها فلن أنظر في وجهك أبداً. .).

أخذ الخياط كلامه على محمل الجد، اشترى قماشاً وخاط لزوبُكْ زَادَهْ ثلاث بزّات.

بينما كان إبراهيم يحاول الدفع، قال الخياط جمال:

- بالله ماذا يعني هذا؟ هل تأخذ منكم نقوداً يا إبراهيم بيك. نقودك تدخل علي سمّاً. . وهل سنبقى مدينين لفضائلكم أبداً. . ؟

رد زوبُكْ زَادَهْ غاضباً:

- لا. . وهل نبيع معروفنا كله بالعملة؟ إي، يافهيم، لوكنت آخذ لقاء كل معروف أقدمه لكم نقوداً لما ظل حول عجيزة واحدكم سروال. خذها ولا تَعُدْ إلى إسماعي هذه النغمة بعد هذا.

النقود التي أخذها الخياط جمال أخيراً، وضعها في جيب البزة الجديدة. . وثلاث بزات راحت، ولا خبر من أنقرة.

- رحماك يا إبراهيم بيك. وقت الدراسة يوشك أن ينتهي.

---

١ - أبيه. . تقال للأخ الأكبر- المترجم.

- ماذا؟ ألم تصلكم بعد رسالة من أنقرة بخصوص دراسة أخيك؟ دعني أفكر بطريقة للوزير.

أخذ قلمًا وورقة وراح يكتب ويردد ما يكتبه بصوت عال (أخي وصديقي الحبيب، عديم الأصل، عثمان).

- لا مؤاخذة إبراهيم بيك، لمن هذه الرسالة؟

- لمن ستكون يعني؟ للوزير بالذات. (وبعد تفكير) لن تحلها الرسالة، لأذهب إلى أنقرة وأحلها.

وقبل أن يودع الخياط جمال زوبُكْ زادَهْ إلى أنقرة، فصّل له معطفاً من الجوخ، خاصاً بأنقرة.

أثناء حديثه أخرج الخياط جمال من جيبه مقصاً:

- ألستُ كفؤاً لقصقصة هذا الرجل كما يقصقص القماش؟ أرشدني يا خال نوري، ثلاث بزّات راحت، والمعطف أيضاً. الرجل - عينك عينك - احتال علينا. يا خيّ، اليوم غداً، اليوم غداً. . ، مضى وقت الدراسة. نحن لو وفرنا ثمن البزات والمعطف، أما كنا درّسنا الولد في مدارس الأكابر؟ قل لي نوري أفندي، إذا تركنا هويته دون صاحب، ألا يكون ذلك أحسن؟

لكن هل بقي لنوري الأعمى مبيض الأواني عزم يساعده على الكلام. لوح رأسه يمنة ويسرة وكأن ضرسه يؤلمه. . قال:

- آخ يا ولاد البلد. يعني كلنا تعرضنا للابتزاز. يا ناس، يا هوه، ألم يبق عند أي منا عقل؟ طلمس الله على قلوبنا جميعاً؟ هذا السفيه، قلّيل الناموس، زوبُكْ، ألم نكن نعرف كم هو عديم الوجدان؟ وفوقها نزقّه بالنقود. . آخ، انذبحت، آخ. .

ألا ينجلي أن نوري الأعمى قد بلعً السفيه زوبُكْ زادَهْ، هو الآخر، نقوداً؟ لا بد وأنكم شاهدتم دكان مبيض الأواني نوري. أربعة جدران مفتوحة من الأعلى، ليس له حتى باب، فاستعاض عنه قطعة من خيش. إذا صقّعت الدنيا فإنه يلجأ إلى زوايا الدكان، يسقفه بقماش عتيق أو بتنكة خلقة أو بصفيحة متآكلة، أو بأي شيء يقع تحت يده. يحصل معيشته من لحام شيء أوترقيع أبريق أوتبييض إناء. ولأن الشارع سيمرر من

الدكان فقد أبلغته البلدية بضرورة إخلائه لتستملكه. فقد نوري الأعمى صوابه. ولمن يذهب؟ هرع إلى زوبُكْ زادَهْ إبراهيم (دخيلك يا إبراهيم بيك. أنت مولانا. أنت للفقراء عائل، أنت هذه البلدة. .).

وما الذي يصعب على زوبُكْ زادَهْ؟

- رويدك يا بني، لا تبك. . إنها شغلة بسيطة. بيني وبين جفتفران أوغلو، رئيس البلدية، عداوة. سآتيه بشغلتك هذه من فوق. سأكلم المحافظ، وإذا لم تركب معنا الأمور، نذهب إلى أنقرة كرمى لخاطرك. لا تخض بدنك يا خيّ.

أخرج نوري خمسين ليرة مصرورة في ثنايا ثيابه، كان قد خبأها لغدرات الزمان، مدها إليه:

- الذي يعطي الكثير فمن ماله، والذي يعطي القليل فمن روحه. إنه مبلغ تافه، لا يكفي كأجرة طريق إلى أنقرة، ثمن فنجان قهوة. إذا ذهبت دكاني، عليّ السلام.

اشتعل زوبُكْ زادَهْ بالغضب:

- ولك أعمى. والله أقلع عينك الأخرى[1]. افرنقع من مقامنا.

ضرب النقود في وجه نوري، ولم يترك كلمة إلا وقالها له:

- أنا زوبُكْ هذه البلاد. آآخذ زوادة من أعمى تخّان؟ إذهبْ أنت إلى عملك، لن يقدروا على هدم دكانك ولو استصدروا (فرماناً من السلطان)!!

أخذ المبيض نوري خمسينه، لكنه بيّض لزوبك ثماناً وأربعين قطعة نحاسية. ليس بخمسين ليرة، ولكن بمائة وخمسين ليرة، لا يقدم أحد على تبييضها. وفوقها أهداه طباخاً، ومجموعة أباريق مع الطسوت، طاسة حمام، كلها من النحاس، أشياء كلفت نوري الأعمى خمسمائة ليرة: ليحلها، وبعدها حلال عليه.

في صباح هذا اليوم، فهم نوري أن البلدية ستستملك الدكان غداً، وستبدأ بالهدم. وإذا سمع مصائب هؤلاء، سحب سيخاً من الكور، وحمل ساطوراً من على البسطة:

١ - يسميه المؤلف نوري الأعمى، وهنا يتضح أنه أعور، ويقال «أعمى» للمبالغة. المترجم.

- هيا !!! . أيها الأصدقاء. الكارثة حلت. وعلى نفسها جنت! . . . إذا لم يُمْحَ هذا الوسخ من الوجود فلن تعرف هذه البلاد الأمان. إنها خدمة أكثر وطنية من خدمة العلم. تعالوا نُنّهِ هذا الشيطان، لتحظى البلاد بعدها بالراحة والأمان. يا لله يا شباب.

أعلنها وركض في المقدمة. والآخران؟ كلهم احترقت أنفاسهم وتجمرت معاليقهم، فهل يتلكأون؟ دخان النار الملهلبة في أعماقهم يخرج من بين أسنانهم. أحدهم يحمل سكيناً، والثاني مقصاً، والآخر يحمل ساطوراً. مشوا وهم يقذفون من الشتائم الألوف. . والذين يرون هذه الهيئة ينضمون إليها.

رئيس البلدية جفتفران أوغلو ـ تعرفون ـ عدو لزوبُكْ زَادَهْ. سمع الخبر فأعطى كف مغيب.

عيون صابر آغا مختار آلوجان، الخياط جمال، مبيض الأواني نوري الأعمى، تغزل. أخذ هؤلاء الشجعان الثلاثة يركلون باب زوبُكْ زَادَهْ بالأقدام ويضربونه بالقبضات. لو كان باب قلعة لاقتحموه. انفتح الباب، ولج الشجعان الثلاثة المسلحون إلى الداخل. تجمع الناس حول الباب ينتظرون النتائج.

قال حمزة جفتفران أوغلو: عظيم. هؤلاء سيفرمون زوبك زادهْ فرما. ترى سيصنعون منه (ضِرْفاً)، أم سيقطعونه (راس عصفور) ويملحونه ويخللونه؟ ليست واضحة. .

مر نصف ساعة على وجود الشجعان الثلاثة في الداخل. لا حركة، لا صوت. . لا من زعق ولا من بعق. قال حمزة جفتفران:

- أرأيتم؟ لم يتركوا له متسعاً ليصيح آخ. هذا يعني أنهم وثبوا إلى خوانيقه، ونزلوا عليه نزلة رجل واحد.

وفي تلك اللحظة خرج الشجعان الثلاثة تتقدمهم رؤوسهم المطأطأة.

- ليرض الله عليك!

- لا يحرمنا من وجودك بيننا!

- يطول عمرك!

جاء البعض إلى دكاني وحكوا لي ما جرى. قالوا لي إن الشجعان الثلاثة قد خرجوا من دون أسلحتهم. عندما سمعت هذا قلت:

- كيف؟ ألم أقل لكم يا خيّ؛ إذا كان زوبُكْ زَادَهْ هذا هو نفسه زوبُكْ زَادَهْ الذي أعرفه، وهاجمه ثلاثة شجعان بقصد قتله، فإنه يجعلهم يخلعون سراويلهم وهم في كامل الرضا، ويقول لهم يا لله يا صغاري، مع السلامة! . . ألم أقل لكم؟

إن ما جرى في الحقيقة، هو التالي: لم يحك الشجعان لأحد ما حصل معهم طوال أسبوع. كانوا يجيبون على كل الأسئلة بـ:

- لا أحد يقدِّر الانسان الطيب. وهل في بلدتنا ثمة رجل؟ كلهم يكادون ينفقون من الحسد. لا يطيقون زوبُكْ زَادَهْ. طيب، ما عيبه؟ رجل كالأولياء الصالحين، يخدم الفقراء. وهذا عيبه الوحيد.

بعد أسبوع باح نوري الأعمى بما حدث.

عندما دخل الشجعان الثلاثة وأسلحتهم في أيديهم، كان زوبُكْ زَادَهْ يُشْرِفُ من قرص الدرج. وقبل أن يتفوهوا بحرف قال:

- أهلاً وسهلاً يا سادة. قائد الجندرمة[1] وصل قبلكم بقليل. إنه ينتظر في هذه الغرفة. واضح أن له حاجة عندي. دعوني أحل مشكلته أولاً، ثم أستمع إليكم.

أدخلهم غرفة متاخمة للغرفة التي قال إن قائد الجندرمة موجود فيها. قال نوري الأعمى:

- حالما سمعت بقائد الجندرمة انحلت ركبتاي. يمكن أن يكون برتبة نقيب، يرى الساطور والمقص الضخم والسكين الكبيرة، فيمعسنا تحت بسطاره، محوِّلاً إيانا إلى هباء. نظرت إلى صابر آغا مختار آلوجان، فوجدت ذقنه ترقص، وأسنانه دي دي ددد. . تصطك. أما الخياط جمال فقد انهدَّ حيلُه وسَلَت جالساً على الخشب. استنتجت أنه عندما سمع بقائد الجندرمة، طبّها في سرواله، ولم يعد قادراً على الوقوف. دخلنا الغرفة وأغلقنا الباب، وشرعنا بالانتظار.

كان حديثهما يتناهى إلينا؛ إبراهيم زوبُكْ زَادَهْ يتكلم بعنجهية والنقيب يتوسل ويتذلل:

---

١ ـ الشرطة العسكرية.

- حسناً يا حضرة النقيب. من هذه الناحية لا تدع بالك ينشغل. سأجلعهم يعينونك في المكان الذي تريده. أكْتُبُ لأصدقائي، وإذا لم تتيسر أذهب إلى أنقرة.. ينظرون إلي منتظرين أن أطلب طلباً، ليهبوا إلى تلبيته.. الكل يحسب حسابي، أي نعم.. أنا صرفت في سبيل الحزب ما لا يقدر من الجهد، أنا أفعل ما قلته أنت، أعيّنك في المكان الذي تريده. لكن لي عندك طلباً.

- ولو يا إبراهيم بيك، تفضل. أنت تأمرني أمراً.. على راسي.

- شُفْ يا نقيب. هؤلاء الناس، يجب ألاّ يعاملوا معاملة قاسية. أنا لا أقبل. عندما أكون هنا لا أريد أن أرى أي سلوك مخالف للقانون. فهمت؟ حَدِّثْهُمْ مداعبةً. أبناء هذه البلدة ما لهم أحد، وأنا لا أقبل أن يُهانوا.. بَسْ!.. أما شغلتك فلا تقلق عليها، اعتبرها منقضية! وحتى لو انتقلت من هنا، إذا لزمك شيء - الانسان يتعرض لكل شيء - أعلمني في الحال. إذا تعرضت لجور، فإن رقبتي سدادة لك.

- بوركت يا إبراهيم بيك...

- مع السلامة حالياً. أولاد البلد قصدوني في بعض الأمور.

خرج النقيب داعياً له. سمع الذين في الداخل الحديث فقالوا:

- العمى! نحن ماذا اقترفنا.. سيدنا إبراهيم يطلب من النقيب كل هذا من أجلنا.. ألا يحق له الآن أن يقول عنا ما يشاء؟.. تفوا!

وبلمح البصر أخفى صابر آغا الألوجاني سكينه في زناره. لم يجد نوري الأعمى مكاناً يخفي فيه ساطوره الطويل للغاية، فرماه وراء الباب.. أما الخياط جمال فقد أبقى - من فرط اضطرابه - المقص في يده.

- أهلا بالآغوات.

دخل زويُكْ زَادَهْ محيياً. رأى المقص في يد الخياط جمال:

- ولاه خياط جمال، ما هذا الذي بيدك؟

- كم عتقت ثيابك يا إبراهيم بيك. أتيت آخذ مقاسك.

كم كان مضطرباً، أتى يأخذ المقاس بالمقص.

- لا أريد بزّة، أتريدني أن أنفق دخلي كله عندك.. لكن العجوز ترغب في معطف.

والتفت إلى الألوجاني:

- مشكلتك في طريقها إلى الحل صابر آغا. رُحْ بَشِّرِ القرية، ليعتبروا السهل، من الآن، سهلهم.

دفع صابر آغا خمسمائة ليرة تحت المفرش. قال نوري الأعمى:

- من جهتي لا شيء إبراهيم بيك. رأيت الشباب قاصدينك، فقلت أرافقهم وأسأل عن صحتكم.. كيف الحـال؟ مليح إن شاء الله؟ أوهـوووه.. الحمـد لله، الله يزيدك.. أراك بخير، وإذا أنت بخير نحن بخير.

خرجوا وهو يحدق في مؤخراتهم. ونحن لم نكن لنعرف ما جرى لولا الصدفة. فلقد جاء أحد عناصر دورية الجندرمة يريد إصلاح مهاز بسطاره عند نوري الأعمى، وورد في حديثه وهو ينتظر إصلاح المهاز أن قائد الجندرمة في إجازة. فاستفاق نوري الأعمى:

- لا تقلها! في إجازة؟ تقصد أنه حصل عليها من وقت قريب؟

- أيّ وقت قريب؟ إنه اليوم في اليوم السادس عشر من إجازته، الإجازة شهر.. إنه موشك على الالتحاق..

- لا يا.. الأسبوع الفائت كان عند إبراهيم زويُكْ زَادَهْ في البيت.

- كنت أنت يومها مُحَشِّشاً، أو أنك رأيته في المنام.

أرأيت إلى فهلوية زويُكْ زَادَهْ. كان في الغرفة الثانية لوحده، يحدث نفسه بصوت عالٍ، ليوهمهم أنه يحدث قائد الجندرمة، ثم يغير طبقة صوته محاكياً صوت قائد الجندرمة. هكذا خدع الشجعان الثلاثة الذين قدموا لإحضار أجَله. جاؤوا يطلبون حقوقهم فأعطوه بدلاً من أن يستردوا. الخياط جمال فصل معطفاً لأمه، مختار آلوجان دس خمسمائة ليرة تحت المفرش، وأهداه نوري أربعة صحون مع أغطيتها.

يعني، بالمختصر المفيد، لو هاجمه جيش من الجند لقال:

- مهلاً أيها الجنود. قائدكم حبيبي، الروح للروح، وسأكلمه من أجلكم، كي

يرفعكم إلى عرفاء. فيلقون أسلحتهم أمامه كرشوة، ولكي ينفدوا بجلودهم يعوفون له فردات بساطيرهم.

لو جاء عزرائيل يقبض روحه لما تركه يخرج إلا بألف يا ويلاه..

فيا سيد يا محترم.. واحد قليل ناموس مثله، أين يمكن أن تجده؟

الهدية القادمة من المقام العالي

ما رواه سطلمش بيك صاحب الفندق:

كان يوم سبت. كل سبت يتجه إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ إلى رابطة المعلمين. يطب عبارة عبارتين. ماذا فيه حتى نتحمل منفخته؟ سفيه لا يمكن الاقتراب منه دون تعويذة. كلنا نعرف دونيته، لكن، كلما تقابلنا معه وجهاً لوجه، يعقد ألسنتنا. أتستطيع التفوه بكلمة أمامه؟ أقل كلمة يلفظها: وزير مزير. وإن تواضعَ فمحافظ؛ وإذا لفظت أمامه صفة أدنى من محافظ فيجب أن تردفها بـ (أجلّك الله!) أو (بعيد من هنا!). بلغ منا الاستياء كل مبلغ، لم يعد ممكناً تحمُّل تطنيبه.

مساء ذلك اليوم اتفقنا جميعاً: سنجتمع ونلقن السفيه زوبُكْ درساً نرد به عقله له.

اجتمعنا، كاتب الديوان رضا بيك، الشيخ بدر الفهمان، التاجر أمين أفندي، إحسان أفندي الصف ضابط، وأنا.. ثم انضم إلينا حمزة بيك جفتفران أوغلو، ومرتضى أفندي سلمه الله.

قال الشيخ بدر الفهمان:

- إذا لم نفضح جانب المنفخة عند هذا الواطي، فإنه سيركبنا.

وقال أمين أفندي التاجر:

- نعم. يا حفيظ! إننا الآن لا نستطيع أن نجدل معه خيطاً، فإذا تركناه يتمادى، فماذا عسانا نفعل؟ أحسن حل هو أن نمعس أنفه في حينه، أن لا نترك له وجهاً يدخل فيه مجالس البشر. ما هذا ياه.. ما هذا البلاء الجاثم فوق صدورنا؟ يحتال على الناس بقوله (الحكومة سترسل إلي ممثلاً عنها، لي في الحكومة أصدقاء، الحكومة استشارتني في القضية الفلانية...).

علق حمزة بيك جفتفران أوغلو:

- خبرته في هذا كبيرة يا خيّ. يضع كرسياً أمام بيته، ويجلس، ويسلم على الهواء،.. مرحباً يا سيد قائمقام، وعليكم السلام أيها المقدم. رآه أبناؤنا بأمهات أعينهم، فصار مسخرة بينهم.

وقال مرتضى أفندي سلمه الله:

- لنعطه درساً يعلقه في أذنه كالحَلَق. لنضعه أمامنا ونبدأ بـ (أنت، ألا تخجل يا سافل؟) ثم نتبعها بما تيسر من قلة الأدب.

- هكذا لا يجوز.

- كيف إذن؟

-إنه سيأتي إلى هنا. وعندما يأتي لن يقف كالبشر، سيبدأ باللت والعجن. سيقول الحكومة، إي سيدي، رئيس مجلس الأمة، استدعوني إلى أنقرة، أَذْهَبُ، لا أذهب، والله محتار. جاءتني رسالة من الوزير فلان الفلاني..! إلخ إلخ).. وما أن يفتح فمه حتى ندخل عليه معاً.. يا زوبُكْ يا ابن زوبُكْ، على من تحتال؟..

وقال إحسان أفندي الصف ضابط:

- ما رأيكم في أن أرقعه مُخَمّسين عسكريين يبقيان على وجهه ذكرى أبدية مني يحمل ألمها دائماً؟..

- مناسب للغاية.

- استلم رضا بيك كاتب القائمقام الحديث:

- أنا لا أتدخل في هذا الحديث فعلاً، فأنا موظف عند الحكومة. لكن أنا معكم قلباً. إذا تدخلتُ فسيقولون إنه يعمل في السياسة وما سياسة. لا تزعلوا، فأنتم أيضاً حزبيون، وهل ثمة ما لم نذقه من الحزبيين؟ بالنسبة لكم لا يستطيع زوبُكْ زاده أن يطالكم، لكن أنا، لكوني موظفاً، فإنه يقدر على مواجهتي.. ووقتها أتحمل خطيته وأذبحه.. لا تجعلوا مني قصاب خنازير.

- معك حق.

- هاهو قادم.. استعدوا.

وصل زوبُكْ زادَهْ:

- السلام عليكم.

أحنى كل واحد منا رأسه وقال بفم مائل: وعليكم السلام.

خيم السكون. همس إحسان أفندي الصف ضابط للشيخ بدر الفهمان:

- أأرقعُه كفين بالمقلوب؟

- هكذا، دون سبب، لا يجوز. اصبر، إنه سيبدأ من تلقاء نفسه.

وأضاف:

- إذا سأل: ما اليوم؟ نقول له: غير معروف، إذا كنت ستتشرف، فدعنا نعلم حتى نهيىء أنفسنا.

قال حمزة بيك:

- ايه يا إبراهيم، ماذا عندك.. في أي منصب علقت نفسك؟

- لا شيء يا حبيب. وصلتني رسالة من أنقرة. سيرسلون وفداً إلى هنا. كم شخصاً، متى يصلون، لم يبينوا فيها.. حمير.. إنهم، هؤلاء، حمير. عملوها مرتين حتى الآن، لم يأتوا. سيعرف ذلك وجهاؤنا: لو أتت خمس دزينات منهم فإن سُفرة إبراهيم بيك زوبُكْ زادَهْ تتسع لهم.

سأل أمين أفندي التاجر متهكماً:

- ماذا يا إبراهيم زوبُكْ؟ مَن القادم؟

- الأوباش.. كتبوا رسالة.. من أنقرة..

ألا يخرج الرسالة من جيبه ويمدها إلى أمين أفندي؟ واه!... عندما تناول أمين أفندي الرسالة منه رقص حاجباه، وعيناه.. صار يقرأ فتجحظ عيناه.. ثم مدها إلى إحسان أفندي الذي كان قربه.. وعينك ما ترى إلا إحسان أفندي الصف ضابط! يا ساتر يا سيد.. ربما، وهو يقرأ الرسالة، تذكر أيام العسكرية.. ذلك أنه لم يبق بينه وبين أن يأخذ لها تحية إلا القليل.. أعطاني الرسالة.. رحت أقرأ.. ألم ترتجف يداي ولم أستطع قراءة الرسالة من فرط رجفانهما؟ قرأت الترويسة (مجلس الأمة التركية الكبير): ناولتها للشيخ بدر الفهمان.. قال إبراهيم زوبُكْ زادَهْ:

- إنه صديقي، الروح للروح.

ماذا، مَنْ صديقه؟ وهل يمكن الوقوف أمام زوبُكْ زَادَهْ؟ أشار التاجر أمين أفندي إلى حمزة جفتفران أوغلو أن ادخل على الخط، إبدأ الحديث، فغمزه حمزة أن ابدأ أنت. بعد الرسالة، من يستطيع قول شيء. تنحى الشيخ بدر الفهمان جانباً. كان واضحاً أنه يريد قول شيء، سعل، وإذا هم بفتح فمه، دخل ساعي البريد. قال السلام عليكم، واتجه إلى زوبُكْ زَادَهْ، وفي يده علبة مزينة ومغلفة.

ـ لَكَ طرد إبراهيم بيك.

رد زوبُكْ زَادَهْ بازدراء:

ـ أيضاً؟ طرد ماذا؟

ـ والله لا أدري. أخذته إلى البيت فلم أجدك. قالت لي الخالة إنك هنا. وَقِّعْ هنا، نعم هنا.

ـ ومَنِ المرسل؟ إقرأ لي هذه الورقة فعيناي لا تميزان الأشياء، ونظارتي ليست معي.

قرأ إحسان أفندي الصف ضابط العنوان المسجل على الطرد متأتئاً: (المرسل: ودا.. ودارة الزراعة ـ أنقرة).

ـ لا حرمني الله منه (قال زوبُكْ) يحترمني كثيراً. أنا لا أخيِّره على الحاضرين، هذا الوزير، رجل طيب.

لم أفهم جيداً، من هو مرسل الطرد، أهو الوزير؟ المهم أنه.. من مقام عال.

ناول زوبُكْ ساعي البريد ليرة فضية إكراماً له.

ـ نتعبك معنا، أوصله إلى البيت لو سمحت.

وإذ كان الساعي موشكاً على الخروج، ناداه:

ـ لحظة بالله.. لربما كان بداخله شيء يؤكل.. إذا كان بداخله ما يؤكل، فهل ترسله إلى البيت؟..

فتح الطرد فوجد بداخله شوكولاته وسكاكر متنوعة، و ورقة مطوية.

ـ إقرأ إحسان أفندي.

فقرأ إحسان أفندي: (أخي العزيز إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ..

غصصتُ لأنك لست معي. هدية الراعي علكة. لذا أرسل لك علبة سكاكر.. من جهة القضية التي أخبرتني عنها برسالتك، كلمت رئيس مجلس الأمة بالذات فقال لي: (أليس هذا زوبُكنا، ما غيره؟.. إذا لم نقض حاجته هو، حاجة من نقضي؟ ليكتب إليَّ رأساً من الآن فصاعداً، ليكلمني بالهاتف.. أو أزعل.. إذا كتبتَ له فقل له إنني أقبله من بين عينيه).. ولئلا تبقى وصيته في رقبتي، كتبت إليك. إذا لزمك شيء فاكتب إليَّ.. قبلاتي بين عينيك.

ما هذه الرسالة! وزع زوبُكْ زَادَهْ السكاكر، لا بد أنها، سكاكرَ الحكومة، مطعمة بالقشطة.

عندما خرج ساعي البريد دنا إحسان أفندي الصف ضابط من إبراهيم بيك وهمس في أذنه شيئاً. سمعته يقول له:

ـ إبراهيم بيك.. من لنا سواك يا أخي؟.. لا أحد. من يحصل حقوقنا؟ أنا مثلاً خدمت الوطن تسعة وعشرون عاماً، وعندما أُحِلْتُ على المعاش، أكلوا عليَّ تعويض التقاعد، عن فترة خدمة العلم، عينك عينك.. ما قولك؟ لم تبق جهة لم أقدم لها معروضاً. واحد ضعيف مثلي، أتؤكل حقوقه، سيدي؟ لماذا؟ لأنه ليس لي ظهر. أعبثاً قالوا: (ضُرب اليتيم على خده، فصاح آخ ظهري)؟.. يا إبراهيم بيك، أنت صاحب معارف كثر.. لا، ماذا يعني (كثر)؟ المسؤولون كلهم أصدقاؤك. أُنظر، ها إنهم يرسلون لك الهدايا.. ماذا يعني هذا، أهو شرف قليل؟ والله إني لأرفع رأسي فخراً بكوني ابن بلدتك. أخي، منذ أن وجدت هذه البلدة، هل استلم أحد غيرك هدية من وزير؟ أنت إبراهيم بيك تعرف، أنا لست واحداً من أولئك الخبثاء الذين يجاملون..، أنت يجب أن يُنْصَبَ لك تمثالٌ في هذه البلدة. أقول لك هذا دون أية مواربة.. والآن، هل تستطيع أن تجد مخرجاً لمشكلتي؟ ماذا يعني؟ أُنظر إلى عقلي.. ياه.. سألتك (هل تستطيع؟)، إذا لم تستطع أنت فمن الذي يستطيع؟..

كدت أطق وأنا أسمع ما كان يقوله إحسان أفندي الصف ضابط. ألم يكن هذا الواطي يقول قبل قليل: دعوني أرفع هذا الحقير كفين مقلوبين؟ تفوو. آخ يا رذيل..

طبطب زوبُكْ زَادَهْ على كتف إحسان أفندي الصف ضابط:

- سهلة. اعتبر شغلتك منتهية. لكن تعال إليّ في البيت لأسجل معلومات بطاقتك. أنا أحلها. عندما تلعب العملة، ماالذي يستعصي؟ دعها لي. وكن على ثقة أن الأخلاق في هذا البلد قد انقرضت. يا ناس، أمن أجل أن تحصل حقك يجب أن ترشو؟ بلغت الحقارة الرُكب.

- ليتنا نعرف كم ستكلفنا الشغلة. أخشى أن تكون البطانة - كما يقولون - أغلى من القماش.

- إخرسْ.. ماذا يعني؟ هذا مالم أكن أنتظره منك يا إحسان أفندي. نحن أصدقاء الروح، نعيش للصداقة، لنقدِّم المعروف ولنصرفْ كم قرشاً في سبيله.. أنت فقط تعال إلى البيت.

- الأصيل شيء آخر.. وهل كالأصيل أحد.

ردده وهو يتراجع إلى الخلف.

كان أمين أفندي التاجر ينتظر دوره. اقترب بسرعة. هو الآخر عنده قضية سيراجع زوبُكْ من أجلها.. ومن لا قضية له؟ وراءه كان يقف الشيخ بدر الفهمان.

كنت أقول بيني وبين نفسي: آخ ياأوباش.

المشكلة الحقيقية عندي. لكنهم لا يعطونني دوراً لمراجعة إبراهيم بيك زوبُكْ زادهْ. مشكلتي كبيرة: لم أستطع ولا بأي وجه من الوجوه الحصول على رخصة لتصنيع المعادن. في أول الأمر شغّلت العملة. لم يبق أحد إلا ورشوناه.. دون جدوى.. آه لو نحصل على الرخصة!

شرحت لزوبُكْ زادهْ المسألة.. وبينما أنا في منتصف الحديث، وقف وقال:

- عن إذنكم.. أترككم بخير.

بقي حديثي في منتصفه، فهل أتوقف؟ شرحت له ونحن في الطريق كل شيء بالتفصيل. قال:

- حسناً. نعملها لك. يصبح للبلدة مورد. لكن، في هذا الزمان، أيمكن أن تتقدم خطوة دون رشوة؟ لو أن الدنيا تغور بهم ويسلم الباقون.. يا ناس، إنها قلة نخوة.. ما أن تلج باب الحكومة حتى تزرب الرشوة من كم بنطلونك.. نهاية العالم

اقتربت ياأخيّ. أين الناموس.. إذا سمعوا بواحد عنده شرف فإنهم يرفعونه بتقرير، يؤدي به إلى مشفى المجانين في الحال. العوجة دائمًا من الرأس. لماذا؟ قال لأن رائحة السمك تفوح من رأسه. نعم، لقد فاحت من رأسه ووصلت إلى ذيله.

قلت لنفسي: إذا أعطيته نقوداً سيزعل. ترى هل سيحاسبني فيما بعد؟.. طيب، ابن بلدتنا، فهمناها، لكن أيرشو من جيبه؟ مستحيل. نظرت، كان يبحث عن سيجارة في جيبه. دسستُ ألف ليرة في علبة السجائر وقدمتها له.

- خلّ هذه العلبة معك. عندي غيرها في البيت.

المهم، ودعت زوبُكْ زادهْ وعدت إلى رابطة المعلمين. كان مرتضى أفندي سلمه الله يونّق خطبة عن الانسانية:

- هل نحن بشر يا ترى.. أعبثاً قيل إن الانسان رضّاعُ الحليب النيء؟ كلما بادرَنا أحدٌ بالإحسان قابلناه بالاساءة. إبراهيم بيك زوبُكْ زادهْ مثلاً.. هذا الرجل قدم لنا الإحسان، يسارع إلى فعل الخير مع أي شخص. بمجرد أن يكون الواحد ابن بلدته، فإنه يلقي روحه قدامه،.. ونحن لا نقدره، لا بل إننا لا نترك كلمة سوء إلا ونغتابه بها. ما نفعله هذا، أهو إنساني؟

ضممنا أصواتنا إلى صوت مرتضى أفندي:

- أجل. نحن نعاني من فقر في انسانيتنا.

- لن تعرف بلدتنا مثل زوبُكْ زادهْ، ولن تعرف..

- ولي من أولياء الله...

التقينا على مديح الرجل.. نفخناه حتى طيرناه في الجو.

ومضى أسبوع...

نحن خمسة إلى عشرة أشخاص في رابطة المعلمين، إذ دخل أمين أفندي التاجر وهو يضرب على وركيه بيديه كديك:

- يا ساتر، ما هذه القذارة، ما هذه السفالة.. يا هوه، أهو معقول أن تخلّف بلدتنا رجلاً بهذه الدونية.. إنه بالوعتنا.. لقد شوّه سمعتنا.. لم يترك لنا وجهاً نقابل به الناس ونقول نحن من البلدة الفلانية.. لو ذهبت إلى آخر الكون وسئلت من أين أنت،

وأجبت أنا من البلدة الفلانية، لقالوا لك فوراً (عرفنا، عرفنا. . من بلدة زوبُكْ. أليس كذلك؟ أخرج من هنا فوراً. . لئلا تنجِّس المكان). . ما هذا الذي يحصل؟ سنمشي دائماً ورأسنا في الأرض مطأطأ.

ـ ماذا جرى أمين أفندي؟

ـ ماذا؟ أأنتم تعرفون شيئاً؟ كنت أتحدث مع سائق عربة البريد. قال لي (ثمة ألاعيب يلعبها زوبُكْ زَادَهْ. . لكن لننتظر. .) قلت: أية ألاعيب؟ قال: (لا أعرف، لكن رائحته ستفوح قريباً. .) . . وعندما ألححت عليه باح. . السافل زوبُكْ زَادَهْ ركب عربة البريد إلى مركز المحافظة، وقال للسائق: (قبل أن تذهب إلى أنقرة تعال واجهني في الفندق).

جاء السائق إلى الفندق فناوله زوبُكْ علبة كتب عليها عنوانه: (سلم هذه لمركز البريد في أنقرة. . لا تنس ذلك). أعطاه أجرة البريد، وفوقها عشرة ليرات. تساءل السائق (وهل ثمة من يرسل لنفسه طرداً؟ لا بد وأن فيها شَرْمَطَة. . فلننتظر). . يا ولاد بلدتنا. . يا هوه. . تلك الشرمطة، ألم تفح رائحتها هنا، في هذا المكان؟ ما علبة السكاكر التي أحضرها ساعي البريد إلى هنا؟ يا له من غشاش صاحب الاعيب. . ألم يقرئنا تحية رئيس مجلس الأمة في رسالة الوزير؟ كتب لنفسه رسالة على لسان الوزير. ونحن كالحمير، فارغون. . ماذا يعني كالحمير. . نحن حمير. . وأي حميرا! . .

صرخ إحسان أفندي الصف ضابط:

ـ حمير أبناء حمير. . وهل يكتب رئيس مجلس الأمة لهذا السَّفيه زوبُكْ (أقبلك بين عينيك، وإذا لزمك شيء أكتب إلي. . أنتظر منك مكالمة؟) نحن كيف صدقنا هذا الكذب المُذَنَّب؟ إذا شبهنا أنفسنا بالحمير، ففيها إهانة كبيرة للحمير.

خيطت فمي. ما عساي أن أقول، ولمن أقول؟ لقد بلَّعته ألف ليرة. إذا حكيت فسأصبح سيرة على ألسنة الناس، وناهيك عن ضياع الألف ليرة؛ ستنتقل السيرة إلى أحفادنا.

قمز الشيخ بدر الفهيان كسيارة مشفَّطة:

ـ هيا. . لنخـرج ونستنشق بعض الهـواء. . وهـل بقيت في ركبتي قوة تكفي

لأنهض. . لو قصصتم شرياني الأبهر لما وجدتم فيه دماً. . . نشف دمي، نشف نخاع عظامي.

آه، آه. . أتعرف أنت سفالة زوبُكْ زَادَهْ؟ لا تعرف. ومن أين؟. . منذ أن تشكل الكون لم تلد النساء قذراً مثله.

ثلاث جميلات . . كل واحدة أجمل من الأخرى

ما رواه رضا بيك كاتب القائمقام:

كيف وجدتم بلدتنا أيها المعلم؟ نعم، إنها جميلة، لطيفة. لكن ما العمل، إنها مهملة، لكونها تجانب الطريق العام. . الآن لا جدوى. . لو يمر من هنا طريق إيران فسيكون بلا جدوى. . بقينا دون سند، ما أجمل أن يكون لنا سند. لكنها بلدتنا، وحتى لو كانت سيئة، جميلة في نظرنا. إذا غبت عنها أسبوعاً، فإن قلبي يغلي كمرجل، لا أتوقف في مكان، أسرع عائداً إليها. الناس هنا طيبو القلوب، أوادم. . بس لو أن هذا الزوبُك زَادَهْ غير موجود. تكفي نظرة واحدة منه لتحويل البلدة إلى زبل. لو أنكم سمعتم ما فعله بنا، هل ظل أحد لم يفتّ لهذا الواطي عملة. . أيمكن ألا تسمع سيرته المنتشرة في الخافقين. . غير أن أكبر سوءة من سوءاته، هي تلك التي اقترفها مع قادر أفندي المعارض. محسوبكم، أنا، لا أنتمي، لكوني موظفاً، إلى أي حزب من الأحزاب. لكن، بسبب ظروف الوظيفة، الراتب قليل والحياة صعبة، نحن معارضون، اضطراراً يعني. لكن معارضة قادر أفندي ليست كمعارضتنا، وظيفية. طبعاً يا خيّ، معارضة الموظف تتعلق بمعيشته، فهو من برّه خام من جوّه سخام. لو أعلن الموظف على الملأ: (لِيُدِم الله هذه الحكومة على رؤوسنا) فإنه يقصد: (لِتَغُرْ الله يأخذ هكذا حكومة!). حضرتك موظف أيضاً، أليس كذلك؟ الله عليم بالحال. لكن خذ معارضة قادر أفندي، إنها ليست كمعارضة الموظف، فهو، على نحو مكشوف، وعينك عينك، معارض. معارض بالفطرة، مثل أولئك الذين يولدون مشوهين. هكذا نعرفه، أية حكومة تركب، هو معارضها بالفطرة. عندما فاز الحزب الذي أسسه هو، بالأغلبية، واستلم السلطة، استقال في اليوم التالي، وانضم إلى المعارضة. سمعنا بذلك فهرعنا إليه:

- يا لطيف يا قادر أفندي، ماذا فعلت؟ كذا سنة وأنت تعاني الأمرّين، في سبيل إيصال هذا الحزب إلى السلطة، كل أنواع البلاء انصبت على رأسك. إن أكثر المعارضين قد تركوا أحزابهم والتفوا حول الحكومة ليملؤوا جيوبهم. . فما معنى عملتك هذه؟

- هذه من تلك وتلك من هذه! . .

أجابنا قادر أفندي المعارض! . .

- عجينتهم واحدة، مَنْ يشكل الحكومة منهم، لا يختلف عن الآخر. ذات مرة كان عثمان القصاب ونوري الأعمى مبيض الأواني في الطريق. . درجت دراجة عربة فوق زبلة ثور طازجة، فقسمتها قسمين. قال نوري لعثمان: (أُنظر يا آغا إلى هذه الزبلة، كانت واحدة فصارت اثنتين، هذه من تلك وتلك من هذه! . .).

ماذا يقال في مثل هذا الكلام؟ أنا موظف عند الحكومة، كاتب عند القائمقام، لو سمعنا أحد نقول هذا الكلام، لوضعوا عرضنا على بلاّنة. .

يا أخي، سم المعارضة يجري في دم هذا الرجل، وفي نقي عظامه. صار - لا وفقه الله - مدمن معارضة، كإدمان السيجارة والقهوة، فإذا لم يعارض فإنه يخرم ويدوخ.

زخْ بازمان، تعال يا زمان، وقعت على رأس قادر أفندي المعارض مصيبة لا توصف. . أية مصيبة؟ ليست مصيبة واحدة، اثنتين؛ بل ثلاثة مصائب. لم يولد له غلام واحد. جاءته ثلاث بنات. . الأولى سماها يكدانة. . ظن أنه سيرزق بعدها بغلام، فجاءت الثانية، سماها دردانة، اعتقد أنه سيرزق بعدها بغلام، فشرفت الثالثة، فسماها جولدانة. ثلاث بنات كل واحدة أجمل من أختيها، حوريات لا تجد لهن مثيلات ولا في بلاد العجم.

مرت بالبلدة ذات يوم معلمة خياطة جوالة. لم توافق هذه المعلمة مزاجنا. امرأة مثل الرقاصات، تنورتها الغربية إلى ما فوق الركبة، يهب الهواء فتقب التنورة، فما ترى إلا الشبان وهم ينبطحون وراءها، ويتشاغلون بالبحث عن حبات المسبحة. من وقتها نوَوْا أن يأخذوها إلى الجبل، لكن يومذاك كان عندنا قائد جندرمه، يا ساتر يا ساتر. . فلم يجرؤوا على الاقتراب منها. . واكتفوا بمصالبة زنودهم مع أصابعهم الوسطى لها من بعيد.

لم يسمح أحد لزوجته أو لابنته بالذهاب إلى هذه المعلمة. قعدت في البلدة أسبوعاً، همت بعده بالرحيل. قادر أفندي المعارض، المعارض دائماً، لوجه المعارضة، أرسل بناته لتعلم الخياطة عندها. . خلال أربعة شهور، صارت لكل واحدة من البنات عشر مهارات، على كل اصبع مهارة. كم تساوي العرائس الاسطنبوليات إذا ما قسن بهاته البنات؟ تعلمن الخياطة والتطريز بكل أنواعها. صار الكل يرغب في رؤية ما تخيطه البنات لأنفسهن. مثل ألبسة التانغو، الخالق الناطق. لم ير الناس هنا مثل تلك الألبسة على أجساد النساء. ألم يعجب الرجال بهن وصاروا يودون الزواج منهن، وهن كلما تقدم خاطب تَغَنَّجْنَ وتَغَنَّرْنَ؟ . . قلوبهن عند شبان اسطنبول؛ نعم، لو أرسل قادر أفندي المعارض بناته إلى اسطنبول، لوجد لهن الكثير من الأزواج، لكن قادر أفندي لا يمتلك النقود، ألم أقل إنه معارض مسكين، فمن أين تأتيه النقود؟ لو أنه صبر على نفسه، بعد وصول حزبه إلى السلطة، يومين ثلاثة، لَلَعَنَ أمّ النقود، لكنه، وبسبب سوسته الملعونة، لا يستطيع أن يكون إلا هكذا.

لكيلا أطيل، لم نستطع جعلهن يقدمن على عريس، لا من البلدة، ولا من نواحيها، ولا من قراها. قالوا (خبيء التبن حتى يأتي أوانه)، لكنهم لم يقولوا (خبيء البنت حتى يأتي أوانها). . خبأتَ البنت، يبستْ، ضاعتْ، لم تعد تصلح لشيء. . أعمارهن تتراوح بين العشرين والخمسة والعشرين عاماً. النساء اللواتي في أعمارهن خلفن شباناً وبنات، صاروا في مثل قامات أمهاتهم. بعدما صار الذي صار، أخذ المعارض قادر وبناته يدقدقون بأيديهم على ركبهم. . لكن ما النفع؟ صارت البنات يلبن مناديات: زوج يا الله زوج، والأب يلوب وينادي صهر يا الله صهر.

أصبحن يقبلن براعٍ له نصف عقل آتٍ من رأس الجبل. . . اللهم إذا التفت ذلك الراعي إليهن. عندنا، عندما تبلغ البنت الخامسة والعشرين يقولون إنها عتقت، يعني عنست.

صارت بنات قادر - كما فهمنا من نسائنا - يذبن بحسرة الزوج كما الشمع، وصار والدُهن يتحرق إلى صهر، وهو مستعد، من أجل تزويجهن، لتقديم ما لديه من مال وممتلكات، مستعد لأن يعمل خادماً في بيت الصهر. .

فجأة، ذات يوم، اكتشفنا أن إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ وقادر أفندي المعارض قد صار لهما عجيزتان في سروال واحد، صديقين، الروح للروح، يمضيان أيامهما ولياليهما معاً.

كان إبراهيم زوبُكْ زَادَهْ في ذلك الوقت عَزَباً، **فما الغامض في المسألة؟** . . . . واضحة: سيتزوج زوبُكْ إحدى البنات. وقادر، ألا يعرف كم هو قذر زوبُكْ؟ يعرف. . يعرف، لكن ماذا في يده؟ عندما بدأ زوبُكْ زَادَهْ يدخل ويخرج، قال لنفسه: يا الله، لينطلق نصيب البنات. يعني نصيبهن كان مكبلاً؟ وقد انطلق فعلاً بعد زوبُكْ زَادَهْ. تقدم أشرف آغا، أحد أشراف البلدة، طالباً يد يكدانة لابنه. صار الشاب يحترق، وكذلك أبوه. الأب أغنى من قارون. ذهبنا إلى قادر أفندي المعارض، أنا وبعض الأصدقاء:

ـ الرحمة يا قادر أفندي، الشاب من أجلها يتلظى، شاب شريف، والأيام أيامه.

أخذ يغمغم ففهمنا. ألا يدخل زوبُكْ زَادَهْ عليهم ويخرج؟ يكدانة تأمل في أن يتزوجها. الشاب الآخر من هنا. . ، نحن نعرفه تماماً. . ، أما زوبُكْ زَادَهْ، فلو تأملته لخلته واحداً من أكابر اسطنبول. لا يمكن أن يطلع دون ربطة عنق، وحذاؤه يتلامع كالمرآة، . . بنطاله مكوي وكأنه خارج من القالب تواً. نقول لقادر أفندي (غيِّر، بدِّل، أعطِ البنت للشاب) فيروح يمدح زوبُكْ زَادَهْ:

ـ رجل صاحب عقل؛ عقل يا أفندي عقل. . سترون إبراهيم بيك. . لن تتسع هذه المنطقة لمكانته. هو رجل أنقرة لا راح ولا جاء. أنا الآن أتعهد لكم، خطياً، إذا لم يصِرْ نائباً فراجعوني. مستقبله باهر باهر. .

ما الغامض؟ وضع الكديش الكبير في ذهنه: سيجعل زوبُكْ زَادَهْ صهره. سيصير زوبُكْ زَادَهْ نائباً، ويكدانة زوجته، يأخذها إلى المدن الكبيرة، مُخلِّصاً إياها من هذه البلدة، **ما سمم البنت غير تلك المعلمة.**

وبعد زمن، وفجأة لا ندري كيف، دبَّ الخلاف بين زوبُكْ زَادَهْ وقادر أفندي المعارض، بدأ كل منهما يغتاب الآخر، لا يتواجهان أبداً. . بيد أنه كان خلافاً مؤقتاً، فعادا أشد وئاماً من ذي قبل.

أرسل الرجل الذي طلب يكدانة لابنه، خبراً إلى قادر أفندي، يقول له:

ـ **ابني يحترق كقطعة حطب، إذا كان لا يعطي يكدانة، ولئلا يحترق ولدي الحلو،** فليعطنا دردانة. يكدانة ودردانة عبارة عن تفاحة مقسومة بالنصف.

في البداية قال قادر أفندي المعارض (نسأل البنت)، وبعد يومين (لم توافق البنت).

ولكي ينقذ أشرف آغا ابنه الحلو من نار العشق المشتعلة فيه، فقد أخذ يبعثر نقوده على المشايخ والسحرة.

مرة ثانية اختلف زوبُكْ زاده مع قادر أفندي المعارض. وأيضاً لم يستمر خلافهما طويلاً. . ثم علمنا أن قادر أفندي المعارض قد ترك حزبه وانضم إلى حزب الحكومة. .

ماهذا يا. . ه، زوبُك زاده يسحب قادر أفندي المعارض من ياقة قميصه، يجره إلى الحزب، ينسِّبه. قلنا:

ـ **أيوا. . ه، هذه علامات قيام الساعة.**

شرح أمين أفندي، الصديق الحميم لقادر أفندي، الموقف، قال:

ـ وماذا يعمل؟ كل هذا من هَمّ البنات. . كان يحكي ويبكي. قال لي: (مستقبل **إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ باهر، سيصبح فوق الريح. . ولأنه صادقني اغتابه الناس.** . أعداؤه كثيرون، الكل يغار منه. وأنا، ولأني صاحب تاريخ طويل في المعارضة، أؤثر على مستقبله. حرام. . تأثرت على حاله، قلبي رقيق، لم أستطع صبراً. . بعدها أنا الآن في الستين من عمري، يعني إذا ظللت معارضاً، أو صرت مؤيداً، ماذا يهم؟ مهما يكن الأمر فيجب ألا أكون حجر عثرة في طريق مستقبل ابراهيم بيك). . . كان يتكلم ويبكي. لا تلوموه أكثر مما ينبغي، إنه رجل مهموم.

ظل ابن أشرف آغا يتحرق. أرسل أشرف آغا خبراً آخر:

ـ ليغير قادر آغا، ليبدل. . سأذهب ضحية مشكلة ابني. طلبنا يكدانة، لم يعطها، دردانة، رفض، طيب ليعطنا جولدانة. إذا أراد ذهباً، نعطيه بوزنها، أو مأكلاً، نؤكله. . إن أراد نقوداً، فنقود، وإن أملاكاً، فأملاك. .

أشار قادر آغا للرسول باتجاه الباب:

- سلم على أشرف آغا، وقل له: ما عندنا بنات للزواج.

ما الذي جرى للبنات بعد ما كن يتلظين صائحات زوج يا الله زوج؟ لا بد من وجود قملة تسعى.

عندما سمعنا سر المسألة من السائق نوري الأعوج، فوجئنا. المعروف أن نوري الأعوج هذا سائق، . . لكن لا تقف عندها كثيراً، يقال إنه سائق، لكن أحداً لم يره وراء مقود قط. كل أنواع الحقارة ملتمة في شخصه، السكر، القوادة، القتل بالأجرة. . وما هو من هذا القبيل. إنه لا يُرى في بلدتنا كثيراً، يتواجد في أنقرة، اسطنبول، إزمير. . رجل غير مأمون الجانب. . ماذا يعمل في هذا المكان البائس؟ هنا لا تسلية، لا لَطْلَطَة. كلما خرج من السجن يزور البلدة، إنها بلدة أبويه.

في تلك الأونة ظهر نوري الأعوج. في المساء اتجه قادر أفندي المعارض إلى بيت أم نوري الأعوج، وعيناه تقدحان الشرر:

- يا ابني نوري أفندي، يقال إن الذئب، ومع أنه ذئب، لا يأكل جاره. أليس كذلك؟

- لا يأكله يا عم قادر أفندي.

- والذي يعتدي على بنت من أهل العفة والعرض والشرف، أيقال عنه رجل؟

- لا يقال عنه. . يا عم قادر أفندي.

- طيب، إذا كان ثمة رجل يمتلك مثل تلك الفظاعة، فماذا يجب أن نفعل به يا ابني نوري أفندي؟

- يجب إنزاله جثة هامدة، وإلقاؤه على رأس جبل، لتأكله الطيور والذئاب.

- أتعرف يا ابني نوري أفندي، لقد أعجبني تفكيرك، مرحى لك يا ابني نوري أفندي، طيب. . وهل في إنزال جثته هامدة، ثواب؟ أجبني لأرى.

- ثواب لا يقدر يا عم قادر أفندي.

- حسن. والآن قل لي يا ابني نوري أفندي، أنت، ألا تريد كسب مثل هذا الثواب؟ . .

- لا يمكن غسل الذنوب التي علي إلا بعمل كهذا، يا عم قادر أفندي. قل

بسرعة، إن كان ثمة عمل صالح أخبرني عنه بسرعة، أم أنك تريد أن تعمله بنفسك؟

وهو يروي لنا الحكاية قال نوري الأعوج:

- كنت أسايره. فقد كان وجعه معروفاً بالنسبة لي، وعلاجه عندي.

- ما وجعه برأيك؟

- وماذا يمكن أن يكون؟ بناته. نحن نعرف من وقتها. لكن قادر أفندي يظن الناس عمياً صمّاً. .

وفهمنا أن قادر أفندي المعارض قد أخبر نوري الأعوج بأن إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ، قد أرسل والدته تخطب ابنته الكبرى يكدانة له، على سنة الله ورسوله. . وقال له أيضاً:

- نحن لم نوافق بتاتاً. وهل تُعطى بنت لواحد سافل من السفلة. .؟ وطردت أمه قائلاً لها: (إذا ذكرتِ اسم ابنتي على لسانك فسأشقك نصفين)، آخ يا ابني نوري الأعوج أفندي، من يستطيع أن يجدل مع الأوباش خيطاً؟ هذا المفضوح عرضه، زوبُكْ، ألا يدور على مشايخ السحر في الأقضية السبعة ويكتب عندهم سحراً؟ والخاطبة الداعرة، ألا تطعم ابنتي يكدانة لسان جحش؟ بعدها شعللت النار في البنت وراحت تهذي ليلاً نهاراً: زوبُكْ، زوبُكْ، آه زوبُكْ. نظرنا فوجدنا أن لا خيار، البنت ستضيع من يدنا، فقلنا لهم (خذوها ولتروا على وجهها الخير إن شاء الله).

قبل أن ينتهي من شرح ما حدث لابنته، وضع قادر أفندي المعارض على الأرض قطعة كعك، مصحفاً، مسدساً، وقطعة ورق ملفوفة على قضيب لها شكل العلم، وطلب منه أن يضع يده فوق هذه الأشياء الأربعة، ويقسم على أن لا يبوح بما قاله له لأحد. وبالفعل، وفى نوري الأعوج بيمينه، فلم يبح قبل أن يستخرج لليمين كفارة: لفوا أربع كعكات على رأسه، ثم رموها للكلاب، انفك اليمين.

نحن نعرف أن حقيقة الأمر ليست كما نقلها قادر أفندي المعارض إلى نوري الأعوج. إن الذي حصل هو التالي: عندما أخفق قادر أفندي المعارض في تزويج البنات، احتار في أمره، وضع عينه على إبراهيم بيك زوبُكْ زادَهْ، صار يدعوه إلى بيته حتى أصبحت علاقتهما لا تخر الماء. ثلاث بنات في البيت، كل واحدة أجمل من أختيها،

إذن، فليخترْ زويُكْ زادهْ التي تعجبه. صار الأكل والشراب كل مساء معاً، يعني باختصار قادر أفندي، من حيرته، سيدفع واحدة على زويُكْ زادهْ. يقول لنفسه:

- حرّكْ عقلك يا قادر. ما الذي جنيته من معارضة كل هذه السنين؟ الشباب راح، وعمرك على وشك.. إذن دع هاته البنات يرتحن. هذا الزويُكْ زادهْ، مثل الجن، احبسه مع الجن يجننهم.. ومن جهة المستقبل، إذا قلت، فهو لامع، منصب رئاسة البلدية في جيبه، عضوية مجلس الأمة مضمونة مائة بالمائة.. فليختر من البنات التي يشاء..

لم ينس إبراهيم زيك زاده، من جهته، ما تقتضيه عادات الأكابر، الترتيب. فبدأ بالكبرى يكدانة. ويكدانة واقعة في غرام زويُكْ بطبيعة الحال: تصبح زوجة نائب، تذهب إلى أنقرة، أمريكا، أورويه..

بعد انقضاء زمن، ملَّ زويُكْ من يكدانة. امتدت يده، هذا السفيه، إلى عنبر البنات.. إذا أكل الواحد العسل والفطائر يومياً، فإنه يملّها.. ما العمل، يريد أن يذوق طعم البنت الثانية. جاء يوم، قال فجأة:

- لا مؤاخذة عمي قادر أفندي، أنت معروف للجميع بمعارضتك، وكوني صديقك وصلت حتى إلى مسؤول حزبنا.

- إي؟

- إي، هكذا. ستنضم إلى حزبنا، لاحل آخر. أنا لستُ مستعداً لإضاعة مستقبلي هكذا، عينك عينك.

- دخيلك يا ابني، كيف؟ ويكدانة؟ كنتم على وشك إعلان الخطوبة، هكذا كان اتفاقنا.

- طبعاً، أنا لم أتراجع، كلمتي كلمة، لكنني لا أضحي بمستقبلي.

وهكذا انسحب زويُكْ زادهْ إبراهيم من بيت قادر أفندي المعارض.

ومن جهة أخرى علقت البنات ببعضهن، لم يعدن قادرات على اقتسام إبراهيم بيك زويُكْ.. جاءت بعدها مناسبة، عيد.. غير مهم.. ذهب زويُكْ زادهْ إلى بيت قادر أفندي المعارض. علق خطّافه هذه المرة بدردانة، يريد خطبتها. البنات راضيات بأية

صورة. أمضى فترة (تقطيع وقت) مع دردانة، وبعدها:

- يضيِّقون علي في الحزب. وصل خبر خطبتي لابنة رجل معارض إلى أنقرة. ها قد وجدوا ذريعة ليطردوني من الحزب.

- لا تقلها.. وما العمل؟

- العمل؟ واضحة، تنتسب الى حزبنا، إي لو كانت ابنتك ملكة جمال العالم، فأنا لا أضحي بمستقبلي من أجلها.

أنظر إلى ثالثة أثافي قادر أفندي. وقع الخلاف بينه وبين زويُكْ زادهْ من جديد. والبنات مجمعات على زويُكْ زادهْ إبراهيم. لم يجد قادر أفندي مخرجاً، فذهب اليه:

- لو أموت، أحسن لي. هذا بالنسبة لي أشد من الموت. ها قد أتيتك، فافعل بي ما تشاء.. اطلق عليّ النار، أدخلني في حزبك، أنت حر.

وهكـذا انضم إلى حزب الحكومة، الرجل المعارض منذ أربعين عاماً. وأمسى إبراهيم بيك مستعداً للمصاهرة. لكن قلبه غلى هذه المرة على البنت الصغرى. وبعد زمن، وقد تذوق طعم جولدانة جيداً، انقطع عن زيارتهم. عادت البنات إلى الاحتراق، عيونهن تذرف كالينابيع، ويشهشهن قائلات: يا عريس أختي، يا عريس أختي.

غير مستطيع البوح لأحد بما يكابد، تذكر نوري الأعوج:

- دخيلك يا ابني نوري أفندي، لقد استفحل الداء.. يكفي أن تريني شهامتك.

نوري الأعوج رجل هذا العمل. للرجل تسعيرة: ضرب السيخ في الخاصرة بألف ليرة، عمل فتحتين فيه، بثلاثة آلاف ليرة، بقر البطن مع دلق الأمعاء، بخمسة آلاف.

قال قادر أفندي:

- يا لطيف يا لطيف.. أأذهب ضحية بناتي، أم تصبح قيمتي، بعد كل هذه السنوات في المعارضة، قرشين؟ ما قولك يا نوري أفندي، إذا شطبت هذا الرجل، ما الفائدة؟ يجب قطعه من وسطه وإلقاء جثته على الأرض.. وإن لا، فلن يبقى في هذه البلاد رفاه ولا نظام.

دخل قادر أفندي حزب الحكومة، إلا أنه ظل قادر أفندي المعارض. سمعنا ذات مرة أنه يبيع أرضه الزراعية. لم نعرف وقتها السبب، وإذا به قد باعها ليدفع إلى نوري

الأعوج، من أجل أن يقتل زوبُكْ زَادَهْ. باع بستانه بأربعة آلاف ليرة، وضع فوقها الألفي ليرة التي كان قد خبأها لتجهيز بناته، وأعطاها لنوري الأعوج. هذا ما سمعناه فيما بعد.

نوري الأعوج رجل قليل أصل. يبيع رسن أمه.. **لم يحصل على طلبه من** النقود، لم يبدأ العمل. يريد أجرته نقداً، حتى يستطيع، عندما يطرح جثة زوبُكْ زَادَهْ، أن يهرب فوراً. وضع النقود في جيبه واتجه إلى أشرف آغا. وضع أشرف آغا على أحد جانبيه، وابنه على الجانب الآخر:

ـ أعرض عليكم صداقتي، صداقة أخوية. هل تحزر لماذا لم يزوج قادر أفندي المعارض إحدى بناته لابنك؟ لا يزوج، لا يزوج.. كل خطئه هو ذلك الخسيس العديم الشرف زوبُكْ زَادَهْ، نبتت في لسانه ريشة الشيطان، خدع البنات، راح فيهن.

ـ يا ساتر.. لا تقلها.. ويكدانة أيضاً؟

ـ نعم.

ـ ودردانة؟

ـ نعم.

ـ لن تقول وجولدانة أيضاً.

ـ نعم.. ولو ما كبُرت أمهن عقلها، وماتت، لما نجت من يد هذا المنحط.

انتفض الشاب:

ـ حرام علي حياتي إذا لم أفرمهن بسكين قاطعة، إذا لم أسلخ جلودهن وأحشها تبناً.. إذا لم أخوزقهن أمام دار الحكومة.. حرام علي..

نظر نوري الأعوج فوجد الشاب مستنفراً بما فيه الكفاية:

ـ قف يا صديقي، لا تظلمهن.. إنهن بريئات.. الذنب ليس ذنبهن.. إنهن لا يسلمن أنفسهن ولا لابن السلطان. لكن زوبُكْ زَادَهْ كتب لهن سحراً، لو كُتب لرجل لما استطاع الحفاظ على عفافه.. فهمت؟ ذهب من هنا إلى اسطنبول، إلى الخوارنة، وكتب لهن سحراً. أطعم يكدانة لسان جحش.. كتب لدردانة تميمة على ملعقة من خشب ورماها في النار. صارت الملعقة تحترق، فيغلي قلب دردانة.. شكشك إبراً في لوح صابون ورماه في الجب. صار الصابون يذوب فتذوب جولدانة معه.. فما قولك يا

أخي؟ الآن يتوجب عليك فعل شيء.. إنه دَيْن في رقبتك.. أنا لا أحتمل هذا العديم الشرف..

ـ أجل.. لا يحتمل.

ـ لأضع يدي في يدك ولْنُزِل هذا الزبل زوبُكْ زَادَهْ من الوجود.. انه أوان الرجولة.

ـ نعم! وإن ثوابه لأكبر من ثواب حج البيت.

لم يستطيعا اقتسام ثواب إزالة زوبُكْ زَادَهْ من الوجود، ولا بأي شكل من الأشكال. تدخل أشرف آغا..

ـ تشحيله علي.. أنا أشحله، أقص يده، رجله، غصنه.. ثم أفرمه.

قال ابن أشرف آغا:

ـ بل أنا أنجِّره، أصنع منه سقفاً لغرفة!

ـ صنع سقف غرفة منه ـ قال نوري الأعوج ـ هذه دعها علي..

وأقسم الثلاثة على أن يقتلوا زوبُكْ زَادَهْ. نوري الأعوج يقصد شيئاً آخر. النقود في جيبه. أراد أن يجبِّر لهما زوبك زاده ويهرب.. **وليكن بعدها مايكون.**

في الحقيقة أنهما كانا سيقومان بعمل جيد، وسيكسبان دعاء أهل البلدة، ولكن، **وبسبب المحافظ، فقد ظل العمل في منتصفه. فأي زوبُكْ هو؟ المولى العلي القدير لايُسأل** عن حكمته. فلأجل أن يمتحن صبرنا أرسل لنا هذا البلاء.

ولي . . محافظ كبير!!

ما رُواه مرتضى أفندي سلمه الله :

هو؟ . . إنه من اكتشاف زوبكنا . لا يمكن أن ترى مثيلاً له في بلد آخر . مضى - على كل حال - ثماني إلى عشرة أعوام ، كنت وقتها عضواً في مجلس البلدة . قيل إن محافظاً جديداً قد أتى إلى المحافظة . نحن بدأنا نسمع باسم هذا المحافظ قبل ستة أشهر . يا حفيظ! رجل مستعص ، كأنه ، عندما يحل بمكان ، رياح السموم ، يحرق ويسلق . كأنما هو ليس محافظاً أرسلته الحكومة من أنقرة ، بل ، أستغفر الله ، بلاء أرسله الرب من السماء . . كأنه زلزال . عندما وطئت قدماه المحافظة ، وصل اهتزاز الأرض إلى بلدتنا . أمسكت الرجّافة بالقائمقام ، وباقي الموظفين صاروا مثل شجر الحور .

الموظفون ، فهمناها ، لكن ما بال الآخرين . آه ، يا سيد ، لو رأيت السمانين ، الخضريين ، التجار ، الحرفيين . . الله الله . أيخاف رجل من رجل على هذا النحو . لا تنظر إلي وأنا أكلمك الآن ، إن خوفاً ألم بي جعلني أرتجف كالجالس على (دنْكل طرطورة)[1] . . النسوان ، يا ناس النسوان ، خفن وهنّ في بيوتهن ، فما قولك . .

قبل أن يصل محافظتنا ، توقف في محافظة أخرى . أضاف مواطنو تلك المحافظة إلى أوقات الصلاة خمسة أخرى ، وصاروا يدعون في كل صلاة : (يا رب! خذ روح هذا الرجل ، أو خذ أرواحنا لنرتاح منه!) فانظر إلى حكمته تعالى ، لم يقبض أرواح المواطنين هناك ، ولا روح المحافظ ، ولكي يعمل شيئاً أحسن ، وجهه إلينا .

لا يمكن الانتهاء من رواية هذا المحافظ . أسطورته وصلت قبله بستة أشهر .

---

١ ـ المحور الواصل بين العجلتين في العربة ذات الثلاث عجلات (الطرطورة) . المترجم .

عندما سمع الشيخ بدر الفهمان أسطورته، قال:

ـ الذي أنا قربانُه، أليس قادراً على كل شيء.. الناس يا سيدي فسدت.. وهذه هي الطامة الكبرى، آخر الكبائر على الإطلاق. هكذا قال الجدود. انعدم الناموس، وكذا الأخلاق، احترام الكبير، والعطف على الصغير. ارتفع البنا وكثر الزِّنا. ماذا يعني هذا؟ هذه، علائم ماذا؟ دع هذا كله جانباً. يكفي والله زوبُكْ زَادَهْ.. الله سيعاقبنا يا ولاد البلد.. أنبتنا هذا العديم الأصل زوبُكْ، وفوقها، ولأننا لم نطمّه بالتراب حتى رقبته، ونرجمه، رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، من أبناء السبع سنوات حتى أبناء السبعين، فقد زعل منا الذي أنا قربانُه، وقال:

«لأجازهم وأجعل منهم عبرة لمن اعتبر، ولمن سيأتي بعدهم»، وقد وجد أن الطوفان، الانهدام الأرضي، الحريق، القحط، السيل، الزلزال.. غير كافية. سأل الملائكة: ما أشد هَوْلاً من كل هذه؟ دار الملائكة ثم عادوا إلى حضرته، قالوا:

ـ يا ربنا!.. بحثنا عن بلاء أشد شناعة من الوباء والطوفان والانهدام والحريق والقحط والسيل والزلزال وإمطار الحجارة من السماء، فوجدنا ـ والحمد لك ـ بلاءً لم يسجل التاريخ له مثيلاً، بلاء يجب على هؤلاء أن يقمّطوا رؤوسهم منه سلفاً، بلاء مختلف عن كل البلاوي وأكبر من كل الهموم، وأسوأ من كل الآفات.. إنه المحافظ الذي في المكان الفلاني.

والآن، هل عرفتم يا ولاد البلد ما الآتي على رؤوسنا؟.. محافظ من هذا القبيل في طريقه إلى محافظتنا. والسبب زبك، لم نرفع صوتنا في وجهه، هذا السفيه، غضضنا الطرف عن شيطناته، فأرسل جناب الله الينا هذا المحافظ البلاء.

بينما كان الشيخ بدر الفهمان يحكي، تدخل إسماعيل أفندي عبد الله:

ـ لا أعرف.. ماذا نعمل، ماذا ندبر، ترى، من أجل الخلاص من بلاء هذا المحافظ، أنجمع مشطنا وطاسنا ونهاجر؟.. أنغترب؟

ـ كله بلا جدوى.. هذا جزاؤنا، وسنذوقه مهما عملنا. بلاء أرسله الله، سيتبعنا أنى ذهبنا.. فإذا ما خرجنا إلى محافظة أخرى يكون عملنا لا انسانياً. ذلك أن اللعنة ستحل بالمكان الذي سنحل فيه، والناس الأبرياء في المحافظة الأخرى؟.. حرام!..

ـ هل هذا يعني، حسب الشيخ بدر الفهمان، أن ثمة مخرجاً؟ أي أن نزيل زوبُكْ زَادَهْ من الوجود؟..

ـ بالضبط.. وفي هذا ثواب كبير، إن إزالة زوبُكْ زَادَهْ من الوجود، أثوب من قطع رؤوس مائة كافر أحمر.

في تلك الفترة كان عندنا قائمقام شهم. الأقاويل، من أذن إلى أذن، وصلته.. فبدأ بالرجفان. سيذهب ويسلم على المحافظ الجديد، لكنه، من خوفه، لم يستطع. صار كل يوم يؤجلها إلى الغد. فالمحافظ، عندما كان في محافظة أخرى، ضرب بعض الموظفين كم عصا. انتبهْ، لا تفهم بالغلط، لم يخف القائمقام من هذا، ألم نقل إنه شهم؟.. كان خوف القائمقام من احتمال قيام المحافظ بتصرف.. لا يضبط القائمقام نفسه.. فيفعل شيئاً.

وفجأة يخابر المحافظ القائمقام. قال له عبر الهاتف:

ـ ستأتي أربع خمس سيارات فيها بعض أركان الحكومة، وسيجولون في المحافظة، وقد يمرون ببلدتكم. لذا يجب أن تستعدوا جيداً. لتعدوا احتفالاً يضاهي احتفالات عيد الجمهورية.. احتفالاً ممتازاً أريد.. سآتي أنا شخصياً، وأتفقد الإعدادات.. كونوا جاهزين للتفتيش. خذوا حذركم، إذا سوّدتم وجهي أمام أركان الحكومة.. فما علي.. فكروا في العواقب.

ما قاله رضا بيك كاتب القائمقام، هو أن قائمقامنا عندما تلقى الأمر عبر الهاتف، سَلَتَ في كرسيه كمن أصيب برصاصة في صدغه. لم يستطع حراكاً لنصف ساعة. وعندما صحا قال:

ـ أنا لست كالموظفين الآخرين، إذا اعتبرني كالموظفين الآخرين، وبدأ يضغط علي.. تراني سأقضي عليه.. ولكم أخاف من هذا.

نعم، للخوف أنواع.. البعض يخاف من الخوف، البعض الآخر يخاف من شهامته.. والقائمقام يقول:

ـ تفووه. إذا فعل المحافظ شيئاً فيجب أن أقتله.. وهذا ما أنا خائف منه.

عظام ذقنه تطقطق، يداه وساقاه ترتجف. هكذا يخاف الشهم.

استدعى القائمقام رئيس البلدية وشرح له ما جرى. ستنجز كافة الإعدادات للاحتفال، وهذا العمل، في الحقيقة، ليس من اختصاص القائمقامية، وإنما البلدية. وكان رئيس بلديتنا في ذلك الوقت حمزة جفتفران أوغلو.

إعداداتنا جاهزة منذ زمن طويل، نركض لإحضار هذه الأشياء من مستودع البلدية، وننصبها في الساحة. هكذا فعلنا في كل مرة.

أخرجنا كل ما في مستودع البلدية، الأعمدة، الأخشاب الملونة، قطع الخشب المعاكس، الأعلام، اللافتات المكتوبة منذ الذكرى العاشرة لتأسيس الجمهورية. نصبنا قوس نصر أمام مكتب البريد.

كان سطلمش بيك صاحب الفندق في مجلس إدارة الحزب. قال:

ـ أيها الأصدقاء، تعالوا نُشْرِكْ إبراهيم بيك زوبُكْ زادَهْ في هذا العمل. خَلّه يحضر بروفة المراسم، ثم لنأخذ رأيه فيها. أنتم تعرفون كم هو قليل حياء، فإذا لم نأخذ رأيه، فإنه سيقول (هه!.. لم يحسبوني رجلاً، لم يأخذوا رأيي) ويجر على رؤوسنا البلاوي.

رئيس البلدية حمزة جفتفران أوغلو، عدو زوبُكْ زادَهْ. انمغص من كلام سطلمش بيك:

ـ أنا اليوم لهذا اليوم.. يا سيد، أنا رئيس بلدية هذا المكان، مسؤولية هذا المكان على عاتقي وعاتق القائمقام. زوبُكْ زادَهْ ماذا؟ ومهما بلغ، طربوش مَنْ سيصبح؟ بماذا أستشيره؟ هل له صفة رسمية؟

الشيخ بدر الفهمان عدو زوبُكْ زادَهْ، ولكنه لم يستوعب كلام رئيس البلدية تماماً. ماذا يعني بـ (هذا المكان على عاتقي وعاتق القائمقام؟). هذا الكلام غير نازل في مكانه. أليس هناك رئيس الفرقة الحزبية؟ كل الجهود التي بذلها الشيخ بدر حتى أصبح رئيساً للفرقة الحزبية، تضيع سدى؟ كل الناس في نظر حمزة جفتفران أوغلو، ما عداه، أوتاد في سور حديقة.. عندك يا جفتفران أوغلو، عندك.. لكل شيء حكمه.

إذ قال حمزة بيك (أنستشير زوبُكْ زادَهْ؟) انحنى سطلمش بيك صاحب الفندق، وقال:

ـ أنت تعرف، أنا قلت هذا لئلا يقع خلاف.

نحن هنا، عندما يتطلب الأمر مراسم ما مراسم، فإن الذي يقوم بتنفيذها الجاويش محمد، حتى قوس النصر ينصبه هو. لكن، لأمر ما، العلاقة بين إحسان الصف ضابط والجاويش محمد، متوترة. كان محمد، أيام السلطان رشاد في الجيش برتبة جاويش، وكان شهمًا. ولأنه كان جاويش السلطان، لم يحتمل إحسان الصف ضابط ذلك، ومن جهته، الجاويش محمد، لم يبق له همّ سوى إحسان.

تفرس إحسان الصف ضابط في القوس الذي نصبه الجاويش محمد وقال:

ـ يا أخوان. تعالوا ندعمْ حاملتي القوس بتربيعتين. الحذر شيء جميل.

غضب الجاويش محمد. رُحْ إلى شغلك يا خيّ. التربيعة لماذا؟

ـ لا تقل هذا يا جاويش محمد، فلربما وقع القوس.

ـ إحسان أفندي، أنت، مالك عمل؟ كم مضى منذ الذكرى العاشرة لتأسيس الجمهورية؟ عشرون عاماً؟ عشرون عاماً ونحن ننصب هذه الأعمدة على هيئة القوس الذي تراه..، وحتى الآن لم يحدث شيء. فهل يحدث الآن؟

ـ لا تقل هذا. قل: يصير، لا يصير. وقل: يمكن أن يحدث مكروه. يقوم أحد أركان الحكومة بإلقاء خطبة، فيقع القوس فوقه.. ينمعس الرجل تحت الحطام، لا سمح الله.

ـ يا إحسان أفندي، تُفكر أننا مهبول تماماً.. نعم، هناك خطب مؤثرة للغاية، وبعضها لا شبيه له.. لكن ليس ثمة خطبة تهد الأعمدة.. يا ناس، يا هوه. أهي خطبة أم قذيفة مدفع؟

كل ما استطعت فهمهُ وقتها، أن نية إحسان أفندي الصف ضابط سيئة. يقال إن في قلب كل شهم سبعاً. في قلب الشهم سبع، لكن في رأسه..

عندما أحيل إحسان أفندي الصف ضابط على المعاش التقاعدي، وعاد إلى مسقط رأسه، نظر في نفسه على أنه أكبر منا. وكان واضحاً أنه نوى على رئاسة البلدية. ولأن الجاويش محمد (زلة) حمزة بيك فقد وقف بالمرصاد لكل قول يصدر عنه. ليكن على مشورته، أضفنا تربيعات للقوس. ولكنه طلع بنكشة أخرى.

- لقد حضرت في أماكن على مستوى. . وأعرف، لا يمكن أن ينصب قوس واحد، أبداً، لازم قوسان. .

- يا خيّ، لا تبدأ بالاختراع على حسب المكان الذي كنت فيه. لكل مكان قوسه. هنا مكان صغير. إذا كان بودك الحق، قوس واحد كثير علينا. نحن صار إنشاء القوس عندنا محكوماً بالعادة، ومن جهة، نحن، من أجل رفع العتب، عندنا هذه الكَمْ خشبة، كل مرة ننصبها، إي، وبعد؟

- لا يجوز يا جاويش محمد، لا يجوز. . الأقواس لا تنصب حسب المكان، ولكن حسب مكانة الرجل الذي سيأتي. نعم، نحن حتى الآن لم ننصب سوى قوس واحد. . لكن لم يحدث أن أتى أحد من أنقرة، أو أحد أركان الحكومة. القوس يعني، على الأقل، باب، ويجب أن يكون هناك قوسان، واحد للدخول وآخر للخروج.

- يوووه. . يعني لأننا نصبنا قوساً واحداً، سيدخل الذين سيأتون من أنقرة إلى هنا، وإذا لم يجدوا فتحة أخرى سيبقون؟ إذا كان الأمر كذلك فسننصب أربعة أقواس بدلاً من اثنين، بحيث كلما دخلوا من واحد، أدى بهم إلى آخر حتى يولوا بعيداً.

قال إحسان أفندي الصف ضابط:

- أجل، هكذا، يجب نصب الأقواس في مدخل البلدة وفي مخرجها.

- ألله. . نحن كل الذي نعرفه أنهم يدخلون ويخرجون من باب واحد.

- هذا ماتعرفه أنت. . غير أن الرجال العظام ليسوا مثلي مثلك. . إذا جلسوا في مكان، فإنهم لا يقومون منه، وإذا دخلوا من باب لا يخرجون منه، الأصول هكذا.

- فهمت، يا أخوان، فهمت. ألن يدخلوا البلدة من أحد الأقواس، وعندما سيخرجون، ألن تنفتل وجوههم إلى الجهة المعاكسة؟ إن الغاية من مجيئهم إلى هنا، ليست أكثر من المرور إلى مركز المحافظة. . فيا مهابيل، ألم تفهموها بعد. .

طيب، لننصب قوسين، لكن من أين نأتي بالمواد؟

في تلك الأثناء لم يكن سطلمش بيك صاحبَ فندق، كان عنده (خان). . هدم اسطبل الخان بهدف الإصلاح، فنتجت عن ذلك مجموعة من الأخشاب. لممنا من

أطراف البلدة الأربعة كمية كبيرة من أعواد (المكنس). . لففنا أعمدة القوس بالأعشاب الخضراء، الزهور، أعواد المكنس، القصب. .

في مستودع البلدية بعض اللافتات المكتوبة منذ العيد العاشر للجمهورية. أخرجناها من صناديق المستودع، فوجدنا أن الفئران، من طول وجودها في الصناديق، قد قرضتها، من مكان أو مكانين، لكن مكان القرض ليس واضحاً من بعيد. ربطنا اللافتات بالحبال وشددناها على عرض الشارع، والأعلام وزعناها في كل مكان. وأقمنا السرادق في وسط الساحة. لكن، في تلك الأيام لم تكن الساحة مستوية كما هي الآن، كانت محدودبة، فلم نتمكن من تركيز السرادق أفقياً، ولا بأي شكل. أحد جنبيه مرتفع والآخر منخفض. . وضع الجاويش محمد تحت طرفه المنخفض اسفيناً وسوّاه. وعندما غطي بالغطاء الأخضر صار أشبه ما يكون بمقام (يونس بابا). وضعنا ابريق الماء والكأس. . وكان مدير المدرسة قد صف تلاميذه في الساحة.

عندنا، في (الخضرلك)، مدفع، نطلقه في رمضان والأعياد. هذا المدفع يطلقه الجاويش محمد أيضاً. أيام السلطان رشاد كان محمد جاويش مدفعية. صار المدفع جاهزاً، وكذا فرقتا الطبل والزمر.

قال الحلاق حقي:

- يا هوه. . يجب تقديم ذبيحة أيضاً.

لم يكن لنا علم بالأمر؛ حتى لا يسبب القصاب عثمان لنفسه القيل والقال، فقد أوحى للحلاق حقي بذلك.

- قال حمزة بيك: - لا بأس، نذبح خروفاً.

قال القصاب عثمان:

- لأنني قصاب، فيجب ألا أتكلم، لكن ذبح خروف عيب، على حد وعيي لم يزر بلدتنا أحد من كبار الحكومة. هذه أول مرة. . ونذبح لهم خروفاً؟ هذا استهجان بهم، لا بل إنه عين الاحتقار، إنه شيء وارد في القانون. قبل مدة زاروا القرية المجاورة لنا، فذبحوا لهم كبشين.

قال حمزة بيك: - حسناً، إذا كان الأمر كذلك فلنذبح نحن ثلاثة.

قال القصاب عثمان:

- أنا مالي علاقة، أنا قصاب ويجب أن أسكت.. إذا زار أحد من أركان الحكومة مكاناً ما، فيجب ذبح حيوان كبير، حسب الرجل.

- طيب. قلنا ثلاثة أكباش نذبح.

- ما الكبش؟ بالنسبة لحجم أنقرة..

- وهل نذبح عجلاً. نعم، عجل شيء حسن، لكن إذا كان ثمن العجل سيطلع من صندوق البلدية.. تبهدلنا. على كل، وكيفما كان، لنذبح عجلاً لنحصل على اسم في هذا.

- أنا على القول.. وأنتم، من جهتكم تعرفون.. من جهتي، أنا أرى العجل قليلاً. المشرفون من أنقرة، في الحقيقة يجب ذبح جمل.. الجمل حيوان مبارك وثوابه كبير، ولكن هنا لا توجد جمال. نذبح جاموساً، ما رأيكم؟

- حسناً، لنذبح، من أجل انقاذ سمعة بلدتنا، جاموساً.

- هذا يعني أن صندوق البلدية سَيُصَفَّرُ.

- آه، كم هو ناشز هذا الكلام.. نحن من عهد الأجداد لم نسمع مثله. أنسينا عاداتنا وتقاليدنا. إذا حل الضيف يُقرى، واستضافته دين برقبتنا.

- نعم. هذا صحيح. المكان يأتي منه الإوز، لا يجوز حجب الدجاج عنه. هؤلاء العظام يؤموننا من أنقرة. سيرون أننا ذبحنا لهم جاموساً، وهم ليسوا عمياناً يا خيّ.. سيرون كيف سيسيل دم الجاموس تحت أقدامهم.. وهم بشر. عندما سيرون أننا ذبحنا لهم جاموساً، اطلبْ منهم ما لا يطلب، اطلب شق طريق، بناء مصنع، أطلب سداً، مثلاً.. اطلعهم على ميزانية البلدية، واطلب منهم تمويلاً لها.. لنرهم انسانيتنا وحبنا للضيوف.. نذبح لهم جاموساً، والباقي عليهم. فإذا كانوا عظاماً فليظهروا لنا عظمتهم. القدماء قالوا، وياما قالوا (المروءة لا تقاس بالذراع).

بعدما تم كل شيء على ما يرام جاء القائمقام للتفتيش. يا للمسكين.. وكأن رجّافة أمسكت به. عظام فكيه كانت تصطك. أنا لم أسمع ما قاله، لكن كاتبه رضا بيك الذي كان واقفاً بجواره نقل عنه قوله:

- هذا المحافظ الواطي يظنني كالآخرين، يسرح معي بالكلام فأحاجُه.. ثم أرتكب جريمةً. هذا الذي أخاف منه، وليس غيره.

أعجب القائمقام بتكامل إعداداتنا، فهتف للمحافظ (جاهزون للتفتيش سيدي). رد المحافظ:

- حسناً. غداً نأتي ونرى.

كل شيء على ما يرام. لكن ثمة نقصاً.. إنه زوبُكْ زادَهْ. كان سطلمش بيك صاحب الفندق محقاً من الأرض للسماء إذ قال:

- ياشباب، هذا العديم الناموس زوبُكْ زادهْ، سيلبس رأسنا جورباً، ويجعلنا مسخرة أمام الآخرين. لماذا هو غائب كل هذه المدة؟ قبل المحافظ سيأتي، فلماذا لا يظهر، هذا المتخاذل. لا بد وأنه ـ الخنزير ـ يفكر في شيء، قلت لكم تعالوا نورطه، فلم تنصتوا. لنر أية لعبة من ألعاب (علي جنكيز) يهيء لنا.

وجاء اليوم الموعود. اجتمعنا منذ الصباح الباكر في الساحة، الدولة والحزب والبلدية. أنهى الزمار حسين النوري والطبال فيصل الأعرج عزف مرش إزمير، وانتقلا إلى عزف مرش سيواستيبول. لكنهما، وبدلاً من عزف مرش سيواستيبول طلعا بدور (بينما كنت ذاهباً إلى الاسكودار)!!..

اصطف تلاميذ المدرسة الإعدادية ومعهم المدير في الساحة، كلنا ننتظر المحافظ. نظرت إلى القائمقام فوجدت ركبتيه ترقصان.. المسكين، كان يتعاطى على رؤوس أصابع قدميه، كي يتمكن من رؤية سيارة المحافظ.

جيء بالجاموس إلى جوار السرادق. حبل القوائم جاهز، وكذلك قماش تغميط العينين للحيوان المبارك.

كان في يد القصاب عثمان سكين يشحذها على المسن، وكان هو والشيخ بدر الفهمان يقومان بإجراء (بروفة) على عملية الذبح.. المحافظ قال (سأرى كل التجهيزات، لا أريد أيّ تهاون). ولهذا أحضرنا الجاموس إلى مكان السرادق.

نشر اسم المحافظ الخوف فينا، ليس فينا فقط، فالجاموس نفسه كان يرتجف خوفاً. وبينا نحن ننتظر المحافظ في هذه الحال، خرج شكري الحافي من الخضر لك مثل

الريح، متقطع الأنفاس.وقف أمام الشيخ بدر الفهمان الذي كان يكبِّر. . وقال:

ـ يا عمي الشيخ، الجاويش محمد يقول: لم يخبروني كم طلقة يجب أن أطلق كيلا نرتكب خطأً، فيصبَّ علينا المحافظ جام غضبه. . كم طلقة يطلق؟

انظر لي إلى الجاويش محمد هذا. . يا ناس، فليطلق ما بوسعه، من الذي سيعد الطلقات التي ستنطلق من الخضرلك. . يا أخي، ليطلق ما يشاء، لكن ليقتصد في استخدام البارود، حتى يبقى منه شيء للأعياد القادمة، ليبق هذا العمل لنباهته. . وسط كل هذه المشاغل يسأل (كم طلقة أطلق)؟. . أهو وقت لخبطة عقلنا بهذا. .

سؤال شكري الحافي، مندوباً عن الجاويش محمد، جعل كلاً منا ينظر في وجوه الآخرين. . وكان مطلوباً من الشيخ بدر الفهمان أن يجيب.

نظر الشيخ بدر إلى القائمقام. . القائمقام نظر إلى رئيس البلدية حمزة بيك جقتفران أوغلو. حمزة بيك نظر إلى أمين أفندي التاجر، الذي بدوره نظر إلي. . ثم رحنا نتبادل النظرات. غضب القائمقام وصرخ في وجه الزمار حسين النوري الذي كان يعزف مرش ازمير:

ـ وَقِّفْ ولاه. . لقد استهلكت نَفَسَك كله. . وعلى وشك أن يفقع معلاقك، وعندما يصل حضرة المحافظ، لن تستطيع تزمير المزمار.

وسأل:

ـ من منكم يعرف كم طلقة يجب أن يطلق؟

لا أعرف كيف ترسب في ذاكرتي (إحدى وأربعين طلقة) فقلت لرئيس البلدية حمزة بيك:

ـ لا بد من إحدى وأربعين. .

ـ أجل، لنطلق الآن إحدى وأربعين، ولنر ما سيحدث. . ثم نفكر.

لكن هل يسكت الشيخ بدر الفهمان؟ لا بد من أن يثبت أنه فهمان:

ـ أعوذ بالله، مستحيل. . إحدى وأربعون طلقة؟ هذه لا تطلق إلا للسلطان عندما يستوي على العرش.

انظر إلى هذا الشيخ ذي اللحية الماعزية. . وكأنه يقول هذا عن اطلاع. . طبّ عبارة لخبط بها أذهاننا:

ـ يا أفندي. . وهل يوجد الآن سلطان. . من أين أتيت بهذا؟

ـ إذا لم يكن هناك سلطان، فهناك جمهورية. وجمهورية ديمقراطية أيضاً. .

ـ وهل استوت الجمهورية على العرش حتى نطلق إحدى وأربعين طلقة؟

في زحمة هذه المشغوليات أتانا بلاء (الطلقات). . الجاويش محمد ما عنده همّ. . يا أخي أطلق ما تستطيع إطلاقه. . هل ثمة من يحاسبك.

ـ ما دام الأمر كذلك فإن إطلاق اثنتين وأربعين أصح.

ـ يا ناس. . نقول إحدى وأربعين طلقة للسلطان. . وهل ثمة من هو أعلى من السلطان حتى تقول حضرتك اثنتين وأربعين.

ـ لتكن أربعين. . هل من شيء على هذا الكلام. لتكن أربعين طلقة.

قال القائمقام الذي كان يرتجف وحاله أسوأ من أحوالنا جميعاً:

ـ المحافظ على وشك أن يصل. دعوا المناقشة، وليطلق أي عدد كان من الطلقات.

مال القائمقام على كاتبه رضا بيك وهمس في أذنه:

ـ دخيلك يا رضا بيك، شغلة المدفع مكتوبة في أي مكان؟ قبل الآن كم طلقة كنتم تطلقون عادة. .

ـ والله يا سيدي، قبل الآن لم نكن نحسب عددها. . أساساً نحن لم يزرنا هكذا محافظ، حتى نتعلمها.

على قمة الخضرلك كان ثمة بقية من مدفع يرجع إلى عهد الكفار. كان الجاويش محمد في عهد السلطان رشاد جاويش مدفعية، تقدم في السن، قلنا (لنوجد عملاً لهذا الفقير) فأسندنا إليه مهمة إطلاق المدفع في رمضان والأعياد، هذا كل ما يمكن أن يقوم به. لم يكن يخطر ببالنا أنه من الممكن أن يعد حضرة المحافظ طلقات الجاويش محمد المنطلقة من قمة الخضرلك (واحدة. . اثنتان. . .).

ـ أين إحسان أفندي الصف ضابط؟ إذا كان من يعرف بهذا، فهو إحسان أفندي

أُبنا على إحسان أفندي الصف ضابط، لم نجده . . يا ناس، الآن كان هنا، هل طار؟ تناهى إليه أننا نبحث عنه، فانسل من الحشد . . ، درنا، مشطنا البلدة بحثاً عن إحسان أفندي الصف ضابط فوجدناه في مراحيض الجامع . . خاف من قولة: لا أعرف، فاختبأ هناك.

ـ دخيلك يا إحسان أفندي . . المحافظ على وشك أن يصل . . وغداً سيشرفنا أصحاب المراتب في الحكومة . . كم طلقة يجب أن نطلق لهم؟

لأن احسان أفندي الصف ضابط استُشير فقد نفخ حاله، ورفع رأسه، وغاب في تفكير عميق . . لقد بدا وكأنه يستحضر بيان تعليمات المدفعية في الجيش . . وكأنه يتخيل نفسه يقلب البيان صفحة صفحة . . ثم وكأنه وجدها:

ـ أُيوهْ، إذا حضر رئيس دولة أجنبية، فإحدى وأربعين طلقة تطلق . . وإذا جاءت سفينة حكومية أجنبية، فإحدى وثلاثين . .

ـ كيف يا خيّ؟ . . وهل تأتي سفينة إلى اليابسة؟

ـ أنا أحكي عن أصل النظام . . يعني القانون يأمر بهذا . . للسفينة الأجنبية إحدى وثلاثون طلقة . . أما إذا أتى واحد بأية صفة كانت، فإحدى وعشرون . . وللأقل من ذلك إحدى عشرة . . وأما الأقل من الأقل فـ . . .

ـ وما المقصود بالأقل من الأقل . . ؟

ـ يعني محافظ ما محافظ، قائمقام ما قائمقام . . لهؤلاء تطلق طلقة واحدة.

ـ شُفْ يا إحسان أفندي، إذا أوقع هذا في خطأ ما، فجزاؤه عليك.

ـ إذا كان ثمة خطأ، فهو في القانون.

ـ يا ناس . . يا هووه . . إحدى وأربعون طلقة . . إحدى وثلاثون طلقة، إحدى وعشرون طلقة، إحدى عشرة طلقة، طلقة واحدة . . لا بد من أحدها . . ألا ترسمل معك؟ الآن سيحضر المحافظ . . محافظ له مثل هذا الصيت، أنا برأيي أن طلقة واحدة لا تكفي . . لربما زعل وقال: لم يحسبوني من الرجال . . تعالوا نستخرج رقماً وسطياً، خمس إلى عشر طلقات وننجي أنفسنا.

وهل يمررها إحسان أفندي الصف ضابط بعد إذ حاز على موقع العارف . .

ـ مستحيل. المادة /١٤١/ من بيان تعليمات المراسم الداخلية، الفقرة الثالثة، البند الثاني، ينص على، بالضبط ينص على . .

لقد بدأ هذا القليل الناموس يقْرم. نعرف أنه يقرم . . ولكن ماذا نعمل؟ ثبت لنا نصاً رسمياً . . فما علينا إلا أن نسكت.

طيرنا مع شكري الحافي خبراً إلى الجاويش محمد القابع خلف المدفع في الخضرلك:

ـ عندما يصل المحافظ افقع طلقة واحدة . . وللآخرين إحدى عشرة.

مضى شكري الحافي راكضاً، وعاد راكضاً:

ـ يُقْرئكم عمي الجاويش محمد السلام، ويقول لكم: ماعنده بارود يكفي لأكثر من خمس طلقات.

قاتله الله، هذا الجاويش المدفعي السلطاني . . طالما أن باروده لا يكفي لإطلاق أكثر من خمس طلقات . . لماذا أوقعنا في الحيرة كل هذا الوقت؟

لاح دخان وغبار سيارة المحافظ . . انكمشنا على أنفسنا كالدجاج.

لم يكن الطقس بارداً، ولكن، مع ذلك أمسكت بي نوبة رجفان.

وصلت سيارة المحافظ، فتح السائق الباب فنزل رجل قزم. المحافظ المرجِّفُ الأقضية السبعة، هذا هو؟ تفوو علينا . . العمى، هيئة رجل كالناس ماله، غث، قصير، أقصر من عصا الراعي، تخاله روحاً تمشي على قبقاب الجن. خلقته مقلوبة.

حالما نزل من السيارة رفع رأسه وصرخ:

ـ ما هذا، ما هذا التخبيص؟

هو صرخ يا ترى أم أرعد؟ إنه يمتلك صوتاً كصوت الرعد. كيف يخرج صوتٌ كهذا، من رجل كطفل في القماط . . لو أن جسده كله تحول إلى صوت لما كان يمكن أن يصدر صوتاً بهذا الارتفاع. رجل كالشرارة التي تشعل سيجارة. لكن في نبرة صوته هيبة كهيبة الصدر الأعظم.

عندما نزل من السيارة اندفعنا نحوه، هجمنا على يده.. كنت أنا في هذه الزحمة قريباً منه، زمجر ورأسه إلى أعلى:

- ما هذا، ما هذا التخبيص؟

لم ندر إلى أين اتجه بصره.. إلى الغيم أم إلى طائر ما.. قال لي:

- اقرأ هذه.

وأشار بإصبعه إلى إحدى اللافتات التي علقناها في الساحة. اللافتة الحمراء المكتوبة بالأبيض، التي أخرجناها من مستودع البلدية، والتي نعلقها منذ أعوام.. أنا لا أعرف من القراءة والكتابة أكثر مما يكفي للتوقيع. والذي يمكن أن يقرأ هذه اللافتة ينبغي أن يكون كاتباً. والمحافظ لا يندار معه كلام، فإذا قلت (أنا لا أجيد القراءة يا سيدي، قراءتي يا سيدي على قد حالي..).. رجل ما معه مزاح، يفصلني من عضوية البلدية.. تظاهرت بأنني أقرأ، رفعت عيني صوب اللافتة، أغمضت عيني نصف إغماض، قلت:

- لا تساعدني عيناي على التمييز عن بعد، سيدي المحافظ.. إذا كان الأمر لا يضايقكم، فاقرأها أنت لنستمع.

دهقني وعبر إلى أمام وهو يصرخ:

- غلط!

اللافتات التي كتبناها أيام الذكرى العاشرة للجمهورية صارت غلطاً؟.. منذ عشرين عاماً ونحن نشد هذه اللافتات، لم يكتشف أحد فيها غلطاً، الآن، هذا المحافظ، يجد فيها غلطاً.

- أين القائمقام؟

مثل القائمقام أمامه منحنياً.. لم يكن واضحاً، أكان يريد مصافحته أم الارتماء على قدميه. رفع المحافظ يده التي همّ القائمقام بإمساكها وأشار له صوب اللافتة:

- اقرأ هذه!

خجل القائمقام، خجل.. خجل.. يا ترى نحن أخرجنا لافتة من عهد السلطان وعلقناها.. ماذا؟ أستغفر الله عن هذا الذي خطر ببالي.. ما أحلاها لو كان

مكتوباً عليها (يعيش سلطاننا!).. وقتها سيسوقوننا من هنا ويحرموننا من مسقط رأسنا.

- أرأيتها؟ (إذا لم نقف.. ـقَعْ).. أهكذا؟

من أين طلع المحافظ بهذه الـ (...ـقَعْ)؟ ما فهمناه فيما بعد أن فئران مستودع **البلدية قد قرضت اللافتات**.. وكأنما الفئران تعرف القراءة والكتابة حتى أكلت مكاناً من اللافتة وبهدلتنا.. كانت اللافتة تقول (إذا لم نقف فسنقع)، **أكلت الفأرات** القليلات الناموس الفاء والسين والنون، وأصبحت الجملة (إذا لم نقف.. ـقَعْ).

شدد المحافظ على القائمقام:

- إقرأها مرة أخرى.

وإذا قال القائمقام (إذا لم نقف.. ـقَعْ) انتابني الضحك.. في حضرة محافظ ذي صوت كالبوق، لا تستطيع أن تضحك ولا أن تبكي.. فجأة صرخ:

- أين الزهور؟

الزهور أيضاً، لماذا الزهور؟

- هل سمعتم بمواسم استقبال من دون زهور؟ حسنٌ أنني أتيت ورأيت استعداداتكم.. لو أني اعتمدت عليكم ولم آت لتبهدلتم أمام رجالات الحكومة.

نحن نقيم الاحتفالات كلها دون زهور.. ما الذي تغير حتى لا نعدّ العيد عيداً، ولا الاحتفالات احتفالات إذا نقصتها الزهور.

- لا يمشي الحال دون زهور. الأمر يتطلب ذلك.. إذا زاركم رجل عظيم يجب أن تقدموا له الزهور. عندما ينزل الكبار من السيارات تقدم لهم بنات المدارس الزهور.

استعرض المحافظ مكان الاحتفال من أوله إلى آخره.. تفقد الأقواس.

سأل الزمار حسين النُّوري حمزة بيك جفتفران أوغلو:

- هل نعزف أحد الأدوار سيدي؟

نفوو. من خوفنا من المحافظ تلخبطنا.. كنا ننوي عزف أحد الأدوار الجيدة فور نزوله من السيارة.. لكن صوت قرع الطبل لا يسمع مع صوته.. نسينا الطبل والزمر.

قال حمزة بيك: - بسرعة، إنه ما يزال واقفاً.

ابتدى طاقم الطبل يعزف دور (كاتبي)..

بينما كنت ذاهباً إلى الاسكودار.

هطلت عليّ الأمطار..

هل استلب المحافظ عقولنا، فلم يبق بيننا يَقِظٌ واحد؟ بدلاً من عزف مرش إزمير طلعوا بُدور (كاتبي). كان المحافظ يضع رجله على السرادق إذ انطلقت أغنية (كاتبي) فزمجر:

ـ ما هذا؟ ولك ما هذا؟

ليبتليك الله يا حسين النّوري.. أهذه معلميتك؟ مع أنه كان ينفخ ريشه أمامنا ويقول: (الفرقة الموسيقية النحاسية التابعة للجيش والقوات المسلحة لا تساوي شيئاً أمام مزماري)... تفوو.. ما دام المحظور قد وقع، فاعزف رقصة خلِّ المحافظ يزقّنا عليها في السجن.

ـ ولاه نوري.. ماذا فعلت؟

ـ تلخبطت يا أغاتي.. وهل أبقى لي هذا المحافظ عقلاً؟

ـ بسرعة.. عد إلى مرش ازمير، بسرعة.

انظر.. لقد تلخبط المسكين النّوري، ومن خوفه، عاد مرة أخرى إلى دور (كاتبي).. أما الطبال فقد كان في غاية الارتباك. وعينك ما ترى حضرة المحافظ.. الله الله يا سيد، لقد ظن أننا نسخر منه فأطلق صراخه في السماء.. وبينما كان في حالة الصراخ تلك، ألا يأتينا صوت المدفع من الخضرلك؟ لكن صوت المدفع المنطلق لم يكن صوت المدفع الذي نعرفه على مدى سنين في رمضان. إنه مدفع آخر. البُمْ بُمْ تتابعت وراء بعضها حتى لتظنه دويّ مدفع ألماني أربعيني. يا ناس نحن قلنا لمدفعي السلطان هذا، أن يطلق خمس ست طلقات، فهل يريد الجاويش محمد هذا أن يظهر للمحافظ براعته، فحول مدفعه اليدوي إلى مدفع اوتوماتيكي؟ لم يطلق خمساً، عشراً من الطلقات، قل مائة. لم يعد مدفع الجاويش محمد يسكت أبداً. الأرض والسماء تئنان لصوته.

نحن لم نندهش، حضرة المحافظ هو الذي اندهش:

ـ ما هذه القعقعة، ماذا يحدث، أسْكتوا هذا..

عثرنا على شكري الحافي:

ـ دخيل عرضك يابني شكري، رح لعمك الجاويش محمد.. هل جن.. خله يسكت هذا المدفع.

قال شكري:

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ لأن عمي الجاويش محمد قال يجب أن لا يخرج أحد من باحة المدرسة أثناء إطلاق المدفع.. خطر.

يخشى أن يكون الجاويش محمد قد تذكر أيام مدفعية السلطان.. هل يريد وضعنا في مدى مدفعه، ثم يقضي علينا جميعاً؟ الطبل يقرع، والمزمار يردح، والمدفع بم بم بم. وعينك ترى كيف هاج المحافظ كضرغام.

قال حمزة بيك جفتفران أوغلو:

ـ الذي يجب أن لا يقع وقع.. دعوا الأمور على التساهيل.. ما الذي سيحدث بعد..

اتجه حضرة المحافظ إلى السرادق. حسبنا السرادق مخصصاً لإلقاء خطبة.. سيدي، إذا حل النحس فإنه يتلاحق.. أعبثا قال الأولون (العين التي تحرسها يدخلها الشوك)؟ لأن الساحة كانت في تلك الأيام مائلة ومحدودبة، ولم نكن نملك الوقت لتسويتها، ولئلا يقف السرادق مائلاً، فقد دك الجاويش محمد اسفيناً تحت أحد سيقان السرادق. كان المحافظ يصعد إلى السرادق، وفي تلك اللحظة، ألا يفكح الإسفين ويميل السرادق على جنبه؟

ومع اندفاعنا لإنقاذ المحافظ، انزلقت رجله وهوت في الفراغ.. الإبريق الذي وضع في السرادق، انكب على رأسه. تبلل بالماء، ثم، كدجاجة مبللة انتفض، واستوى واقفاً على قدميه. ولم نَدْر، أكان يشتم قائمقامنا الطبيب أم يشتمنا جميعاً.

وفي تلك اللحظة، ألا يرفع الشيخ بدر الفهمان عقيرته بالتكبير؟ ما الذي يحدث لنا، هل جن الرجال كلهم؟ لم نجد فرصة لنقول (دخيلك يا شيخ، اسكت) حتى ارتمى

القصاب عثمان فوق الجاموس وهوى بسكينه على رقبته قائلاً (يالله، بسم الله).

يا سيد، لا أربك الله أحداً.. نحن ما ارتبكنا من المحافظ، بل من اسمه. ذبح الذبيحة لم يكن مقرراً، ولكن التدريب على ذلك، وهذا ما يعرفه القصاب عثمان جيداً.. لكنه، من قعقعة المدفع، وفرع الطبل، وعياط المحافظ، وفوقها تكبير الشيخ بدر الفهمان، إما أن يكون قد اهتاج، أو أن الدهشة أضاعت عقله. لكن المهم أن سكينه كانت قد قصمت رقبة الجاموس.. مع أنه كان سيحفر حفرة ليسيل عليها دم الجاموس، ولأننا لم نكن ننوي سوى التمرن على الذبح، لم نهيء حفرة.

نظرت فوجدت حمزة بيك جقتفران أوغلو مولياً:

- إلى أين يا سيدي؟

- لم يعد البقاء في هذه البلدة ممكناً. هذا المحافظ سيعلّق حبلنا.. أنا ذاهب.

وفي تلك اللحظة، ماذا نرى؟ لقد جاء زوبُكْ زَادَهْ.. وأي مجيء.. تظنه في حالة نزاع، أحْمَرُهُ أحمر، وأزرقُه أزرق، وثمة من يطارده. لم يبق سوى أن يصرخ (النجدة يا إخوان.. أما بينكم من ينقذ روح مسلم؟)، مجيء مشؤوم لزوبُكْ.

إذ رأيناه فرحنا. ليأت وليأخذ نصيباً من المحنة. لماذا؟ لأنه إذا كان ثمة من يقدر على مجابهة زوبُكْ، فهو المحافظ.. ليأتِ إذن ويشهد يومه. ولانرى إلا وزوبُكْ داخلاً في المحافظ كحقنة ضد داء الكَلَب. وقد استطاع زوبُكْ زادنا العظيم تحويلَ المحافظ إلى عجينة لينة.

قال رئيس الفرقة الحزبية الشيخ بدر الفهمان:

- ما عليكم يا شباب، كيفما كانت الأمور، فهي متجهة إلى صواب، حسناً، لقد جاء الطبيب إلى ما تحت قدمي المريض، زوبُكْ زَادَهْ وصل في الوقت المناسب. لنرمِ كل الأخطاء التي اقترفناها على إبراهيم بيك، ما قولكم؟ ونحن من جهة أخرى لا نجد طريقة أخرى للخلاص من بلاوي زوبُكْ زَادَهْ. لا تنسوا يا أُخوان: زوبُكْ هو الذي أوعز للزمار حسين (لاقوا حضرة المحافظ بدور كاتبي)، وهو الذي دك الاسفين تحت السرادق، وهو الذي اقترح ذبح جاموس، وهو الذي أمر بتعليق لافتة (إذا لم نقف.. نقَعْ)، وهو الذي قال (لا داعي لزُهور، مُهور)، وهو الذي أعطى الأمر لمدفعيّ

السلطان، الجاويش محمد، بإطلاق المدافع من الخضرلك.. لنلبسه كل هذه الذنوب. تقولون إنكم على ذلك شهود، كلكم. إذا وحدنا كلمتنا فما الذي يستطيع زوبُكْ قوله؟ ما عندنا طريقة أخرى ننقذ فيها شرفنا، وننهض بكل هذه الأخطاء؛ فليكن منا فدائي، يحترق بالنيابة عنا، وهذا سيكون زوبُكْ زَادَهْ. أهذا وعد يا شباب؟

- وعد.

وصل إبراهيم زوبُكْ زَادَهْ كالريح، ووضعه بائس. كان يركض خلفه ثلاثة، فهل كانوا محاصرينه أمامهم؟ نعم، بالضبط.. وإذ اقتربوا عرفناهم، أشرف آغا وابنه.. وعلى مقربة، وراءهما، نوري الأعوج.. لا بد أن في هذا شيئاً. ما استطعت فهمه أن الثلاثة قد اتفقوا على إزهاق روح زوبُكْ زَادَهْ، فجروا خلفه. وكان واضحاً أن رِجْلَيْ إبراهيم بيك لم تعودا قادرتين على حمله، في لحظة انقضاض صيادي الأرواح الثلاثة عليه. هذا يعني أن المحافظ قد شرّف بلدتنا في الوقت المناسب! وكأن ما رآه من تخبّط وتعثر، لم يكن كافياً، وسنتابع إبراز مهاراتنا، بارتكاب جريمة قتل، أمام عينيه.. وكأن ذبح الجاموس لم يكفِ، لنتبعه بذبح زوبُكْ زَادَهْ.

حالما دخل زوبُكْ زَادَهْ ساحة الاحتفال فتح ذراعيه:

- وَهْ يا حضرة المحافظ، أهلاً بك في بلدتنا!!

قالها وعانقه. لم يبق إلا أن يلتقط المحافظ ويقذفه في الهواء ويتلقفه.. ياناس.. يا هوه.. ما هذا؟ لم يكن حضرة المحافظ أقل اندهاشاً منا. اندهش إلى حد أنه لم يعد يدري ما يقول. أساساً زوبُكْ لم يترك للمحافظ فرصة لقول أي شيء. فقد كان يقول على نحو متواتر:

- أهلاً بك يا حضرة المحافظ في بلدتنا.. انتظرناك طويلاً.. عرفت من هادي بيك أنكم قادمون إلى محافظتنا..؛ لستم أقل منه، هادي بيك من أعز أحبابي، صداقة الروح للروح.. كتب إلي رسالة قال فيها (عينتُ لكم محافظاً عظيماً، فاعرفوا قيمته)، وكأننا لا نعرف، نحن نفهم بالانسان مثلما يفهم الصائغ بالذهب.. شيء واضح.

وهكذا راحا يتحاضنان ويتعانقان وكأنهما صديقان من أربعين سنة.

لم يدر المحافظ من هو زوبُكْ زَادَهْ، لكنه انذهل، ولم يستطع تحديد نوعَ المعاملة

التي ينبغي أن يعامله بها، أيكون قاسياً معه أم يلين له؟ أيقول (لا أريد ميوعة، قف أمامي)؟ لم يستطع التصرف، وأخذ يمسح، على نحو مستمر، دم الجاموس الناشب على وجهه.

سألت بصوت منخفض رئيس البلدية الذي كان واقفاً قربي:

ـ من هذا هادي بيك الذي ذكره زوبُكنا؟

ـ وزير.. هادي بيك وزير كبير.. وهذا المحافظ، لأنه مسنود على هادي بيك، لا يأبه بأحد.. تصرفاته هذه ناتجة عن ذلك.

ـ وهل صحيح أن زوبُكْ زادَهْ صديق هادي بيك، الروح للروح؟

ـ أووف يا خيّ.. تلخبطتَ من جديد.. تتكلم وكأنك لا تعرف زوبُكْ زادَهْ إبراهيم، يا رجل، ألا تعتبر؟ إبراهيم هذا صديق لكل وزير يرى صورته في الجريدة. ماذا يستطيع حضرة المحافظ أن يعمل لزوبُكْ زادَهْ؟ كيف له أن يعرف أن زوبُكْ ليس صديق هادي بيك؟ طبعاً لن يسأل الوزير: (هل حقاً زوبُكْ زادَهْ صديقكم الحميم)؟. أرأيت، سيبلعها شاء أم أبى.. لماذا قالوا (الكلب يمشي في ظل العربة، فيظن ظل العربة ظله)؟ دخل الآن زوبُكْ في ظل الوزير.. تتكلم وكأنك لا تعرف.

تأبط زوبُكْ زادَهْ ذراع المحافظ وأخذ يشرح له: كان في محافظتنا محافظ سيء للغاية. وفي إحدى رسائله، كتب للوزير (الرحمة يا أخي هادي، كل أربعين سنة احتاجك بشغلة، استبدل لنا المحافظ بسرعة، عين لنا محافظاً مثل الخلق والناس)، فجاوبه الوزير (ليكن المحافظ الذي تريده)، ولم يمض أسبوع حتى استبدل المحافظ.

أرأيت، زوبُكْ زادَهْ هو الذي عين المحافظ أيضاً. أيصدق المحافظ الآن هذا الكلام أم لا؟ وإذا طلع صحيحاً، فإن بإمكانه إرسال رسالة يقول فيها (أخي الحبيب هادي، اصرف المحافظ من هنا).

يتجولان في الساحة متأبطين ذراعي بعضهما، ألا ينفرد وجه المحافظ الصارم؟ المحافظ الشرس لان. إبراهيم يحكي عن بعض الأمور ويضحك.

وقفنا، القائمقام ورئيس الفرقة الحزبية ورئيس البلدية وأعضاؤها، ننظر إليهما. فجأة التفت إبراهيم بيك صوبنا وبدأ يصرخ. أي صراخ! ماذا يكون صراخ المحافظ،

إذا ما قيس بصراخه (ولا ه.. أصاغر، أتعلق لافتة قرضتها الفئران؟).

تجمدنا في أماكننا. استعرضنا إبراهيم بيك بنظره. فجأة وقف القائمقام أمامه مصالباً يديه على صدره:

ـ هل تبحثون عن أحد ما يا إبراهيم بيك؟

ـ ابعث لي أشرف آغا!

آه، سيستمد زوبُكْ زادَهْ من سلطة المحافظ، لينهي أشرف آغا. التفت القائمقام إلى جاويش الشرطة:

ـ هاتو أشرف آغا بسرعة.

مد إبراهيم بيك يده وأشار بإصبع التشهد إلي (تعال هنا، تعال، تعال هنا).

ـ أنا يا إبراهيم بيك؟ أنا؟

ـ نعم نعم، أنت

وبسرعة انزلقت إليه:

ـ تفضلوا إبراهيم بيك، أمركم؟

وأقول في داخلي (آخ يا قواد، آخ..) لا يمكن قول شيء وبجانبه، بل في ذراعه، يوجد محافظ.

ـ ابحث عن ابن أشرف آغا ونوري الأعوج، وأحضرهما بسرعة.. ابحث عنهما ولو في جحور الفئران.

لم يتمكن المساكين من الهرب.. وعندما شاهدوا زوبُكْ، الذي كانوا يطاردونه، في حضن المحافظ، انحلت رُكَبُهم وتقطعت أنفاسُهم. فما كان إلا أن رموا أنفسهم خلف قوس النصر وتمترسوا. رأوا كل ما حدث. عثرنا عليهم ـ الثلاثة ـ وأخرجناهم. كانوا يرتجفون ككلاب خارجة من الماء تواً. بسرعة وجه زوبُكْ إليهم أمره:

ـ ارفعوا هذا السرادق ولاه..

رفعوا السرادق.

ـ ستجمعون الزهور من الحقول والأحراش... ولاه..!

الثلاثة:

- على رأسي يا إبراهيم بك.

- افرنقعوا من هنا .

زويُكْ يروح ويجيء، متأبطاً ذراع المحافظ، وعلى بعد عشرة أمتار منهما، يمشي أشرف آغا وابنه ونوري الأعوج، رؤوسهم إلى الأمام، حاملين السرادق على ظهورهم.

ألا يأخذ إبراهيم زويُكْ زادَهْ المحافظ إلى بيته، . . ويتناولون الغداء هناك؟ وبعد، هل يمكن الوقوفُ في وجه زويُكْ زادَهْ؟

بعدما ذهبوا وصل مدفعي السلطان الجاويش محمد من الجبل:

- يا عمي الجاويش محمد. لم يكن عندك من البارود ما يكفي لإطلاق خمس طلقات. . ثم صرفت من الذخيرة ما يكفي لإبادة جيشٍ معادٍ. . أين عثرت على بارود؟

لا يعرف أحد ما الذي حدث. ألا يستعصي مدفع الجاويش محمد الرمضاني؟

- حصل معي استعصاء في سبطانة المدفع.

- وهل لمدفعك سبطانة؟

- طبعاً له. عندما حصل الاستعصاء وجدت نفسي غير قادر على الإطلاق. صار ما صار، أخذت معي أصابع ديناميت. . فجرت أصابع ديناميت.

عندما استعصى المدفع خجل الجاويش محمد. ومن شدة حرصه كان قد أخذ معه أصابع ديناميت، . . ليس أربعين، بل قل ربما خمسمائة وأربعين اصبعاً فجّر. .

ألعاب زويُكْ زادَهْ يا سيد، كثيرة. لا يستطيع أحد مطالعة الرأسين معه. أمسك برسن المحافظ ذي الهيبة كهيبة الصدر الأعظم، ولعّبه كما يُلعَبُ دُبُّ النَّوَرْ.

لم نسمع، ولم نرى، في حياتنا، سافلاً من عيار السافل: زويُكْ زادَهْ.

خدمة للحزب

مارواه حمزة بيك جفتفران أوغلو:

لنجلس مائلين، لكنْ لنتحدث باستقامة. . لو جمعت عقول الناس كلهم هنا، لما شكلت جزءاً، ولو بسيطاً، من عقل ذلك المأفون زويُكْ زادَهْ. فيه شيء من الشيطانية، بحيث يستطيع أن يلعِّب الكون على أصابعه.

قبل مدة، اتجه الشيخ بدر الفهمان، رئيس الفرقة الحزبية، إلى مركز المحافظة، كان يتكلم مع أصدقائه الحزبيين في المحافظة. بعد أهلاً وسهلاً، وما شابه، اعتبر حزبيو المحافظة الشيخ بدر الفهمان، ودعوه إلى المطعم. ولأن دِيْن شيخنا الفهمان كامل، فهو لا يشرب أمام الآخرين. فشرب ماء، بينما كان الآخرون يشربون العرق والنبيذ. وبينما كانوا يتداولون أطراف الحديث من هنا وهناك، تطرق الحديث إلى مسألة خدمة الحزب، فشرح لهم الشيخ بدر الفهمان، كيف أننا مرتبطون بالحزب قلباً وقالباً وروحاً. وكان رئيس فرع الحزب في المحافظة قد شرب كثيراً، فأفرغ ما بداخله:

- ليس فيكم رجل واحد! دائماً تزعمون (نحن هكذا، مرتبطون). لو كوَّمتكم جميعاً لما بلغتم ارتفاع نعل زويُكْ زادَهْ إبراهيم بيك. لو أن تحت يدي خمسة فقط، من طراز زويُكْ زادَهْ هذا، لما مر صوت انتخابي واحد للمعارضة، في هذه المحافظة، ولمدة مائة عام. فقط لو أننا جئنا إلى الحكي، لما استطاع أحد مضاهاتكم. ما الخدمات التي قدمتموها للحزب؟

- نحن لم نخدم الحزب، ولكن، ما الخدمة التي قدمها زويُكْ زادَهْ للحزب؟

- إذا كان الرجل غائباً، فالله حاضر. إن خدمات الرجل لا تحصى، لنتكلم بصراحة أكثر، يا شيخ، الرجل، لا هو رئيس الفرقة الحزبية في الناحية، ولا هو رئيس البلدية. . وبالرغم من هذا تراه شاهراً سيفه لوجه الله والحزب. تكفيه فقط هذه

الخدمة: ماذا يعني مجيء الكافر قادر أفندي المعارض، بعد إصلاحه، ووقوعه طالباً الرحمة (إذا أنا أخطأت فلا تؤاخذوني، دخيلكم، اقبلوني في حزبكم؟) شيخي، هل كان قادر أفنـدي هذا، ليعـود عن معارضته، وحتى لو ذبحته؟ لو فرمته قطعاً أو سلخت جلده، أو فقأت عينيه، هل كان يتراجع عن معارضته؟ لكن هل استطاع مقاومة لسان زوبُكْ زَادَهْ؟ كم قلنا لكم أعيدوا قادر أفندي المعارض هذا إلى جادة الصواب. لقد قلنا إنه يخرّب الوحدة الوطنية في البلد، وقلنا أيضاً إنه إذا لم يُمعس رأس الثعبان الأسود، لا يمكن اقتلاع جذور المعارضة. هل هذا غلط؟ ألم نقل هذا؟ مَنْ منكم الذي أفلح فيه؟ لكن زوبُكْ زَادَهْ ـ الله يرضى عليه ـ أذاب المعارض المتشدد ذاك، كما الشمع يذاب، وجعله يُبرق إلى أنقرة قائلاً (أنا، محسوبكم، فهمت الحقيقة أخيراً، وعرفت الطريق إلى الصواب، وانتسبت إلى حزبكم، أقبل أياديكم. أدامكم الله على رؤسنا). أليس كذلك؟

كان الشيخ بدر الفهمان يسمع هذا الكلام فيضرب رأسه بيده ويتمتم بصوت مخنوق:

آه... آه...

أليس في ماجرى ليكدانة ودردانة وجولدانة خدمات من زوبُكْ زادهْ إبراهيم بيك للحزب؟.. إذن، مِنْ غيرته على خدمة الحزب، ولا شيء آخر، فقد مرر زوبُكْ زَادَهْ من تحته سلالة قادر أفندي، كاملة. أفلا يعود قادر أفندي إلى سكة الصواب، ماذا يعمل؟

لقد قال: (ليسْ ثمة مالم أفعله من أجل الحزب) فقالوا له: (مادام الأمر هكذا، أَدْخِلْ قادر أفندي المعارض إلى الحزب، لنتأكد عندئذ من رجولتك)..

إذا عاد قادر أفنـدي، فإن هذا يعني أنه لا يوجد من هو غير قابل للعودة. ألا يدخلون في رهان على وليمة، حول عودة قادر أفندي؟. ثم ربح زوبُكْ زَادَهْ الرهان.

هل يتحرق قادر أفندي على ضياع شرف بناته الثلاث، أم على توسيخ سمعة معارضته ذات العمر الطويل؟ قدم كل ما يملك لقوي الساعد، ليزهق له روح هذا الرذيل.. في تلك الأثناء كان نوري الأعوج قد خرج من السجن لتوه، فوقع قادر على يديه وقدميه (دخيلك يا ابني نوري، الله أرسلك إليّ). الغرقان في البحر يتعلق بأفعى.

أخـذ نوري الأعوج النقود من قادر أفندي، وخطر بباله أن يتخلص من زوبُكْ زَادَهْ، بواسطة غيره، وينسل كالشعرة من الزبدة.

لو استمعت إلى أشرف آغـا، لبلعتَ لسـانك. تسلح أشرف آغا وابنه ونوري الأعوج وخرجوا. كان المسكين أشرف آغا يتلظى:

ـ لقد قلت لابني، إذا نزلنا إلى بيت زوبُكْ، فإنه سيلعب علينا، دع أنه سيأخذ أسلحتنا برضانا، سيقعدنا أمامه وينتف شواربنا، ويجعلنا مثل صبيان الحمّام. سوف لا نستطيع العيش في هذه الديرة، سيسحرنا بلسانه الساحر. لذا يجب ألا ننزل عليه في بيته. يجب أن نقطع طريقه في مكان خال. ويجب ألا نعطيه فرصة ليتكلم، نفصل رأسه عن جسمه، فور فتحه فمه.

هكذا قررنا. فقال نوري الأعوج:

ـ علينـا أن نضربـه قدام باب مبنى حزب المعارضة، حتى يُظن أن هذا عمل سياسي، فلا يُشتبه بنا، ويُعْتَقَد أن المعارضة قد صفته.

إنها فكرة معقولة. حل الظلام، وكان ثمة عربة واقفة أمام مبنى حزب المعارضة، كمنّا وراءها. انتظرنا طويلاً، لم يخرج. ماذا؟ هل شكّ في شيء؟.. نزل برد الليل، ابني، لوقوعه في الغرام، أمسى كخيط في إبرة، اشتد البرد فأخذت أسنانه تصطك من رجفان فكيه. قلت:

ـ في الصباح يكون الخير. تعالوا ننجز هذا العمل الخيري صباحاً.

فقال ابني المسكين وذقنهُ ترتجف:

ـ المصارع رستم زال أوغلو لا يستطيع اقتلاعي من هنا، اذهبوا أنتم إذا شئتم.

فقال نوري الأعوج:

ـ دقّ الحديد وهو حام. ما دمنا بدأنا العمل فلننهه.

نيته أن ينهي الموضوع تحت جنح الظلام، ويفقس قبل طلوع النهار.

لكننا تجمدنا من البرد. قلت:

ـ ما دام كذلك فلندخل العربة.

كان زجاج العربة مكسوراً، قذفت ابني داخلها، دخلنا وراءه، وكمنّا.

قال نوري الأعوج :

ـ إذا قايضنا زوبُكْ زادَهْ على رصاصة يكون خيراً لنا، لا داعي لسلخ جلد هذا الكافر، عندما يمر من هنا، نطلق عليه الرصاص.

ابني المسكين لا يقتنع، قال وعظام ذقنه تطقطق.

ـ مستحيل! . .

نيته أن يقف أمام زوبُكْ زَادَهْ ويطعنه بالسكين، قائلاً:

ـ خذ، هذه من أجل يكدانة، يا عديم الشرف . .

ثم يضربه مرة أخرى قائلاً:

ـ خذ، وهذه من أجل دردانة، يا عديم الشرف . .

ثم يضربه مستخرجاً أمعاءه إلى كفه، قائلاً:

ـ خذ، وهذه كرمى لجولدانة يا عديم الشرف.

قلبُ ولدي هو الذي كان يتكلم، المسكين، وقع في الحب وعذابه، فصار لا حولَ له ولا قوة، . . لو أنه وصل إليه فلن يستطيع، كما أحسب إخراج سكينه من غمدها . . كان يقول:

ـ أنا آخذ ثار آلام أفئدتي الثلاثة، بعدها، شوفوا أنتم حسابكم معه.

لا أعرف، هل زوبُكْ لم يغادر بيته طوال الليل، أم أننا دخلنا العربة يقرضنا البرد، فأخذنا النوم فلم نره إذ مر بنا . . فتحنا أعيننا فوجدنا ضوء النهار قد طلع.

ـ هكذا أحسن، كلمة الأب يجب أن تسمع، ألم أقل إن من الأثوب تأجيلها حتى الصباح؟ إنه، على أي حال، سيمر من هنا الآن . . .

. . . خرج إبراهيم من بيته، كل ساعد من ساعديه يبتعد عن جذعه مسافة شبرين، صوت تنفسه، من فرط نفخ صدره، واصل إلينا، وكأنه يقول ـ أستغفر الله ـ (أنا الذي خلقت الدنيا!) . . .

قطع ابني طريقه بقفزة واحدة، لحقت به أنا وصحت:

ـ دخيلك يا ابني، لا تمنحه فرصة للكلام، كيلا يخدعنا . . اضرب بسكينك، اضرب!

لو أني لم أقل ذلك. عندما سمع صيحتي فهم أننا لا ننوي إعطاءه فرصة ليصيح (آخ يا الله، لقد قُتلت) . . فأطلق لساقيه العنان.

صاح نوري الأعوج وهو مندفع:

ـ آه، أتهرِّبونه، تفوو . . إذا ملص هذا الرجل من بين أيدينا، فلن يترك لنا مأوى هنا.

جرينا وراءه. لو كان اتجه صوب الجبل لكان أحسن، لكنه اتجه إلى داخل البلدة، وفوقها، ونحن راكضون خلفه، كان نوري الأعوج ينده:

ـ دخيلكم. لم يعد وقت هذا العمل مناسباً، لم يبق للعمل سريته.

لو أنه دخل المسجد لصار قتله فريضة.

زوبُكْ زَادَهْ يهرب، ونحن نركض . . السكين جاهزة في يدي . . لو أصل قريباً منه لأصوب على أبهره. ثم ألا يدخل إلى الساحة وينخرط بين الحشود . .

ـ وَهْ يا حضرة المحافظ . .

وارتمى على ذراعي حضرة المحافظ. ماذا يعني أن يرتمي على ذراعي محافظ من النوع الذي اسمه يسبب نوبة برداء، ويقول له (أهلاً بك يا أخي، لقد انتظرناك طويلاً)؟

السكين التي في يدي، وقعت. قفز نوري الأعوج إلى أمام الجاموس الذي يتدفق الدم من رقبته، وسكينه في يده، حتى إذا ما سألته الشرطة:

ـ ما هذا ولاه . . ؟

يقول:

ـ أتيت أساعد عمي القصاب عثمان في ذبح الذبيحة.

عندما رأى ابني المسكين المحافظ، ارتبك ولم يعد يعرف ما يفعل بالسكين. احترقنا يا آغا، احترقنا . . في لهوجة اقترحت على ابني ونوري الأعوج، بعدما سحبتهما جانباً، أن نصرخ كلنا، دفعة واحدة ويعيش أبونا المحافظ، يعيش المحافظ.

ثم أخذني الحماس:

يعيش أبونا المحافظ، يعيش شعبنا، تعيش جمهوريتنا، تعيش الديمقراطية . .

أدخلنا إلى مخزن الحطب. انهال الحطب فوق ابني المسكين. أما نوري الأعوج فقد أخرج ألوف الليرات من جيبه ورماها أمام إبراهيم بيك:

ـ هذه لك يا سيد. . أُعْفُ عني. . لا تخبر المدعي العام. لا تسلّمني، لا تخبر الشرطة. . اعتبرني كلباً على بابك!

ـ ما هذه ولاه؟

ـ هذه ستة آلاف ليرة. . لقد ضحك علي السافل قادر المعارض. أنا مالي علاقة. . أنا لا ترتفع يدي على زوبُكْ زَادَه، في أي وقت. فرض عليّ سحبَ الآه منك. الآن اثمرني، هل أطرح لكم السافل قادر المعارض جثة هامدة، وأجرها إلى عند حضرتكم؟

انفكت عقدة لسان نوري الأعوج، وتكلم مثل البلبل. . . شرح ماجرى من البداية إلى النهاية.

ياناس، قولوا ماشئتم، زوبُكْ زَادَهْ هذا، آغا بأصله. دفع النقود التي على الأرض بطرف حذائه وصرخ قائلاً:

ـ ضعها في جيبك، ضعها. . . .

فقال نوري الأعوج:

ـ اذبحني، اقتلني إذا أردت، ولكن يدي لايمكن أن تمس هذه النقود، يا إبراهيم بيك.

ـ خذ هذه من على الأرض.

ـ لا أستطيع أخذها. أبوس رجلك يا إبراهيم بيك، طخني بالرصاص ولا تقل لي خذ هذه النقود!

ـ مادام الأمر هكذا فلماذا أخذتها من قادر آغا، ياندل!

ـ حَيْوَنَة، حيونة. . آه يا إبراهيم بيك، هل ثمة فرق بين عقلي وعقل التيس؟ سأكون كلبك، آه يا إبراهيم بيك، اربطني من رقبتي قدام باب بيتك.

ـ خذها، أقول لك خذها، وإلا . .

ـ لا أستطيع ذلك.

ـ ما دام الأمر هكذا، خذها إلى حزبنا. مساعدة الحزب تعني مساعدة الحكومة والشعب. . **وإنه عمل جيد**، ومناسب. انظر إلى تقادير الذي أنا فداؤه، كيف آن للحق أن يجد نصابه، كيف تصبح أموال قادر أفندي المتطرف في المعارضة، أمواله المجموعة بالخسة، من نصيب حزبنا.

ـ حسن ما تقوله يا ابراهيم بيك، لحزبنا. . حزبنا يعني أنت. من أكون أنا حتى آخذ النقود إلى الحزب. إنهم سيسألونني (من أين سرقت هذه النقود ولاه. . ، أي طريق قطعت؟) ثم يمسكونني ويقدمونني للشرطة. اوه يا إبراهيم بيك، خذ أنت النقود إلى حزبنا بيدك، إنها ستكون ألذ على قلبي من السمن.

بقيت النقود في أرض مخزن الحطب، آه يا الله، ماذا أعمل، فجأة خطر ببالي قول شيء:

ـ واجب علينا مساعدة حزبنا. أرواحنا فداء لحزبنا. .

وبحثت في كل أنحاء ثيابي عن شيء يقال له نقود، لم أجد. . ولو وجدت لما كانت أكثر مما يكفي لرشوة موظف، بينما كانت النقود، الآلاف الستة، تجرجر على الأرض إلى هذا الطرف أو ذاك ببوز الحذاء، فلو أخرجت مائة، مائتي ليرة وقلت: هذه لحزبنا، لما كان ذلك مناسباً.

دَيْنُنا دين. إنها (أكابرية) من زوبُكْ زَادَهْ الذي لم يمسكنا ويزقّنا في السجن. نحن أيضاً سنريه آدميتنا فلا نبقى تحتها. التفت زوبُكْ إبراهيم بيك إلي:

ـ أنت ولاه، ستصلح السرادق وتعيده وكأنه مصنوع لتوه، ثم تدهنه. . هيا اغربوا من وجهي. .

وقد حكى أشرف آغا لأقاربه. نعم، هكذا أُنقذوا من جريمة محاولة قتل. كل قطعة نقود وفوقها ألف دعاء. . لو رأيتهم كيف كانوا يدعون لزوبُكْ زَادَهْ.

إن زوبُكْ زَادَهْ هذا الذي لا مثيل له في الحقارة، رجل وجداني مع ذلك. لماذا، لأنه، لو شاء، لساق أمامه كل الناس الذين هنا، من ابن السابعة حتى ابن السبعين، كقطيع بغال. إنه فعلاً سافل، لكنه يعتبرنا بشراً، فيرينا بعضاً من انسانيته، وإلا فنحن بعيدون عن الانسانية بعداً شاسعاً.

يا ناس، لو كان عندنا مثقال ذرة من الانسانية، **فهل** كنا نترك بيننا عديم ناموس كهذا، ثم نطرق بابه ونقع على يديه وقدميه، ونصب له ماء ليغسل وجهه، ثم نقول:

ـ الرحمة يازوبُكْ زَادَنا، أنت تستطيع فعل كل شيء..؟؟

الحكومة.. ما غيرها!!

ما رواه قادر أفندي المعارض:

آه يا سيدي، ما نفع الحديث عن هذا الخائن؟ أن نحكي عنه وهو جثة، أفضل بكثير من أن نحكي عنه وهو حي. إنه ليس ذلك الرجل الذي يستأهل أن تراه، أو أن تعرفه. حرام أن تبذل كلامك، وتتعب لسانك. فهو النذل الذي لو نظرت إلى وجه لاسودَّت دخيلتك. لقد فجعنا زوبُكْ زَادَهْ، وأبكانا كما الحريم. لكننا نحن الذين جررنا هذا على أنفسنا، لم يجرّه علينا أحد. واعلم أن ما حصل، هو: لقد جَعَلَ منا فقاعة صابون، فاتخذنا منه تاجاً لرؤوسنا، بقولنا له (أنت، سيدي، هكذا.. وأنت، يا سيدي، كذا..) والآن، صار الذي صار، تألمنا واحترقنا، لكن سدى. لقد أحرقَنا، وجعلنا رماداً، ذرّه على السهول.. هذا العديم الأخلاق، الكلبان، عذابنا وألمنا لم ينجيانا من بين يديه.

انظر إلى هذه الحكومة. حكومة ماذا هي هذه التي تأتي لزيارة واحد مأفون، ليصبح بيته بَلاطاً، على مدى شهر؟.. و(الحكومة ستنزل في بيتي)! لم يبق أحد لم يسمع هذا أو يعرفه. نحن، من جهة التصّديق، لم نصدق.. لكن أنت تقول لي (الحكومة جاي لبيت ابراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ) وأنا أقول له.. لقد خدعنا أنفسنا على هذا النحو.

لا أنساه أبداً، ذلك اليوم، وكان يوم جمعة.. خرجنا من الصلاة، ثم توقفنا في باحة المسجد. قال رضا بيك كاتب القائمقام:

ـ ألم تسمع بمجيء ضيوف زوبُكْ زَادَهْ، هذا المساء، يا خيّ..

فقال مرتضى أفندي سلمه الله:

ـ بلى. لكنهم طولوها.. وأخيراً هاهم يجيئون.

- فليرسلهم الله ليروا هذه الأراضي الميتة، وكيف سيصير حال دواليب سياراتهم من هذا الطريق.

- نعم. مجيء الحكومة شيء حسن، ولا بد من أن تستفيد بلدتنا. وكل ذلك بفضل زوبُكْ زَادَهْ. أبعدك الله يا زوبُكْ زَادَهْ عن فعل الشر، وحماك من أولاد الحرام.

آه يا سيدي. عندما سمعت ما قالوه، طار صوابي. ياناس، الانوجد، في رؤوس هؤلاء، ذرة عقل؟ كلهم يعرف أن التاريخ لم يدون في سجلاته فاسقاً كزوبُكْ زَادَهْ. يسلق ثمانين كذبة وهو على ساق واحدة. لو داوره الشيطان في منامه لأخرجه عن طوره وأبكاه، ثم سلمه سرواله بيده قائلاً: (خذ كفكف دموعك). فهل يُصَدَّقُ كلامُ أشِرٍ كهذا، ثم يقال (الحكومة آتية إلى بيته)؟

نبص عقلي من رأسي، فقلت:

- ايه.. يا مهابيل. بأية هيئة ستظهر الحكومة الآتية إلى بيت زوبُكْ زَادَهْ؟

لكن سرعـان ماللمت نفسي. ياأخي، نحن نقـول إن الحكومـة لاتأتي. لكن ماذا لو أتت؟.. إيه ياه.. لو أتت؟ سينتفون ريشنا، ويطيرونه في الهواء على هذا القول. لا تسل عن الخوف الذي انتابني. فبعد قول كاتب قائمقام بقد الدنيا (الحكومة ستضيف في بيت زوبُكْ زَادَهْ)، ما الذي يمكنك قوله؟ لا بد وأنه على اطلاع.

قال مرتضى أفندي سلمه الله:

- تعني أنك غير مصدق أن رجال الحكومة آتون إلى بيت زوبُكْ زَادَهْ هذا المساء؟

فقلت:

- ومن لا يصدق يا خيّ؟ وهل قلنا كلاماً كهذا؟ إننا نمزح، وإنه للغوٌ فارغ، فهل من ضرورة للأخذ به؟ أرجوكم، لا يسمعنا إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ، فينجّرنا.

لقد قيل الكثير عما ستقدمه الحكومة لبلدتنا، في حال مجيئها. ولأنني بدأت الحديث مشاكساً، فقد ترتب علي أن أكرّز المدائح لابراهيم بيك:

- فليأتوا! نعم، سيقدمون لنا الكثير، وسيكسبون دعاء المساكين. وهذا سيكون بفضل من؟ إنه زوبُكْ زادَنا، نوّر الله وجهه في كل الدنا، ورفع اسمه في كل يوم أكثر من يوم.. لا تحرمنا منه يارب.

لقد دعوت له بحيث لو سمعني أحد، لظنني أعمل بالدعاء للأموات في المآتم. مني ساعة، منك ساعتان، وحدنا كلمتنا على مدح الساقط زوبُكْ زَادَهْ، حتى رفعناه إلى السماء.. لماذا نحن هكذا؟ خرجت من باحة المسجد متوجهاً إلى بيتي، وأنا أقول:

- يارب، أرسـل لي واحـداً من أعـداء زوبُكْ زَادَهْ اللّدودين، حتى أفـرغ ما بداخلي.. ، حتى أشتم هذا الوبش ملء فمي، وأطفيء الحريق الذي جواي. أرسل لي رجلاً يحب الحق، يا الله!

استجاب لي الذي أنا قربانُه. نظرت وإذا حمزة بيك جفتفران أوغلو، الرجل الذي نار فؤاده لا تنطفي، حتى ولو شرب من دم زوبُكْ زَادَهْ. أتعرف لماذا؟ لأن إبراهيم هذا يريد أن يلهط رئاسة البلدية منه. لو كان الوقت غير هذا الوقت لسألته عن عدم مجيئه إلى صلاة الجمعة (ولاك، ملحد، ألا تعرف الصلاة. ستُذهب بَركَةَ البلدة). ولكنني وجدت الشخص الذي أستطيع إفراغ ما بداخلي أمامه، فلم أقل شيئاً.

بعد (السلام عليكم) و(عليكم السلام)، والسؤال عن الخاطر والحال، خش حمزة بيك في الموضوع، لم يترك كلمة إلا وقالها عن زوبُكْ زَادَهْ:

- طيب، هذا السافل، يظننا من دون مخ؟ ما العمل يا خيّ؟ إنه ما ينفك يقول إن مجيء الحكومة إلى بيته، سيكون هذا المساء. ماذا يعني حكومة يا خيّ؟ إذا تركناه على هواه، فقـد يقول (ملكـة بريطانيا، لكونها صديقتي، الروح للروح، جاءت لزيارتي، ولكـونها حرمـة، فإن دخولها علي يتطلب إذناً مني، ولأنني زعلان منها، لم أعطها إذناً بالدخول) ونحن، رغم معرفتنا الحقيقة، نبلعها.. أليس كذلك؟ يا ناس، يعني ألن يطلع من بيننا واحد، صاحب وجدان، فيمعس هذا الزوبُكْ تحت قدميه؟ إن الذي سيزهق روح هذا الرذيل، سيكون مأواه الجنة، خالداً مخلداً.. ماذا أقول لك يا سيدي..

وبينما كان رئيس البلدية يتكلم، وجدت نفسي أقول، مباشرة، وبحدّة:

- ماذا تقصـد؟.. يعني أنك غير مصدق أن كبار الحكومة آتون لزيارة إبراهيم بيك؟ آه يا حمزة بيك، طيب، أية واحدة، من كل الحكومات التي تعاقبت، منذ تأسيس هذه البلدة، جاءت وقـالت (مـا هذه الأعمال، ما هذه الأشياء)؟.. كم نحن ناكرو

جيل؟ كيفما كانت الأمور فقد طلع من بيننا إبراهيم بيك، وعزم الحكومة، . . نحن، من ضيق أعيننا، سنأكله حياً.

آه يا الله، أنا كيف أقول هذا . . كم دعوت الله (سبحانك، هيىء لي شخصاً لا يحبه، حتى يبوح أحدنا للآخر) . . ماذا جرى حتى قلت ما قلت؟ لا ريب في أن شخصاً آخر جلس في داخلي. المتكلم لم يكن أنا، إنه عديم الناموس زويْكْ، جلس في داخلي. لقد سكنني شيطان.

دهش حمزة بيك من تصديَّ له. ثم لملم نفسه، مثلما فعلت أنا، في باحة المسجد، قال:

ـ ولك يا أخي، أأنت لا تطيق المزاح. وهل ذكرنا زويْكْ زادَنا بسوء، لا سمح الله؟

ومضى يهز رأسه.

توجهت إلى البيت، السكين لانفتح فمي. حضنت رأسي بين يديَّ، وغصت في أعماقي، مفكراً: . . لماذا نحن هكذا؟ هكذا ياه . . ، لم يدع مجهولُ الأب، ابنُ أمه، بلاء، لم يصبه على رؤوسنا. كوى أفئدتنا، واحداً واحداً . . ونحن، كلنا، متطوعون لشد حيله. ما دام الأمر هكذا، لماذا نترك مجالاً لهذا الشؤم لأن يعيش بيننا. لماذا نبدو وكأننا نصدقه، في حين نعرف أنه كاذب؟ أنا هكذا، من شدة الخوف؛ الخوف، كما يقولون، يهد الجبال. . لو كان القلب جبلاً لما احتمل كل هذا الخوف المتولد من هذه الأكاذيب.

بعد تفكير عميق، فهمت التالي:

أن نبدو وكأننا نصدق زويْكْ زادَهْ، بالرغم من تكذيبنا له، شيء يشبه لعب القمار. كم هو صحيح القول (المكوي بالقمار لا يشبع) . . كلما خسر الانسان بالقمار، كلما ازداد تمسكه به. . أليس كذلك؟ . . لماذا؟ لكي يعوض ما خسر، وينقذ نفسه. لهذا نبدو وكأننا مصدقون لتّ وعجن زويْكْ زادَهْ. إذا قلت إنه كاذب، فهذا نعرفه، لكن، إذا طلع صحيحاً، فإن الخوا زيق التي سيخوزقنا عليها، مرتفعة إلى السماء، وطرفها الآخر

واصل إلى الطبقة السابعة من الأرض. . ونقول هل نعوص فرق هذه الخوازيق، فنغض الطرف عن كذبه. كلما تخوزق الانسان كلما ازداد إيمانه بالكذب.

ـ بابا. . لقد أتى عم حمزة بيك.

قالت لي بكدانة وأنا غائص في أفكاري.

قال حمزة بيك:

ـ إذا كان صحيحاً أن رجال الحكومة قادمون هذا المساء . . ، من جهة الصحيح، هو صحيح، . . فإنه يتوجب علينا، نحن كبلديّة، بعض الأعمال. حكومة، هكذا قدها، قادمة. يجب أن يستعد الشباب لذلك. . يجب أن نلاقيها عند مدخل البلدة، ويجب على الجاويش محمد أن يطلق مائة طلقة وطلقة، من الخضرلك، يجب أن يأتي شباب القرى المجاورة، متكاتفين على إيقاع الطبول. .

ـ ياه. . فكرتك جيدة. . لكننا تأخرنا.

ـ أرجوك، عجِّل.

ذهبت مع حمزة بيك إلى البلدية، ومنها إلى فرقة الحزب. وكان رئيسها في ذلك الوقت، الشيخ بدر الفهمان. قال الشيخ:

ـ نطقتم بالحق. لكن، طالما أن القادمين ضيوف إبراهيم بيك، فلا يمكن أن نعد لهم استقبالاً، من دون مشورته. هيا نذهب لنستشيره. . ثم نفعل ما يأمر به.

وصلنا بيت زويْكْ زادَهْ فوجدناه كبيت العرس. كان صابر آغا مختار آلوجان، قد خلع جبته وعلقها على الشجرة، وراح يسبح. . وعلى مقربة منه، كان نوري الأعمى مبيض الأواني، يكدح. أما الخياط جمال، فقد تحول إلى بواب، يروح ويجيء مثل اليويو. الحلاق حقي، وكأنه خادم هنا، من أربعين سنة.

قالت أم زويْكْ زادَهْ:

ـ تفضلوا. . تفضلوا. .

ـ على العافية يا أختي. .

ـ لقد جهَّزت المآكل بأنواعها.

همس أمين أفندي التاجر في أذني.

ـ أنا لم أكن مصدقاً، قبل هذه اللحظة، أن الحكومة قادمة. لقد ظننت أن عديم الشرف زويْكْ، يعدّ لنا مقلباً. لكني، بعدما رأيت كل هذا بعيني، آمنت، الحكومة ستأتي، بجد. ستأتي محملة مزملة. ما هذا التحضير يا خيّ.. إنّ ما طبخته هذه العجوز، لا يكفي الحكومة فقط، لكن، لو التمّ حوله رهط من المشردين، شهراً، لما انتهوا من تناوله. الآن آمنت أن الحكومة قادمة.

بعد أمين أفندي التاجر، همس لي إحسان الصف ضابط:

ـ لقد صدقت بمجيء الحكومة، وآمنت. ما قولك، ياه، ألا يجوز أن يكون السافل زويْكْ زَادَهْ قد احتال على الحكومة أيضاً؟

عدت إلى الغوص في أعماقي.. لا بد وأن تكون، في هذا العمل، قذارة كبرى. لكن ما هي؟

قال حمزة بيك رئيس البلدية لأم زويْكْ زَادَهْ:

ـ يا أختي، روحي إلى زويْكْ زَادَنا، وقولي له، ليعذرنا على كوننا قد أتينا دون إذنه، وإذا لم يكن عنده ما يمنع، فاننا سنستشيره في مسألة.

لاحت العجوز من أعلى الدرج:

ـ يقول: ليتفضلوا..

ـ **انظرْ إلى هؤلاء السفلة**. إنهم سفلة في الأصول والفروع. يا هوه.. ها قد جاء بيتك كل وجهاء البلدة.. ولو، يا حقير، قم لاقهم.. كان زويْكْ زَادَهْ وقتها، قد بلغ الثلاثين، أو إنه لم يبلغها بعد.. والوجهاء القادمون إلى بيته، كلهم في عمر أبيه.. ذائبين على قدميك يا قليل الحياء، قم لاقهم عند الباب.

زعلنا من قلة اكتراثه. احمرانف سطلمش صاحب الفندق، من شدة غيظه. لوى كل منا رأسه جانباً، وراح ينفُخ. قال سطلمش بيك:

ـ ليس لهذا القواد الشهير، زويْكْ زَادَهْ، أي ذنب. كل الحق على القائمقامية والحزب والبلدية ووجهاء البلدة، الذين استهتروا بالأمر، واعتبروا هذا الدُّون رجلاً، وجاؤوا إلى بيته.

قال سطلمش بيك هذه الكلمات بصوت خفيض، لم يكن واضحاً: هل قالها

قولاً، أم أنه مررها في ذاكرته تمريراً. لم يسمع ما قاله سواه، وأنا، لكوني قريباً منه، وحضرة الله تعالى.

شلحنا أحذيتنا عند أسفل الدرج، وصعدنا إلى الطابق العلوي. الرجل الذي لا يستحي من شعره ولحيته، الشيخ بدر الفهمان، رجل هذا القد قده، ما تقول إلا أنه سيصلي للوصول إلى جانب الفاسق زويْكْ. علا صوت زويْكْ من الداخل:

ـ تفضلوا!..

شُفْ ابن الحرام، ابن الزنا، كل هؤلاء القادمين في عمر أبيه، ولا يلاقيهم.. تفوو على رجولتك، تفوو على رجولتنا..

صاح الشيخ بدر الفهمان (دستور، بسم الله..) وفتح الباب ودخل في المقدمة، ونحن وراءه. وإذا رآنا زويْكْ زَادَهْ، قفز من مكانه، وباشر الكلام:

ـ آخ يا راسي.. أمي ماها؟ طقان عقلُها؟ لماذا لم تقل لي إنكم القادمون؟ قالت: (وصل ضيف) وسكتت.. لو كنت أعرف أن القادمين أنتم، أما كنت لاقيتكم عند الباب. أرجوكم، لا تؤاخذوني.. تفضلوا.. تفضلوا إلى هنا.. تعال يا عمي الشيخ بدر.. أبوس رجلك يا حمزة بيك، تفضل.. تفوو على هذه الشغلة.. أنتم من الوجهاء.. لقد شرفتم بيتي، تفضلوا، إلى هنا..

وصاح بالحاجب الواقف عن الباب، مصالباً بيديه على بطنه:

ـ القهوة، بسرعة

ليس له في الشيطنة مثيل. ماذا يقال عن أمثاله. بعدما دار الحديث هنا وهناك، استلم الشيخ بدر الفهمان القول:

ـ **الله يعلم ياإبراهيم بيك، لم يستطع أهالي هذه البلدة إعطاءك ماتستحق، في** يوم من الأيام.. لو وضعنا مقابلك ذهباً لشالت كفتك. بمساعيك صار لبلدتنا اسم يذكر. لقد قلت لنا إن بعض كبار الحكومة سيأتون، لكننا لم نعلم بذلك قبل زمن، فأنت لم تعلمنا، سمعنا أنهم سيصلون هذا المساء، يا هوه، كبار الحكومة آتون، ونحن مثل النساء المتخاصمات على ملعقة، مغلقون على أنفسنا الأبواب. ماذا سيقال.. شرفك **شرفنا، إذا كنا بشراً، فيجب ألاّ ننسى جمايلك، ولاندعك تخفض رأسك، يجب أن**

تطلع لمقابلة هؤلاء الكبار، وعلى الشبان أن يصطفوا على جانبي الطريق، يجب أن نلاقي سياراتهم على بعد ثلاث قرى، يجب أن يصم الكونَ صوتُ مدفع الخضرلك. نحن اتفقنا على ذلك، وبالرغم من أننا متأخرون كل هذا الوقت، فسنفلح في هذا العمل وننجزه، بمشيئة الله أولاً، ومشيئتكم ثانياً . . ، يكفي أن تتفضلوا بإصدار الأمر، إبراهيم بيك . . نحن فكرنا وقررنا، لكننا قلنا إنه لا يمكن فعل شيء دون استشارتكم، فأعطنا الإذن حتى ننجز الملاقاة، ونذبح الذبائح، ونقيم الكون ونقعده.

آخ يا خنزير بلحية . . وشيخ أيضاً؟ لم يبق غير أن تهزّ بلحيتك، وكأنها ذيل كلب هرم. يتكلم الشيخ بدر الفهمان، وكلما تكلم، كلما انتفخ هذا الكلب البري، الزويكْ ابن الزويكْ، ظاناً نفسه بشراً، بحق وحقيق، حتى لم تعد البيوت والغرف تتسع له. قال مطقطقاً بمسبحته (الكهربا):

ـ آبائي الأعزاء، مروءتكم أدمعت عيني. لولا خجلي منكم لبكيت. لتعلموا أن ما أقوم به، هو من أجل خدمة أبناء بلدتي. الحكومة العظيمة هذه، لماذا ترسل رجالها؟ لأنهم أخذونا بعين الاعتبار. نعم، كان يجب الخروج للملاقاة، لكن القادمين ضيوف، على نحو خاص، ومجيئهم مكتوم. سنبحث بيننا موضوعاً سرياً للغاية. هاهي الرسالة التي أرسلوها إلي. تقول الرسالة (أخي)، تقول في البدء طبعاً (سلام). تقول: (سنتناقش معك في موضوع سري للغاية، نحن آتون لأخذ مشورتك) . . هاهي الرسالة، في أعلاها خاتم الحكومة . . انظروا . .

ـ لا لزوم . . خاتم الحكومة ظاهر. ملحد من لا يصدق . . هاهو، بالضبط، خاتم كبير.

ـ لا، ليس كذلك يا أمين أفندي. لقد وصل إلى أذني بعض الأقاويل . .

امتقع وجه أمين أفندي التاجر:

. ملحد من لا يصدق!

ـ إنهم قادمون الآن، لأمر سري، سيأخذون مني مشورة. سنتناقش في أمر سري، له علاقة بالدولة. لو سألتم: لماذا هو سري؟ أقول: إن حوالينا الكثير من البلدان، بل ومحافظات، ومحافظات كبيرة . . فلو سمعوا بزيارتهم لنا، ماذا سيقولون؟

سيقولون: الحكومة لم تأخذنا بعين الاعتبار، لم تصفنا في مصاف البشر. أليس كذلك؟ لهذا سيبقى الأمر سرياً. لا داعي للملاقاة، والطبل والزمر. ولن يقال شيء لأحد. سيبقى كل شيء سراً بيننا.

ـ على الراس. لكن لكيلا يقال إننا لم نقم بالواجب.

ـ كل شيء على ما يرام . .

خرجنا من بيت قليل الحياء زويكْ زادهْ، كما الخروج من عند السلطان. لو رأيت السافل أمين أفندي التاجر، لخجلت من كونه من جنس البشر. ما بقي غير أن ينبطح على قدميه وأرديته، والأرض التي يطؤها، ويقبلها. خرجنا، ودعنا زويكْ زادهْ عند الباب الذي في نهاية الممر. اتجهنا إلى رابطة المعلمين. قال أمين أفندي:

ـ هل فهمتم؟ كل ما قاله عديم الناموس، كذب . . يجب أن لا نصدق حتى كلام الله من فم زويكْ زادهْ. لو كانت الحكومة ستأتي حقاً إلى بيته، أفلا يخرج لملاقاتها؟، قال ماذا، سيبحث سراً من أسرار الدولة . . تأمّلْ، تأملْ. يعني ألم يبق في هذه البلاد الواسعة، مكان تبحث فيه أسرار الدولة، غير بلدتنا. لو قلت إنهم يبحثون عن مكان، فهل أنقرة ضائقة عليهم؟ طيب، هناك اسطنبول . . مدينة يقال إنها تتسع لعشر حكومات من مثل حكومتنا . . هل نزح ماء اسطنبول؟ ألم يجدوا مكاناً يبحثون فيه أسرار الدولة؟ ألم يعثروا على رجل يُستشار، حتى يستشيروا، في أسرارهم، فاقد المروءة، زبكنا؟ والله إنه لكذاب، كذاب، والله. كذاب.

ـ طبعاً، كذاب . . وهل صدقناه؟ آه يا أمين أفندي، وكأنك لا تعرف . .

ـ طيب، ما دمنا غير مصدقين، لماذا ذهبنا إلى هذا الكلب؟

ـ الله الله . . رحنا تمسخرنا عليه.

ـ بلى. لقد سخرنا منه، ومشت عليه.

ـ سخرية. انظر، ها أنذا أدوّنها، حتى لا تنسى، وحتى تكتب في موضوعها الأغاني الشعبية.

ـ لقد تجلى كذبه في هذه النقطة، عندما ذهبنا إلى بيته، لماذا لم يلاقِنا عند الباب؟ وما العبارات التي كرّها لدى وصولنا باب غرفته؟ الرجل الذي يقول هكذا عبارات، ألا

يقابلنا عند الباب؟ بماذا تذرع؟ لم تقل له أمه؟ هل صدقتموه؟ كونها أمه، وهي امرأة مثل الشيطان، ألا تخبره؟ إن حقيقة الأمر شيء مختلف: رأتنا المرأة الشيطانة في الباب، على هيئة وفد، فأسرعت إلى ابنها قائلة (دخيلك يا ابني، البلدية وما بلدية، الحزب وما حزب، كلهم ملتمون وآتون. .) ثم عددت له أسماءنا واحداً واحداً. فقال زوبُكْ زَادَهْ (آه. . أية بلاوي ستنزل على رأسي، أي مقلب من مقالبي انكشف لهؤلاء. . هاهم قد لملموا بعضهم وجاؤوا، كي يحضروا أجَلي، أي لعبة يجب أن ألعب، كي أصرفهم عني؟). . وأخذ يفكر وهو يرتجف كأوراق الخريف.

ـ هيه. . هات يدك لأبوسها. . لقد أدركتَ ما حصل فعلاً. . لقد أدركت. . نعم، لقد خاف منا. أليس كذلك؟ لقد احتال علينا واحداً واحداً. . أفلا يخاف؟

ـ وإذا دخلنا عليه، لم يتوقف عن الرجفان، لم تبق فيه نقطة دم واحدة. حتى وجهه الكالح، اخضرّ. كانت المسبحة في يده، وكان يقرأ (الحمدُ. .) . . . لو كنا هجمنا عليه صائحين (ولاك. .) لكان خضع لنا، ومد رقبته. . ، أجل، كان يجب أن نغرقه بالبصاق. . لكن ماذا فعلنا، عملنا شهامة، وبكينا، وقلنا (رحماك يازوبُكْ زادنا، رؤوسنا وأرواحنا، فداء لما تعدُ). . وإذا لاحظ هَبَلَنا، تلافى أمره، سحب نَفَساً، ثم لعلع. .

ـ صحيح ما ذكرت. أنا أيضاً فهمت الأمر على هذا النحو. حتى أنني، عندما رأيته يرتجف كالمقرور، مددت يدي إلى الكرباج المغروز في جزمتي. كنت سأنزل على وجهه ضرباً، حتى يفترق فمه عن أنفه. . لكن شيخنا بدر، لا يختلف عن تيس كبير في شيء. عندما قال له (أنت تاج رؤوسنا)، متوسلاً، واقعاً على يديه وقدميه، أنزلت يدي عن الكرباح. لو أن الشيخ بدر عاجله برفستين، لكنت أخذت الباقي لي، وكنتم سترون، هل سأخرج الحليب الذي رضعه من أمه من أنفه أم لا؟

وهنا وضعنا أحمالنا كلها على الشيخ بدر. لم نذر كلمة لم نقلها لهذا الشيخ ذي الرأس الإوزي. بُهت الشيخ بدر وقال:

ـ يا رب قربانك، يا ناس، ألم نذهب لاستشارته في موضوع الملاقاة؟

ـ بلى. لكن، عندما سمعت صوت طقطقة خشب أرض الغرفة، الناجمة عن ارتجافه، كان يجب أن تنشب أظافرك في رقبته، ثم تنتظر ما سنفعله نحن. .

ـ يعني الحق علي. ؟

ـ طبعاً. لقد انخدعت بكلماته الملفقة. لماذا كان يتوسل قائلاً (أرجوكم، لا تبوحو لأحد بأن الحكومة قادمة، إنه عمل سري، دعوه بيننا)؟ إن قوله إن الحكومة ستأتي إلى بيته، كذب مجنّح، ومذنْب أيضاً. لقد خاف زوبُكْ زَادَهْ من أن نذهب إلى المحافظة، نحكي للمحافظ، . . ومن فم إلى آخر، يصل الكذب إلى فوق. . خاف من أن ينكشف كذبه. لذا كان يتوسل إلينا (دخيلكم، ليبق بيننا، إنه سر من أسرار الدولة).

حل المساء. أعتمت السماء، ونحن نتداول حديثه في رابطة المعلمين. كنا نتحادث، وعيوننا ترقب الطريق من خلال النافذة. . هل ثمة قادم؟ إذا مرقت سيارة، فسنراها. . كانت السيارات كثيرة، لكن إحداها لم تقف أمام بيت زوبُكْ زَادَهْ.

لو كنا في يوم آخر لكان كل واحد منا، في تلك الساعة، قد أوى إلى بيته. لكن أحداً لم يغادر. زرعنا الولد شكري الحافي مراقباً عند بداية الطريق المؤدي إلى بيت إبراهيم. إذا مرقت سيارة إلى تلك الجهة، يركض لإبلاغنا.

علا أذان العشاء. ذهب الشيخ بدر للصلاة، مصطحباً معه ابنه البلاء الأسود. عاد البلاء الأسود بعد زمن قصير:

ـ لم يبق في البيوت المتطرفة بشر. لقد خلت. ملأ الرجال المقاهي التي على الطريق، تجمعت النساء في البيوت المطلة على الطريق. . لدى سماع زمور، أو رؤية لمعة ضوء، يقفز الجميع صائحين (ها ها. . هاهي الحكومة. . وصلت).

لقد فرغت البيوت التي في الأزقة الخلفية. لم تحدث في بلدتنا فرجة كهذه من قبل. . آذاننا صاغية، عيوننا على (حبسة) الباب، متربصون. عاد الشيخ بدر من الصلاة بسرعة. يبدو أنهم فكروا (لربما وصلت الحكومة ونحن في الصلاة) فاختصروها. أنهكنا النعاس. أسند مرتضى أفندي سلمه الله رأسه إلى الطاولة، وغاب في نوم عميق:

وفجأة، دخل شكري الحافي وهو يفقس بأصابعه قائلاً:

ـ أتت. أتت. أتوا. .

من سيكون أول القافزين. ؟ ألا يقفز من كان شخيره مسموعاً من مركز المحافظة، مرتضى أفندي، ويقول (هل أتوا بحق؟). كان يجب ألا يؤخذ شخيره على محمل الجد، فلقد كان نائماً كالثعالب.

- احكِ لنا يا ولد، يا شكري، كيف. . ، كيف القادمون، كم عددهم؟

يملأون سيارتين. السيارتان اتجهتا صوب بيت إبراهيم بيك، وقفتا أمامه. فتح باب بيت إبراهيم بيك، الكبير المؤد إلى أرض الدار، ثم أغلق، بينما هرعت أنا إلى هنا.

حكى الولد هذا، وأخذ يفقس بأصابعه ويرقص:

- الحكومة أتت. أتت، الحكومه. .

نظرنا، كلٌ إلى الآخرين. . لا صوت. . وبهدوء خرجنا، واحداً إثر آخر. . المفروض أن يذهب كل إلى بيته. وأنا أيضاً خرجت. . سأذهب إلى البيت، لكني لم أستطع ولا بأي شكل من الأشكال. حملتني قدماي ناحية بيت زويُك زادة. بيتنا يقع في الجهة المعاكسة. خجلت، لو رآني أحد. . دسست نفسي في جهة بيته.

- مرحباً قادر أفندي على العافية. .

من هذا؟ أعطيت أذني باتجاه الصوت. أليس هذا سطلمش صاحب الفندق؟

- مرحباً. . ماذا تعمل هنا في هذا الوقت، يا خيّ؟

- مثلك، أخطأت الطريق إلى البيت. . صار قدام بيت إبراهيم بيك فرجة. . الناس هناك، كلهم. . تعال.

وصلنا إلى هناك. أجل، لقد غص المكان بالناس، فرجة. السيارتان الواقفتان في أرض الدار، تشاهدان من ثقب المفتاح. ستائر النوافذ المطلة على الشارع، مسدلة، غير أن ضوء المصباح كان يشف عبرها. ستارة النافذة الجانبية من الطابق العلوي، بقيت مفتوحة جزئياً. . ولكن، لكونها عالية، ولا تطل على سطح أيّ من البيوت، فإن رؤية ما بالداخل، لم تكن ممكنة. يعني مجيء الحكومة كان أمراً أكيداً. . وها قد اختلوا للتشاور.

فرّق إحسان الصف ضابط الأولاد والناس، مبهدِلاً:

- عيب. مراقبة بيوت الناس، عيب.

ابتعدنا قليلاً. ثم أوى كل إلى بيته.

دخلت الفراش، وإذا الباب يقرع. من يقرع الباب في هذه الساعة؟ خرجت بالقميص والسروال:

- من؟

- هذا أنا. افتح يا عم قادر، افتح!

- ما الخبر؟

- يسلم عليك حمزة بيك، ويقول لك. . طيب افتح أولاً.

سحبت المزلاج. لقد اجتمع في البلدية، حمزة بيك، سطلمش بيك، وأمين أفندي، وأرسلوا إلي. .

ارتديت ثيابي وخرجت، في برد الليل. الكهرباء عندنا تنقطع بعد منتصف الليل، أشعلوا (اللوكس) والتفوا حوله. قال الشيخ بدر الفهمان:

- تفضل ياقادر أفندي. نحن بحاجة إلى رأيك. الموضوع خرج عن كونه عملاً حزبياً. . يا أخي، إنه للوطن، وشرف الوطن. لهذا وجدنا من الضروري أخذ رأيك. نحن لم ننس أنك معارض، لذا فإننا لن نشغلك في شغل البلدية أو الحزب، ولا حتى في مقاهي الأحزاب. . إنها مسألة من نوع آخر يا قادر أفندي. لقد جاء الوقت الذي يجب أن نضع أيدينا في أيدي بعض، بغض النظر عن مؤيد ومعارض. . لقد طالب الشباب بإشراكك في القرار الذي ستتخذه.

- معاً في السراء والضراء. تفضلوا بأي أمر. إذا كنا متحدين، ماذا يخيفنا. أنا، من الآن موافق، مهما يكن القرار. حسبما فهمت، فإن القرار سيكون بحق عديم الناموس، زويُك زادة؟

- رحمة الله على أبيك لقد حزرت. إسمع يا قادر أفندي. إنْسَ كل ما حدث بيننا. أنت تعرف أكثر مما أعرف؛ كل شيء يقال في باب السياسة، جائز. يأتي وقت تقول لي فيه (ياعديم الناموس). . ثم يأتي وقت أقول لك فيه (يا عديم الناموس). . نتوافق. هذه من ضرورات الديمقراطية، أليس كذلك؟

- بلي، هكذا. لا أحد يقول (لا) على كلام صحيح.

- عندما يُعتلى المنبر، تشتمني وأشتمك، لكن، ما أن ينتهي وقت السياسة الحزبية، حتى نتحاضن ونتباوس قائلين (يا خيّ). وهذا الوقت، الآن، فرصة مناسبة لطرد زويُك زادة من هنا، وبقوة الحكومة نفسها. ألم يقل هذا الفاسق، الفاقد الناموس (سيأتي بعض رجال الحكومة إلى بيتي، وسنتباحث في قضايا الدولة سراً)؟ إسأل أي طفل من الأطفال. ألم يقل ذلك؟ وأنت ألم تسمع ذلك مثلنا؟

- بلى، سمعت.

- يا قادر أفندي، هذا الفاقد الأخلاق، يعتبر أهالي البلدة، بمن فيهم نحن، قوادين!

- كيف ذلك؟

- هذا هو الواقع. لقد بزَّ بيت زوبُكْ زادَهْ، في هذه الليلة، ماخور المومس الصماء التي في مركز المحافظة. النساء من جهة، والغلمان الملعوب في مؤخراتهم من جهة، يتنقلون من حضن إلى حضن، وعلى مداعبة. العرق والخمور مثل السيول يا أخي. . يرقُصون النساء كما ولدتهن أمهاتهن. . وأشياء أخرى. . هل يجوز أن يمارس هذا الفجور في وسط البلدة، يا قادر أفندي؟

إذ سمعت هذا الكلام، صعد الدم إلى رأسي. صرخت:

- لاه. . قولوا إن عرضنا وشرفنا قد أصبحا مشاعاً. . ألم يعد عندنا دم أو نخوة، أبداً؟ ألا يوجد بين هؤلاء الشبان المفتلة شنباتهم، شهم يغسل شرف البلدة.

قال البلاء الأسود للشيخ بدر الفهمان:

- يا أبي، أعطني. لم أكن أعرف هذا، فجئت دون سلاح. لأذهب إلى البيت، أحضر (الأوتوماتيك) وأنظف البلدة من هذا الوسخ.

تحرك الشبان المتجمعون عند باب الغرفة، فصاح الشيخ بدر الفهمان:

- قفوا، يا شباب. لكل عمل أسلوبه. لماذا وضعت القوانين؟ أنا اكتشفت طريقة نجرجر بها زوبُكْ زادَهْ من هنا. الآن سننظّم ضبط، نرفق فيه عريضة، نقول فيها (أخذتم هذا العديم الشرف، الذي يخرب أخلاق البلدة، من هنا، أخذتموه، وكان به. . . لم تأخذوه، عندها نحن لسنا مسؤولين عما قد يحدث). كل واحد منا لازم أن يوقع على الضبط وعلى العريضة، وبسرعة. سنوقظ القائمقام أولاً، نحكي له ما جرى، ونقدم له الضبط والعريضة. . ومن عنده إلى الجندرمة، يجب أن تطبّ (الكبسة) على بيت زوبُكْ زادَهْ الليلة، ويضبط متلبساً بالجرم المشهود، ثم يُجرجر شاربو العرق والغلمان المتزيون بأزياء النساء، والعرصات المتحلون هيئة الضيوف. . . إلى خارج البلدة، دون أن يمنحوا فرصة لارتداء سراويلهم، ويُربَطوا من أيديهم إلى ظهورهم، ويساقوا، على مرأى من شبابنا، إلى مركز المحافظة. كلهم أصحاب مؤخرات فاسدة، وستقدم هذه (الجريسة)

إلى المحافظ قدام مبنى المحافظة. . هكذا، ما دام ثمة قانون، لا تلمس النار يدك. . ما رأيك بهذه الفكرة يا قادر أفندي؟

صحوت فجأة. ماذا لو عمل زوبُكْ زادَهْ غداً، عملة، خدع فيها هؤلاء جميعهم، كلا منهم على حدة، وجعلهم يقولون (نحن مالنا علاقة، قادر أفندي، المعارض، المتطرف، هو الذي غرر بنا، فوافقناه، ولا ذنب لنا) فأقع أنا تحتها دون مقابل. .؟

قلت: - فكرة معقولة. لكن ستائر زوبُكْ زادَهْ محكمة الإغلاق. أنا نظرت إليها فوجدتها كذلك. وحتى ولو كانت مفتوحة، لقد صعدوا إلى الطابق العلوي، فكيف تمكن رؤيتهم من تحت. هذه المهزلة التي تجري، كيف، ومن أين رأيتموها، حتى تنظموا بها ضبطاً وعريضة؟ إذا كان ثمة قلة شرف، تمكن رؤيتها، فلنرها نحن، وبعدها لا نضع توقيعنا وحدة، بل وقلوبنا.

- تراها. إذا لم يكن قد وقع طارىء ما، فسنريك قلة الشرف، وبوضوح.

لقد رتب هؤلاء كل شيء. تسلق ابن الشيخ بدر، البلاء الأسود، مثل قطة، عمود الهاتف المنتصب مقابل نافذة زوبُكْ زادَهْ التي نسيها نصف مفتوحة. ثم إنه لم يعد ينزل. الذين في الأسفل يقولون:

- انزلْ ولاه. .

فلا ينزل. فيقولون:

- ولاه. . ماذا رأيت في الداخل حتى أنك لم تعد تنزل من قمة العمود؟

لا يرد. فيقولون:

- أرسل الله عليك البلاء. هل علقت في رأس العمود؟ طيب إحْكِ لنا عما تراه.

فلا يحكي.

اتفقوا على أن يهزوا العمود حتى ينزل البلاء الأسود من عليه. العمود، زيك زيك، صار يصدر صوتاً، ثم، من فرط الخلع فيه، أوشك على الانقصاف من الأسفل. احتضن البلاء الأسود عمود الهاتف كما تحتضن العروس ولم يكن ممكناً فك يديه وساقيه عنه. يعني قل إن فك البلاء الأسود من على العمود، بعد كسره وإسقاطه، يحتاج إلى بلطة. عادوا إلى هز العمود، فبادرهم رقيب الجندرمة قائلاً:

- اتركوا العمود ولاه.. ستكسرونه، فتتقطع أسلاكه، فينقطع الاتصال مع المحافظة.

تركوا العمود. قالوا:

- تعالوا نرجمه بالحجارة.

وإذ ذاك سال البلاء الأسود إلى تحت مثل العسل. سأله مرتضى أفندي سلمه الله:

- يا ابني البلاء الأسود، ماذا رأيت؟

- لا أستطيع يا عمي مرتضى..

- لماذا يا ابني؟

- أخجل.. لا أستطيع.

حاول الشبان تسلق العمود فلم يفلح أحد منهم في بلوغ قمته. ركض ابن الكلب، نوري الأعمى، إلى دكانه، وعاد بحبل وبكرة من حديد. قال للبلاء الأسود:

- يا لله يا سبعي. إطلع واربط هذه البكرة في أعلى العمود، ويكون لك الثواب. أنت مسلم.. صدقني إن ثوابها كبير..

لم يبق للبلاء الأسود حيل يتسلق به، كالقطة، مرة أخرى. صعد بصعوبة، ربط البكرة بالعمود وعلق الحبل فيها. هل تشك في مروءة نوري الأعمى؟ ربط الحبل من أسفله بسلة. ومن يقعد في السلة، يمتحونه إلى أعلى عن طريق شد الطرف الآخر من الحبل. صار كل واحد يصعد إلى الأعلى، يرى ما يرى، فلا يريد النزول، يتوسل قائلاً (أرجوكم، لاترخوا الحبل)، ثم، النازل، الخارج من السلة، يقول (تفوو.. لعنة الله على البلاء.. لقد طيروا حظ البلدة.. ذهبوا بأعز شيء فيها).. ثم يركض إلى بيته، يبقى هناك من ربع إلى ثلث ساعة، ويعود مسرعاً إلى مكان الفرجة.

حكوا لي هذا بالتفصيل، ثم قالوا:

- تعال - إذا شئت - تفرج..

خرجنا إلى الزقاق، جئنا إلى أسفل العمود، حيث المكان صار كالمحشر. خمسة قروش في كف نوري الأعمى، يزقك في جوف السلة. يعني النقود التي بلعها نوري الأعمى لزوبُكْ زَادَهْ، سيستردها الليلة خمسة خمسة. قلت بسم الله، ودخلت. سحبوا

الحبل فارتفعت السلة بي. نظرت إلى النافذة التي لم تسدل ستائرها جيدا. فماذا رأيت؟ تفووو.. أية بهدلة قد تخطر ببالك موجودة. في الداخل رجال ونساء غرباء.. يأكلون ويشربون ويكيّفون.. بعضهم يفوّر القهوة، بعضهم يدور السيجارة، بعضهم داخل في حضن البعض الآخر.. وكل شيء يحصل على مرأى الآخرين..

أتاني صوت الشيخ بدر من الأسفل:

- أرأيت بأم عينك، قادر أفندي؟

قلت: أرجوكم لا تنزلوا السلة، عيناني لا تميزان، لم أر شيئاً بعد.

لكنهم أنزلوني. جاء القصاب عثمان لاهثاً:

- أرجوكم.. أنا ما صعدت. ألم يأت دوري؟

وكانت هذه كما عرفت عاشر مرة يقول فيها (أنا ما صعدت). عدنا إلى البلدية. كتب الشيخ بدر الفهمان الضبط. وقعنا تحته، وذهبنا إلى بيت القائمقام على الفور. القائمقام سكران.. وكان قد وقع في فراشه قبل قليل. إنه إذن لا يستطيع سماعنا، فكيف يفهمنا.. لا يستطيع فك جفنيه. ذكرنا له اسم زوبُكْ زَادَهْ، فانتفض وعيناه ما زالتا مغمضتين:

- زوبُكْ زَادَهْ؟ زوبُكْ من جديد؟ ألا تعرفون في هذه البلدة كلمة أخرى غير زوبُكْ؟ أماه.. أين وقعت. في يد من وقعت؟ آه يا راسي، يا راسي.. أنتم وزبُكُكم.. أنا متّ.. متّ.. راح شبابي هدراً بين أيدي هؤلاء الجَهلة.. حرام.. أنا.. حرام.. أليس كذلك؟

وارتمى. قائمقام كبير، ارتمى في عتبة الباب وانخرط بالبكاء. ظل يبكي حتى أنسانا زوبُكْ زَادَهْ، وأدخلنا في قضيته. لاحظ خادم القائمقام تأثرنا فقال:

- لا عليكم. هذه عادة سيدنا القائمقام..

يشرب القائمقام، كل مساء يشرب ويردد كما الأغنية (راح شبابي هدراً، بين أيدي الجهلة) ثم يبكي حتى الصباح. وقد عرفنا أنه، قبل أن نصل بقليل، قد قطع وصلتَهُ ونام.. وعندما طرقنا الباب استيقظ. لم ينتبه إلى أنه كان نائماً، فاستأنف العمل. أمسك الخادم سيده من تحت إبطيه، رفع ظهره فبقيت رجلاه على الأرض، وسحبه إلى فراشه.

قال الشيخ بدر الفهمان:
ـ لنذهب إلى قائد الجندرمة.
ـ رائع يا شيخ! قائد الجندرمة هذا لا ينوح ويبكي مثل القائمقام. يمسك بالعصا ويكر علينا غير آبه بكون الله هو الذي خلقنا.
ـ ليكن ما يكون.. هل سيركب لنا زوبُكْ زادَهْ قروننا؟ ألا تمس هذه الأعمال شرفنا؟
ذهبنا إلى قيادة الجندرمة. أيقظنا الرقيب من نومه. قرأ الرقيب الضبط والنوم ما يزال في عينيه.. ثم انتفض قائلاً:
ـ يا ساتر هذا واجب وطني.. لأذهب وأخبر القائد.
كان سبب اندفاع الرقيب يعود إلى حرقة في جوفه، منشؤها زوبُكْ زادَهْ. وصلنا باب بيت القائد. دخل الرقيب. وقبل أن يمضي من الزمن ما يكفي لتدخين سيجارة، خرج:
ـ قال حسناً، ما دام الأمر هكذا، فأسرعوا إلى إحضار صاحب العلاقة.. يبدو أن هؤلاء الناس قد وضعوا عقولهم في رؤوسهم.
القائد يعرف كل ألاعيب زوبُكْ زادَهْ. لكنه ينتظر شكاية عليه.. لذلك فإنه ما أن قرأ عريضتنا وهو تحت اللحاف، حتى انتفض:
ـ آخ.. أيها الواطي زوبُكْ زادَهْ. الآن لعنتُ أمك.
وإذا كان بودك أخذ كلام الرقيب بجد، فإن القائد ما يزال يقول، منذ زمن (يارب، هيىء لي شغلة عويصة!).. وينتظر. إنه لا يهتم بقضية سرقة أو مشاجرة.. إنه، مثل البارود، سريع الاشتعال، ينتظر عملاً من نوع خاص، يتطلب جندرمة.. وهو الآن يكاد يحرق المكان الواقف فيه. قال الرقيب:
ـ قائدنا يأكل زوبُكْ زادَهْ، والله، يأكله نيئاً..
هل هناك ما يشبه العمل العسكري؟ تِكْ تِكْ.. مثل ساعة الشُّفَنْديفر..، أصبح صاحب العلاقة مطوقاً. أمر القائد الجندي بمرافقتنا:
ـ إذهب إلى بيت زوبُكْ زادَهْ. لقد خدع الناسَ بقوله إن الحكومة ستأتي إلى بيته. وأي شيء يجري في بيته الآن.. لقد زعموا أنه يرقّص النساء عاريات، ويَنكِحُ الغلمان

الصغار، ويستقبل أشخاصاً مجهولين، يلعبون القمار ويتعاطون المخدرات.. وبناء على شكوى المواطنين، ستُرسل إلى بيته (كبسة).. لكن، قبل الكبسة، ولئلا يقع خطأ ما، عليك، كعسكري، إجراء التحقيق، وإعلامي النتيجة بسرعة.
ـ حاضر سيدي.
الجنود في المقدمة، ونحن وراءهم، جئنا بيت زوبُكْ زادَهْ. سأل الجندي المكلف بالتحقيق:
ـ الأفعال التي وردت في الضبط، من أين شهدتموها؟
ـ من قمة هذا العمود يا أفندي.. انظر، لقد علقنا بكرة، ودخلنا السلة واحداً واحداً، وصعدنا، وشاهدنا المهزلة التي في الداخل من خلال فتحة الستارة.
ـ لأرَ أنا أيضاً!
قال. ودخل في السلة. شددنا الحبل، صعد. أسهب الأفندي في الفرجة، فخفنا من هذا: أن يطلع النهار، وينتهي هؤلاء من الأعمال التي يمارسونها، ولا تُعمل الكبسة.
بقي الأفندي سارحاً في قمة العمود. ندهنا عليه:
ـ أننزلك يا أفندي؟
فقال:
ـ بهدوء ولاه.. لا تصرخوا حتى لا يسمعوا.. أنزلوني.
كانت علائم الفجر قد لاحت من قمة الخضرلك. جمعنا الأفندي حوله وقال:
ـ تعالوا!
وبعد ما ابتعدنا عن الباب، راح الأفندي يشرح لنا وهو يرتجف:
ـ يا شباب. إرجعوا عن عريضتكم هذه. إن كبس هذا البيت يعني خرابنا. يحرقوننا. المهزلة التي في الداخل، أنا أيضاً رأيتها. ولكيلا يكون عندكم شك، إن الضيوف الذين عند زوبُكْ زادَهْ، هم الحكومة ذاتها، ولو، ياشباب، يعني ألم يبقَ عندكم شيء من العقل؟ أي قوة تجرؤ على ارتكاب ما رأيتموه من وساخة، غير الحكومة؟ إذا كان ثمة من يقدم على هذا، فهو الحكومة التي فوق رؤوسنا. ما هذا الغشم.. عندما شاهدتهم، عرفت فوراً أنهم الحكومة. من الذي لا يهاب القوانين فيخالفها؟ الحكومة طبعاً. لا تتركوا عندكم أي شك في كون هؤلاء، حكومة، لا يخلطها خالط. إننا نسمع،

منذ زمن، عن مثل هذه الأعمال. نشكر الله على أننا شاهدناها بأمهات أعيننا. هذا يعني ان الأقاويل صحيحة، وأن الفساد انتشر، وامتد من المدن إلى هنا. يجب أن توقنوا أن هؤلاء الـذين في بيت زبك زاده هم الحكومة ذاتها.. لا يوجد من يرتكب هذا.. لا يمكن.. والآن، كل رجائي هو ذا.. أنتم لم تشتكوا، ولم ير أحد منكم هذه الدعارة، ولم تسمعوا بها، ولم تخبرونا.. ونحن أيضاً، لم نسمع، لم نر، ولا نملك أية معلومات من هذا القبيل.. وهذا الضبط، لم يُكتب، وهذه العريضة، لم توقع.. مزّقوها.. مزقوها.

وفجأة انتبه:

- أرجوكم، لملموا قصاصات الضبط، لئلا يبقى أي دليل ضد الحكومة.. يجب أن تحرق القصـاصـات ويخفى رمـادهـا، أو انشروه على السهل الذي نطل عليه من الخضرلك، أو فألقوه في الترعة ليجرفه التيار. يالله.. مع السلامة. سأقدم تقريري إلى القائد، فإذا شاء أن يعلم المحافظ بمجيء الحكومة، فليعلمها، هو حر.

لاصوت، لا حس، اتجه كل إلى بيته. دخلت بيتي مع طلوع شمس النهار. ولم نستطيع أن نعرف، هل كان الذين في بيت زويُك زادهْ، هم الحكومة، أم لا.. حتى الآن.

ايه.. هكذا يا سيدي.. لم يبق مالم نذقه من زويُك زادهْ.. ولا نعرف ما الذي سنذوقه منه فيها بعد.. لننتظر ما سيرينا الله إياه..

رسالة من بلدة التراب الميت المذرى

.. ماكتبه مدرس اللغة الألمانية في إعدادية البلدة إلى صديقه:

عزيزي..

أنـا الآن على ارتفـاع ١٢٨٦ متراً عن سطح البحر، وعلى بُعْد ١٣٤٢ كيلومتراً عنك. بعد رحلة القطار التي استمرت نهارين وليلة، وصلت إلى (...)، وكان ذلك صبـاح السبت. فكـرت في أن قضاء يومَيْ العطلة في مركز المحافظة، والاطلاع على معالمها، سيكون أكثر عقلانية. لكنني لم أطق صبراً، تُقت إلى رؤية البلدة التي تعينت مدرساً للغة الألمانية فيها، فلم أمكث في مركز المحافظة. لا توجد بين المحافظة والبلدة أية وسيلة نقل، سوى عربات البريد، ولثلاثة أيام فقط. وصلت في الوقت المناسب. بعد الظهر ركبنا في عربة مهرهرة، صفراء اللون ككناري.

أعرف سلفاً أنني واقع في مكان بدائي. وكنت مستعداً لذلك. أأقول لك شيئاً مثيراً أكثر؟ لقد كنت في داخلي أود ذلك.. مع أنه من غير المناسب أن أظهر نفسي مثالياً للغـاية كان عنـدي شيء من المزاج، وإنني لا زلت أخجل من هذا الشعور، حتى اللحظة التي أكتب لك فيها. أفليس عيباً أن يمتلك الانسان الفضول لاكتشاف ناحية من بلاده، مثلما يمتلك السياح من أثرياء أوروبة وأمريكا الفضول لاكتشاف الشرق الأقصى أو أواسط أفريقية؟

كان عندي شعور شبيه بذاك الذي عند الشعوب المتحضرة إذ تخرج لصيد الأسود في الغابات التي لم تدخلها بلطة، ولم يدخلها رحالة من هواة المفاجآت، كذاك الشعور الذي يحسه المتعرض لمطاردة أفعى جبارة، أو الواقع بين أيدي آكلة لحوم البشر، كيف يفعل بعد نجاته وعودته إلى بلاده، كيف يروي هذه الحكايات؟ إني أدرك هذا الشعور الآن أكثر، وأخجل منه أكثر. نحن نأتي إلى هنا عادة، متوقعين مصادفة أشياء بدائية،

بشعة، . . مربكة، فنصبح (آآ . .)، ونفغر أفواهنا دهشاً كلما صادفنا شيئاً منها، ثم نكتب الرسائل إلى معارفنا، واصفين تلك الأشياء بإثارة، مُضيفين إلى كل كلمة ألفاً. لماذا نفكر على هذا النحو؟ . . فأقول لنفسي إن الذين سبقونا قد ربونا هكذا، أسسوا هذه العادات فينا.

كل مُناي أن لا يحمل الانكليزي أو الفرنسي أو الأمريكي، عندما يزورون قرانا ونواحينا، هذا الشعور. نعتبر أنفسنا أجانب في ناحية نائية من وطننا، فنعيش في حمى اكتشاف بلدة لم تكتشف، ولم تدخل كتب الجغرافيا، أو في الأطلس بعد.

حسناً. لقد كانت الأشياء والأحداث التي أدهشتني في هذه البلدة التي حللت فيها، أكثر مما كنت أتوقع. ولقد غصصت من كوني أعددت نفسي مسبقاً، جاهزاً (للاندهاش) . . وإذ نرى شيئاً بدائياً، متخلفاً، سيئاً، نشعر بفرح يضارع فرح عالم آثار اكتشف قبر أحد الملوك من قبل الميلاد بين أنقاض مدينة. . أنا لم أكن بعيداً عن مثل هذا الشعور.

وصلت البلدة يوم السبت، ونويتُ أن أمضي يوم الأحد دون أن أتعرف على أحد، أو أقدم نفسي لأحد.

أنهكني السفر. كان أول عمل مطلوب مني هو البحث عن فندق. مع أن البحث كلمة فارغة. . هنا لا داعي للبحث عن شيء، كل شيء بارز أمامك. لقد اجتمعت الأماكن كلها حول طريق لا يزيد عن أربعمائة خمسمائة متر، وساحة صغيرة. . وبيوت ثمة خلفها.

كلمة (فندق) موجودة في البلدة على لافتتين لفندقين لا يشبهان الفنادق بأي شكل. أحدهما يسمى (فندق القصر السياحي) والآخر (فندق القصر الجديد) لقد دخلت كلمة Palace[1] في أغلب فنادق النواحي التي مرّت فيها، أو توقفت فيها عربة البريد. لا تستغرب استعمال كلمة (سياحي) في تسمية أحد الفندقين. فهذه البلدة، التي لا أعرف كم سنة سأعيش فيها، تقع على طريق النقل الدولي البري،

١ ـ قصر

تركيا/إيران. الطريق يقطع البلدة نصفين كسكين. والسيارات التي تمر منها تعجّ الغبار والأتربة وتراكمها فوق أسطحة البيوت ذات السقوف الطينية. . والناس، وكأنهم ناموا مدة طويلة تحت التراب ثم خرجوا لتوهم، بعدما نفضوا رؤوسهم وأجسامهم. جلودهم، وحتى أعينهم، مغبرة، مغبرة، مشحّرة. لم يوقظ الطريق الدولي البلدة النائمة تحت الغبار والأتربة من نومها العميق.

أعتقد أنني سأدس أصابعي في التراب، وأمسكُ الطرق والتلال بساعدي، وأهز البلدة، أنفض التراب عن أهلها وأوقظهم. كيف كانت تضيق علينا ذواتنا، عندما كنا في الخامسة عشرة، السابعة عشرة من أعمارنا، فنلكم الجدران ونرفس الأبواب؟ . . . إنني أحس الآن بقوة كتلك القوة.

لا تحسبنّ الطريق الدولي هذا عديم النفع تماماً، فلقد أدخل كلمة Restaurant[1] الفرنسية إلى قاموس البلدة. ثمة ثلاثة دكاكين طبخ، اثنان منها تحت الفندق، كلمة Restaurant مكتوبة عليها جميعاً. لكن في أحدهما حرف (n) وفي أخرى حرف (S) مكتوب بالمقلوب. الانكليز والألمان والأمريكان الذاهبون إلى إيران، أو الراجعون منها براً، إذا مروا في وسط البلدة، وكانوا جائعين، ورأوا كلمة Restaurant فلا بد من أن يوقفوا سياراتهم. لكن هذه السيارات لا تتوقف لتصرف نقوداً في مطعم أو في فندق، فلقد تلقن أصحابها دروساً من البلدان التي مروا بها، وفيها محلات مكتوب عليها Palace أو Restaurant . . لذلك تراهم يمرون بسرعة القذيفة، باستثناء أولئك الذين تتعطل سياراتهم فيتوقفون بالرغم عنهم. . . فإذا لم يكن الوقت شتاء، ناموا في سياراتهم.

ولهذا الطريق الدولي منفعة أخرى. أي شخص أتعرف عليه هنا، في يومي الأول، يمد يده إلى جيبه ويخرج منها سجائر أمريكية الصنع ويقدمها لي. الشبان يدوخون بالسجائر الامريكية، وفي حين أن الدكاكين تنتظر سائحاً يتوقف ليصرف شيئاً من النقود فيها يوقف الشبان السيارات ويشترون من السياح السجائر الامريكية. أرخص أنواع السجائر الامريكية يباع بأربعة أضعاف ثمن أغلى سجائر وطنية. أما

١ ـ مطعم.

تقديم السجائر الاميركية كضيافة، فشرحُه مختلف. الموظفون أيضاً يشتهونها، والشبان يبيعون السجائر التي يشترونها فيكسبون بها بعض النقود.

عابرو الطريق الدولي، ألماناً كانوا أم ايرانيين، يحملون معهم سجائر أمريكية، عندما كل منهم لوحده فإنه لايدخنها، يدخنونها عندما يكونون مجتمعين، إنها، في الغالب، سجائر ضيافة.

إن الذي أستطيع فهمه الان، هو أن الحضارة الاميركية أخذت تنتشر عبر سجائرها.

واحد من فندقيْ البلدة يقع في الساحة، والاخر يبعد ٥٠ ـ ٦٠ مترا عنها. لم أقتنع بفندق القصر السياحي، فنزلت في فندق القصر الجديد، الذي بدا لي أفضل. يتألف الفندق من أربع غرف في إحداها ستة أسرة، وفي اثنين منها أربعة أربعة، وفي الرابعة سريران. خصصوا لي الغرفة ذات السريرين، وهي أفضل غرفة في الفندق.

عندما دخلت المرحاض نسيت ما علي فعلُه، ولماذا دخلت، فاضطررت إلى الخروج منه. تمددت على السرير بثيابي، لم أستطع الثبات من هول رائحته. نزلت. في جوار الفندق، إلى أحد الجانبين مطعم، وإلى الجانب الاخر مقهى. رجوت صاحب الفندق الذي كان جالساً في المقهى، أن يبدل لي الشرشف وغطاء المخدة وغلاف اللحاف.

لي صديق نزل ذات مرة في فندق كبير في مركز محافظة كبيرة، طلب تبديل أغطية السرير، فقالوا له:

ـ يا سيد، لقد بدلناها في الأسبوع الفائت، إنها ما تزال نظيفة، لم ينم عليها سوى ثلاثة أشخاص.

أما أنا فلم يقل لي أحد شيئاً من هذا القبيل.

دخلت المكان المتفسخة جدرانُه من فرط ما تعاقب عليها المطر والحر، المعلقة فوقه قطعة خشب مدهونة بالأسود، ومكتوب عليها بالأبيض كلمة Restaurant . إنه أفضل المطاعم الثلاثة. الأرض الترابية ارتصبت من فرط دوس الأقدام عليها، حتى صارت كالاسمنت المسلح. غيّرت ثلاثة كراس حتى استطعتُ الجلوس دون أن أقع. إن سبب

ذلك يعود إما إلى كون الأرض محدبة ومقعرة، أو إلى كون الكراسي غير متساوية قوائمها في الطول. لم أستطع الجلوس على نحو سليم. لست أدري ما إذا كنت أكثر التدقيق في التفاصيل، ألأنه أول مكان أدخله؟

ست طاولات في المطعم، وسابعة طويلة للغاية. من يدري كم من السوائل والدهون شرشر فوق هذه الطاولات حتى غدت لامعة. مسح ولد الطاولة بقطعة قماش متسخة. اتجهت إلى المكان الذي فيه قُدور الطعام. القدور مفتوحة، والصحون مصففة في صفوف، وجميعها مغطى بقماش أسود مخرم.. حركت يدي، فطار الغطاء الأسود المخرم من تلقاء ذاته.. دهشت.. ألا يطلع ما حسبته غطاء أسود مخرماً، سرباً من الذباب؟ صرت داخل غمامة من الذباب.. لم أخرج من المطعم.. عيب. لكنني لم أذق الطعام، تظاهرت بأنني أتناوله. الماء الذي في الابريق المكسورة فُوْهَتُه، النابتة في قعره مجموعة من الأشنيات، وسخ هو الأخر، ولونه مائل إلى الأخضر.. ولئلا تلمس شفتي السفلى حافة الكأس، فقد أدخلت شفتي كلتيهما داخله وشربت.

بعد المطعم خرجت أتجول في البلدة. كان ثمة رجل أسمر نزل من سيارة وراح يشرح شيئاً ما لشرطي. كان واضحاً من حركات يديه أن له شكاية. وكان قد تحلق حولهما خمسة، عشرة أشخاص. دخلت فيهم لأستطلع الخبر، فبادرني رجل قصير القامة، في حوالي الخامسة والأربعين، شارباه مفتولان ورأساهما معقوفان إلى الأعلى:

ـ دائمًا تحصل يا بيك.. دائمًا تحصل..

وقد كان هو الرجل الذي رجوته أن يبدل لي أغطية السرير. سألته عما يجري فشرح لي:

ـ أبناء البلدة، وأبناء القرى المجاورة الواقعة على الطريق الدولي، يختبئون في الحقول ويرجمون السيارات بالحجارة.. دائمًا يحصل مثل هذه الحوادث. من النادر أن تمر سيارة على هذا الطريق، وتعبر الحدود، دون أن تصيبها الحجارة. وأحياناً يصاب بعض راكبيها في رأسه.

نظرت إلى سيارة الرجل الشاكي فوجدت الزجاج الذي بجوار السائق مكسوراً بضربة حجر. كان الرجل الأشقر يتكلم بالفرنسية، أما الشرطي فبالتركية، كان يقول:

- أين أجده لك يا هذا في طريق طوله بالكيلومترات، هل يمكنني معرفة الولد الذي رمى الحجر؟

كان الناس المزدحمون يضحكون بلا اكتراث، ذلك أن الحادثة تتكرر كثيراً.

مشيت مع الرجل ذي الشاربين الأسودين المعقوفين:

- عندما ترى رجلاً أسمر وامرأة شقراء في سيارة، فثقْ أن الرجل ايراني والمرأة ألمانية. مثل هذه السيارات يذهب دائمًا إلى ايران.. في حين لا ترى في السيارات العائدة منها، امرأة شقراء. من هذا الطريق، أو من غيره، لا أدري، يذهب الايرانيون إلى أوربة.. واضح أنهم يذهبون دون سيارات. الإثم على من روى الحديث، قالوا إنهم يأخذون معهم أشياء خفيفة الوزن غالية الثمن، يبيعونها في ألمانيا، ويشترون، على الفور، سيارة..، يلقفون امرأة ألمانية شقراء، ثم يقفلون عائدين إلى ايران. في كل يوم تمر عشرون إلى ثلاثين سيارة محملة بالفتيات الشقراوات.. الرجل الأسمر يحب المرأة الشقراء كثيرا ياسيد.. والمرأة الشقراء تحب الرجل الأسمر. من كثرة مايحملون من نساء ألمانيات إلى ايران، سيصبغون ايران باللون الأصفر. تهجين الأصفر مع الأسمر يعطي أطفالاً شقراً. قال شاه ايران، حسبما سمعت: ليُحْضِرْ كل شاب ايراني فتاة شقراء من أوربة!... أرأيت كيف يأتي بالحضارة الاوربية، يجلسها في حضنه، ويلقيها على ساعده؟... وعندما تقول (ايراني) فاعلم أنه يتكلم الألمانية مثل البلابل.

عدت مع الرجل ذي الشاربين المفتولين المعقوفين إلى الفندق. انه سطلمش بيك صاحب الفندق. جلده الأسمر عالق في عظامه.. تحسبه، عندما يمشي على ساقيه الرفيعين، يقفز قفزاً، تظن أنه طويل القامة مع أنه قصير.

كان سطلمش بيك أول من تعرفت عليه هنا، وقد زودني بمعلومات كثيرة عن البلدة، لن أرويها لك بكل تفاصيلها، سأدعك تتخيلها بنفسك.

يعيش في البلدة ١٩٨٠ نسمة، فإذا ما أضفنا سكان القرى التابعة لها يصبح العدد في حدود ٥٠٠٠ نسمة. في الجهة الجنوبية الغربية، المبنية على سهل واسع، تقع ترعة (القامشلك). بعد مضي حزيران تجف الترعة تاركةً مكانها لطعاً طينية. هذه اللطع

الطينية تفيد في إنتاج البعوض، ويسرح فيها حيوان البوفالو. في الشمال الشرقي قمة (الخضرلك).

أحاول أن أحب هذا المكان، وأحبه.. لوكانت لي حبيبة، وتلقيت منها إهانة، لحردت إلى هنا. إن ممارسة العشق مع هذه البلدة سيكون أكثر رومانتيكية.

أُنيرت مصابيح الكهرباء، فأصبح المكان أشد إظلاماً مما كان عليه من قبل، ذلك أن الانسان عندما تنار المصابيح، يتهيأ للضوء، أما هذه المصابيح التي توصوص مثل عين الميت، فلا تفيد إلا في توضيح معالم الظلام. تجولت في الطريق الرئيس الذي يمر في وسط البلدة عدة مرات. كان البعض قد أشعل (اللوكسات) فبدَتْ وجوه الناس المجتمعين تحتها، وهي مدلاة بلونها الأصفر، أكثر استطالة واتساخاً وشحوباً، مما هي عليه. كانوا متجمعين تحت اللوكسات يلعبون بالورق، وأنا أراهم عبر نافذة المقهى، يرفعون أيديهم إلى الأعلى ليخبطوا الورق على الطاولة.

عدت إلى الفندق لأكتب لك. لم أستطع أن أحدد، هل نظفوا غرفتي بالكاز، أم بالمازوت، أم بالد.د.ت كانت رائحة، وأية رائحة. فتحت النوافذ بغرض التهوية، ولولا أني رميت نفسي خارج الغرفة لاختنقت.

رجعت إلى المقهى فبادرني سطلمش بيك صاحب الفندق:

- بخختُ لك الغرفة بالد.د.ت، فلا قمل ولا فسفس. هذه الليلة ستنامون وترتاحون من عناء السفر.

كان النور ضعيفاً حتى أنني لم أستطع أن أكتب لك الرسالة في المقهى. سألت سطلمش بيك:

- هل النور ضعيف هكذا، دائمًا؟

- لا. بعد الساعة العاشرة يقوى التيار، تَوَّجُ المصابيح مثل الشمس، حتى أنك تضطر إلى ترفيف عينيك فلا تستطيع الإبصار. بعد قليل تغلق الدكاكين، ويطفيء الأهالي مصابيحهم وينامون، وعندها سترى النور.

في حدود الحادية عشرة والنصف، تنطفيء المصابيح وتوجُ بالتناوب ثلاث مرات. إنها علامة قطع التيار. -يظلم المكان، وعندها تُشعل مصابيح الكاز.

لكي أتخلص من هذا النور الميت خرجت إلى الزقاق . . كانت البلدة مضاءة بضوء القمر .

هل فهمت؟ أنا في مكان لا يختلف عن أية بلدة في وسط الأناضول . . إنها أشد بؤساً وحرماناً ومسكنة من كل البلدان التي رأيتها أو سمعت عنها .

زونُكْ زادَهْ إبراهيم بيك على لسان كل شخص . . الكل يحكي عنه ، ويروي عنه . . بعد كلمة (مرحبا) يباشرون الحديث . . زونُكْ زادَهْ عمل كذا وعمل كذا . سمعت باسمه من حين كنت في القطار . كان ثمة مسافرون في عربة القطار ، يتحرقون من الألم وهم يحكون ، لساعات طويلة عن ظلم زونُكْ زادَهْ وحقارة زونُكْ زادَهْ . لم أضجر من تحرقهم ولا من شروحهم المطولة . ما رووه كان عجيباً ، لا يُصدق ، ولدى نزولي في مركز المحافظة ، خلال الساعة التي استطعت تمضيتها فيها ، سمعت ، من هنا وهنالك ، بعض الحكايات عن إبراهيم بيك زونُكْ زادَهْ ، وكذلك في عربة البريد الصفراء ككناري ، طوال الطريق والأحاديث تدور حوله . الأمر المدهش هو أن المرء لا يضجر من سيرة هذا الرجل ، إنه كالأسطورة . لكن أسطورته سيئة ، دائماً يُهجى . . كل واحد يحكي عنه يبدأ هكذا (أرسل الله عليك البلاء ولاه ، زونُكْ زادَهْ . . أما كفانا مصائب حتى يظل عزرائيل بعيداً عنك؟) . اشتقت إلى رؤية هذا الرجل من فرط ما استمعت ، وأنا في الطريق ، إلى سيرته ؛ أكثر مما اشتقت إلى رؤية البلدة . ولكن ـ ويا للأسف ـ لم أتمكن من رؤيته . يقولون إنه الآن في أنقرة ، ويضيفون (سيأتي قريباً) . سأعمل على الاطلاع على حياة هذا الرجل ، الذي يتهيأ لي أنه سيكون بطل قصة ابتدأت الآن . . وحتى ولو لم أحاول الاطلاع عليها ، هم يطلعونني عليها من تلقاء أنفسهم . . ليس عندهم حديث يروى سواه . فلولا زونُكْ زادَهْ لما كانت البلدة ، ولا دكاكينها ولا بيوتها ، كانت ستظل خاوية تماماً . ولولاه لرأيت دواخل الناس هنا ، ورؤوسهم ، وحتى عينهم ، فارغة . . إبراهيم بيك زونُكْ زادَهْ يملأ ويحرك كل شيء ، في المقهى ، في الطريق ، في البيوت ، في كل مكان يحكى عنه .

نمت في الفندق دون أن أحس شيئاً من تفاصيل المكان . وفي صباح الأحد فتحت

عيني فوجدت الشرشف وغطاء المخدة وغلاف اللحاف قد بُدِّلت فعلاً ، لكن البديل لم يكن أقل اتساخاً من المبدل .

لكي أكتب لك هذه الرسالة نزلت إلى المقهى ، شربت الشاي مع سطلمش بيك صاحب الفندق الذي أحاول الآن فهم أوضاع البلدة منه . إنه يحدثني عن زونُكْ زادَهْ دائماً . من وجهة نظره ، ويبدو أنها صائبة ، هذه الناحية تعني زونُكْ زادَهْ فقط . . كان يردد خلال حديثه عبارة :

ـ بلدتنا منعزلة . . منعزلة .

أسأله :

ـ لماذا؟

فيقول :

ـ إنها بلدة التراب الميت المُذْرى . .

وهذه العبارة كنت سمعتها من رجل آخر وأنا في القطار . كان يصف محافظته المتروكة بلا عناية ، بلا صاحب ، بأنها (بلد التراب الميت المذرى) . . في البدء لم أفهم معنى العبارة . أما الآن فإني أحسها . . كيف المقبرة إذا لم يكن فيها أحد تظل صامتة . . عندما يقولون عن بلدتهم إنها (بلدة التراب الميت المُذْرى) فإنهم يقصدون أن بلدتهم تشبه المقبرة . نقلتُ إلى سطلمش بيك العبارة التي سمعتها من الرجل في القطار . قلت :

ـ إنهم يقولون عن ذلك البلد أيضاً إنه ميت التربة مُذراها .

فسحب من داخله آهاً ، وقال :

ـ هذا أيضاً يريدون أخذه منا . لو تجولت في هذه المنطقة لوجدت الناس في كل مكان يقولون عن بلدهم إنه (بلد التراب الميت المذرى) كذابون! أصل البلد ذي التراب الميت المذرى هنا ، مستحيل أن يكون غيره .

ـ لماذا؟

ـ عندما كنت طفلاً قالت لي المرحومة أمي (يا ولد يا ولد . . هذه بلدة التراب الميت المذرى . . انظر إلى هذا المرتفع ، أجدادنا وضعوا المقبرة في أعلاه . إنه مكان حسن

التهوية. تحت الخضرلك مباشرة توجد المقبرة.. يأتي السيل فيضرب تراب القبور ويذرّه على البلدة.. هل فهمت لماذا هو مكان التراب الميت المذرى؟

أحزنني كلام سطلمش بيك. نظرت من خلال نافذة المقهى فرأيت التلال ذات التراب الميت المذرى.

البريد يصل مرتين في الأسبوع، السبت والخميس.. الجريدة تصل في هذين اليومين. أستطيع قراءة صحف اسطنبول بعد أربعة أيام من صدورها. آخذ ثلاث صحف يوم السبت وأربع صحف يوم الخميس. وهم يسمون يوم البريد يوم الجرايد. لا تصل أية مجلة إلى محل بيع الصحف. سأرسل اشتراكاً.

إذا قلت لك إنني أحببت هذا المكان كثيراً، صدقني. أعتقد أنني سأنجح في كثير من الأعمال. اليوم سأتمشى في البلدة. نصف ساعة من التجوال تغطي البلدة، لكني سأطلع إلى الخضرلك.

أقبل عينيك. وأتمنى لك السعادة.

وثيقة هَبَل

ما رواه الشيخ بدر الفهمان:

آه يا ولدي. معلاقنا احترق.. وهل ثمة ما لم نذقه من الواطي زونُك زادهْ؟ لقد اعتبرنا حميراً، وركبنا دون أرسان، دون برادع. لا، ليس هكذا، لئلا نظلمه، نحن الذين حملناه من ساعديه وساقيه، وأركبناه على ظهورنا، بالرغم عنه. الحمار، ورغم كونه حماراً، يرفع رأسه ويبيّسه، يرفس، يضرب بالزوج.. ونحن، حتى هذا لم نفعله، بالرغم من كوننا بشراً.

من أين أبدأ القول..

اقترب أوان انتخابات البلدية. بدأت المعارضة تغلي. لم يُظهروا لنا ذلك وجهاً لوجه، لكنهم كانوا يضللون الناس من تحت لتحت. اجتمعت مع الاصدقاء بقصد التشاور. في البدء كنا سنجتمع في قيادة الفرقة الحزبية.. لكن، عندما قال رضا بيك (أنا موظف، ويجب أن أظل محايداً.. لا أستطيع الذهاب إلى قيادة الفرقة)، اجتمعنا في مقر البلدية. حضر الجميع إلا أمين أفندي التاجر. انتظرناه طويلاً، لم يأت.. هو الذي اقترح عقد الاجتماع، وهو الذي قال (المعارضون ثخنوها، فإذا لم نكسر ظهورهم فسيربحون جولة الانتخابات).. ما دام الأمر كذلك، لماذا لم يأت؟ أرسلنا إلى بيته، لم نجده، خرج منذ الضحى، إلى رابطة المعلمين، لم ير بها أبداً، في المقاهي، في المستوصف.. ليس موجوداً. الكافر، غير موجود في مكان.. في بلدة بحجم الكف، أصبح العثور عليه مستحيلاً. قال إحسان أفندي الصف ضابط:

ـ لا بد أنه يتصابى، يلاحق الفتيات.. لنبدأ بدونه.

لكوني رئيس فرقة الحزب، كان علي أن أفتتح الجلسة. نظرت إلى حمزة بيك جفتقران أوغلو، فإذا الدم غائر من وجهه، كالميت؛ خائف من أن يطير منه منصب

رئاسة البلدية. عندما تقترب انتخابات البلدية، يتلخبط نظام حزبنا بالكامل، قل إن نظامنا مثل المسننات المتعشقة مع بعضها، تعطل أحدها، تعطلت جميعها. . أي طرف من الأطراف يؤثر علينا. بدأت الحديث:

ـ أيها الأصدقاء. الانتخابات ـ كما تعلمون ـ اقتربت. . وسيفصل الخروف الأسود عن الخروف الأبيض. . يجب أن نترك خلافاتنا ونرفع الدفاتر القديمة على الرف. . البغال، مع أنها بغال، ترى الوحش قادماً فتتحد وتكر عليه. هذا أوان اتحادنا. إذا عرف المعارضون، أعداء الوطن والأمة والدين، ما بيننا من ترافُس، وتبادل العراقيل، فإنهم سيبطحوننا أرضاً، وينتفون ريشنا! إننا نجتمع في هذا المكان الآن من أجل تكسير أذرع ورقاب المعارضين، وتقطيش آذانهم، قبل الانتخابات.

كان سبب ما قلته هذا يعود إلى أن إحسان أفندي الصف ضابط ينوي انتزاع رئاسة البلدية من يد حمزة بيك جفتفران أوغلو. فإذا ما وقعنا في دوامة الأنا والأنت، نكون قد دهنا خبز المعارضة بالزيت.

وإنه لأمر بسيط. نضع لحسة عسل في فم إحسان أفندي الصف ضابط فيسكت. ومثلما كنا متفقين، أعطيت الإشارة إلى جفتفران أوغلو، فبدأ الكلام:

ـ أيها الأصدقاء. . نحن جميعاً أخوة. العمل الحزبي ليس لعبة نلعبها. إنه لا يُشبَّهُ بأي عمل آخر. يستطيع الانسان استشعار الشهامة عند رفيق الدرب أولاً، وعند رفيق القمار ثانياً، وفي جلسات اللهو والشراب ثالثاً، وفي الصداقة الحزبية أخيراً. . أيها الأصدقاء. ليس بيني وبين صديقنا المحترم إحسان أفندي الصف ضابط أي خلاف. إنه أكثر مناسبةً مني لمنصب رئاسة البلدية. . أنا أعرف حدودي. . رئاسة البلدية بوجوده لا تقع علي. . صار هو، صرت أنا، لا فرق. . فإذا صرت أنا، فسأكون في خدمته وخدمة الأصدقاء.

أرأيت إلى تعثر جفتفران أوغلو؟ ولَكْ أنا هكذا علمتك؟ ألم أحفظك ما يجب أن تقوله كلمة كلمة؟. . تفو. ماذا يعني (ليس بيني وبين إحسان أفندي الصف ضابط أيُّ خلاف)؟ أليس هذا يعني (من أجل عبور الجسر أقول للدبّ ياخال؛ فاتركوني في رئاسة البلدية حتى ألعن أمه)؟ أكان يجب أن تُذكر كلمةُ خلاف ملاف. عندما ترى هنا المحبة

والتقدير في غير مكانهما، فاعلم، وكلنا يعلم، أن هناك لعبة من ألعاب (علي جنكيز) تدبرُ، وأن خازوقاً، لأحد ما، يُنَجَّرُ. هل بقي عند هذا السافل حمزة جفتفران أوغلو عقل؟ لقد جن من خوفه من ضياع منصب رئاسة البلدية من يده. . إذا خسر رئاسة البلدية، واستلمها إحسان أفندي الصف ضابط فسينشره في الأسواق، أو يعلق مشنقته، الأمر عائد لوجدانه حصراً.

عندما قال حمزة بيك قوله، أحس إحسان أفندي الصف ضابط بالخطر، فَشَنَّكَ أذنيه ككلب سلوقي، تمثل بابليس وقال:

ـ لاه يا خيّ. . كيف. ماذا يعني هذا؟ إذا كنت أنت موجوداً، فهل تقع عليّ رئاسة. . أستغفر الله. لم تخطر الرئاسة ببالي أبداً.

وإذ ذاك فهمت. كان كل منهما يلعب على الآخر، فلنر من سيغلب. بدأوا بالتدافع، لا، أنا لا أصير الرئيس، أنت تصير، لا . . .

ـ العفو العفو، لا يجوز، عندما تكون أنت موجوداً، لا تقع علي رئاسة، ولا بحال من الأحوال.

ـ أنا بجانبك، والله مستحيل، لا أقبل. . وأنت في القمة، ماذا يعني؟. . بعد كل سنوات الخدمة هذه؟

ـ الله الله. . ومن أنا؟ إن اسمي لا يقرأ بجوار اسمك يا خيّ.

ـ كفى بالله عليك. . لو أموت أحسن. .

طفح الدم في رأس رضا بيك كاتب القائمقام، فصرخ بهم:

ـ ولاه! قوادين!. . انظر. إليهم. وكأنهم ربحوا الانتخابات فقام أحدهم يعزم الآخر على الرئاسة. . هيه، يا مجانين، ما هذا الشيء الذي يدفعه أحدكم للآخر؟ هل في رؤوسكم عقول. لم يبق، من أجل أن يكرم أحدكم الآخر برئاسة البلدية، غير أن تتشاحنوا وتنزلوا إلى المصارعة. . أنا موظف حكومة، وقفت طويلاً لا أتدخل في أعمالكم، لكنكم فقعتموني!

كانت فقعة رضا بيك مناسبة. استطاع كل من جفتفران أوغلو وإحسان الصف ضابط أن يلملم نفسه، مستفيداً من فترة الصمت. ثم سرعان ما دخلا في لعبة جديدة.

قال حمزة بيك:

ـ صحيح. وهل بيننا كلفة.. إذا صرت أنا أوصرت أنت.. كلها واحد. القضية الحقيقية هي قضية الانتخابات.. لندخل في موضوع الانتخابات.. ما قولك يا إحسان أفندي؟

رفع احسان أفندي مؤخرته عن الكرسي آخذاً إياها تحت فخذه الآخر، وقال:

ـ إذا سألتموني..

وسكت.

ـ نعم.. إذا سألناك؟

ـ لكن ما سأقوله سيظل هنا.

ـ بالتأكيد.

ـ إذا سألتموني فسأقول إننا بحاجة إلى تنظيف داخلنا. ما قولكم؟ في حزبنا ثمة جرثومة، إذا لم نستأصلها فلن يعطينا أحد صوته. أليس كذلك؟

وأدار بصره نحوي. وهل هذا وقت توجيه هكذا سؤال إلي؟ يا رب.. ماذا أقول.. عديم الناموس الذي يجب أن يُنظَّفَ الحزبُ منه، معروف.. لكن تعال، وسط كل هؤلاء الناس، كيف يمكن لفظ اسمه؟ كل واحد يعرف الجرثومة التي فينا، لكن هل تجدُ طريقة تلفظُ بها اسمه. لو قيل إنه زوبُكْ زادَهْ، ووصلت إلى مسمعيه، ألا يقطع حيلنا. الكل ينظر إلي، هل سأتفوه باسم الجرثومة التي يجب تطهير الحزب منها. بسرعة أدرت الحديث إلى السياسة. قلت:

ـ صحيح. لقد آن أوان فرز الجيد عن الرديء، بل قل إنه فات.. إن أذى الرديء ليصيب الأقاليم السبعة.

والتفتُ إلى سطلمش بيك وقلت:

ـ ما قولك أخي سطلمش بيك؟

وبهذا أنزلت الحمل عن ظهري. شد سطلمش بيك في الطلوع وكأنه ثور ضخم.. وأخذ أنفه يسح:

ـ ماذا يقال في كلام الحق؟ يقال إنه حق.. ثمة علة فينا، كلام الحق: إذا لم يطرد هذا الرجل من حزبنا، لا يمكن أن نربح الانتخابات.

قالها واستدار ناحية جاره، سأله:

ـ ما قولك مرتضى أفندي؟

فأنزل البلاء عن كاهله. قال مرتضى أفندي سلمه الله:

ـ مناسب.

والتفت إلى إسماعيل أفندي عبد الله:

ـ أليس كذلك؟

كلنا متفقون على أن ثمة، في حزبنا، عديم ناموس يتوجب طرده.. لكن ليس بيننا من يستطيع ذكر اسمه السيء.. ليس في قلب انساننا شجاعة.. ولك ما المخيف؟ الفظوا اسمه.. تفو.. جبناء! كل واحد يسأل جاره (أليس كذلك؟)، (ما قولك؟).. فينزل الحمل عن كاهله.

وما أن وصلت إلي، بعدما قال احسان أفندي الخربان: (ما رأيك؟ أنت رئيس حزبنا.. وبما أنك شيْخ، وفهمان!..)، حتى انصفقت فردة الباب على آخرها، وانقذف (جليل المجنون) إلى الداخل كرصاصة أزت من سبطانة بندقية، وهو يصرخ:

ـ مَنْ صاحب هذه البلدة؟ ألا يوجد من يسأل أو يتدخل في شؤونها؟ ولاك.. إذا لم يكن لها صاحب، فلتتزنرْ بسلاحنا ونطلع إلى الجبل. في السابق كان قطاع الطرق. قطاع الطرق الآن نزلوا إلى المدن، وراحوا ينقبون في كتب القانون، يشلِّحون الناس بالقانون. أين حكومة هذه البلدة؟ أين الكافر المسمى رئيس البلدية؟ أين هذا الذي سأطير لحيته، الشيخ الفهمان؟ ولاك.. حزبكم وبلديتكم..

جن جليل المجنون عن حق، ولم يقف أحد في وجهه، جحظت عيناه كالفناجين، ورغى الزبد على فمه.. لو تفوه أحد منا بكلمة لقابضه على رصاصة.. سيحيلنا إلى (كفكير)[1].. لم يبق أحد منا لم يتلق منه شتيمة.. وإذ فرغ من شتمنا، ارتخى بدنه.

١ ـ أداة تشبه ملعقة كبيرة، مخرمة، تستعمل في سكب الرز. المترجم.

ولأن رضا بيك رجل حكومة، وطرفاً من الحديث يمس الحكومة، فقد قال:

ـ هُشْتْ.. ولك ابني جليل أفندي.. كيف تقول هذا الكلام؟.. لماذا تدخل الحكومة في الموضوع.. احك لنا، ما الأمر؟

الكل هنا يحترم رضا بيك. قال قوله، فأجابه جليل المجنون:

ـ ليس عندي أي كلام ضد حكومتنا يا عمي رضا بيك..

وانفلت بالبكاء. رجل، هذا القد قده، ويبكي. عيناه كنبعي ماء، يكاد يختنق.

ـ لاه.. يا خيّ، طيب ماذا حصل. احك لنا!

فراح يحكي ويبكي.. أرادت زوجته أن تصنع (يوفكا)[1]، فقالت له (ليس عندنا ما نوقده في التنور، رح دبر لنا حمل حمار من الشروش التي نقتلعها من الجبل).. ساق جليل المجنون حماره قدامه، وخرج عند الضحى.. وإذ وصل أطراف الخضرلك صادفه نوري الأعمى..

ـ في البدء، لم أكن أعرف أنه نوري الأعمى.. أنتم أيضاً، لو رأيتموه لما عرفتموه.. لقد انقلب إلى شيطان، يرتدي بنطلوناً عريضاً من فوق، رفيعاً من تحت، مصنوعاً من قماش خشن.. طويلاً يجرجره وراءه.. وسترة عسكرية قديمة، وعلى رأسه يضع قبوعاً طويلاً مدبب الرأس.. على صدره تصالبت صفوف الطلقات، والبندقية على كتفه.. الله الله.. أمامي رجل بهذه الهيبة، تلخبطت.. إذا قلت إنه جندرمة، لا يشبههم، أو قلت قاطع طريق، كذلك لا يشبههم. لم أجد فرصة لأقول يا هوه، ما هذا البلاء، حتى كانت السبطانة موجهة إلى صدري، وصوت يزعق بي (قف)! انحلت ركبتاي. بعد صيحة (قف)، هل بقي عندي عزم على المشي؟ وقفت، لكن الحمار لم يقف. صحت بالحمار (هيش.. هيش..) فصاح الرجل الذي يشبه الجني (أنا من قوات الحكومة.. لمن تقول هيش؟) فقلت (دخيلك، أستغفر الله ياغا، ياباشا.. حاشى أن أقولها في حضرتكم.. لقد قلتها للحمار).. (أنت تتذرع بالحمار!..).. (التوبة. كلامي للحمار)

١ ـ شرائح عجين. تشوى في التنور وتصنع منها بعض المأكولات. المترجم.

وأقسمت على ذلك. اقتربت خطوة خطوة، نظرت، أليس هذا نوري الأعمى؟ قلت (ولاه، منفاخ الكور، أعمى.. الآن أيقنت أنك رجل.. لقد خوفتني. السلام عليكم!) فقال (دع السلامات وناولني خمسينية) ظننت أنه يمزح، فقلت (خمسينية ماذا أعمى؟.. ما هذا المزاح؟) ألا يسند السبطانة إلى صدري؟ (دخليك يا نوري أفندي) (اطلع بخمسينية).. (ياهوه. أنا عمك جليل. ألم تعرفني؟) (هذا مكان عمل وظيفي. العمل شيء والمعرفة شيء آخر. لا توجد معرفة وأنا على رأس عملي.. أنا الآن لا أعرفك). (رحماك يا نوري أفندي، يا خيّ، رحماك يا ابني، يا نوري أفندي) (لا أعرفك، لو جاء أبي وأنا على رأس عملي، ألا أعرفه) (طيب، ما هذا؟ وظيفة ماذا هذه؟.. أنت عسكري في أية عصابة حتى تعمل في رأس الجبل؟) (أنا اليوم من قوات الحكومة). ما توصلت إليه هو أن نوري، المبيض المسكين قد جن. لقد أُطلق عليّ لقبي عبثاً. الجنون هكذا. لكن، عندما يكون في يد الرجل بندقية، ما نفع جنوني؟ (فهمت. واضح أنك تعمل في قوات الحكومة.. عرفت هذا من أول نظرة. لكن من أية قوات للحكومة أنت؟) (أنا من فصيل حماية الغابات). كنت سأضحك، لكن، والسبطانة في صدري، تماسكت. (طيب يا أخي، عال، لقد أعجبت من كونك تعمل في قوات حماية الغابات.. لكن، ما دمت جاهزاً، وسلاحك في يدك، لماذا لا تذهب إلى بلد فيه غابات فتحميها؟ نحن، مذ وعينا، لم نر شجرة، ناهيك عن غابة..) فغضب وكاد يضغط على الزناد ليفرغ البندقية في صدري. فإذا الغابات لاتتشكل هنا، بسببنا: نحفر، نستخرج الجذور وإذ نستخرج الجذور من الأرض، كيف ينبت الشجر؟ حكى حكى حكى.. وكأنه من قوات حماية الغابات بحق وحقيق. بلى، نحن سمعنا بوجود قوات الحماية الغابات، لكننا نعرف أنها مخصصة للبلاد التي فيها غابات.. نحن مذ وجدنا هنا لم نر غابات، ولا قوات حمايتها. حكى حكى.. ثم قال (اطلع خمسينية) (نقود ماذا ياسيدي؟) (لقد نظمت بحقك مخالفة بخمسين ليرة) (مخالفة ماذا يا ابني؟) (أنت لا تستطيع أن تقول لقوات الحكومة، ولا في أي وقت من الأوقات ـ يا ابني ـ لو كانت مع غيري لكتبك مخالفة أخرى بخمسين ليرة.. هات الخمسينية!) (وما الذنب؟) (الذنب قطع الأشجار من الغابات).. أتحب أن تكون قاتلاً أم قتيلاً؟ قاتلاً طبعاً. البندقية في

يده . . قلت (فأين الغابة، وأين الشجر حتى أقطعه؟) (هاهي فأسك، وهاهي بلطتك . . واضحة، طالع لتقتلع الجذور) (لم نقتلع شيئاً يا موظف الغابات . لو كنت اقتلعتُ شيئاً لكان حقك) (كنت تنوي اقتلاعها) . انظر إلى هذه التنّوي . . (لو لم أكن هنا لكنتَ اقتلعتها . هات خمسينية!) (التوبة . لم أكن أنوي اقتلاع الجذور) (لماذا البلطة إذن؟) (كنت أريد أخذ بعض الأشواك . . أختك تريد أن تحمي التنور لتصنع يوفكا . . فقلت آخذ لها بعض الأشواك) . . (لقد ازداد الأمر سوءاً، مخالفة قطع الأشواك بخمس وستين ليرة . . اطلع بالنقود! . .) .

هل رأيتم مثيله؟ لم نقطع شوكاً ولم نقتلع جذوراً، وليس معي نقود، ورجل لا يحتمل مزاجاً . أسند البندقية وشلحني . طلع معي خمس ليرات . أخذها وقال :

ـ إذا رأيتك هنا مرة ثانية فسآخذ الحمار . هذه المرة كفاية .

جليل المجنون يحكي ويبكي ، انبهتنا . لا شك في أن مبيض الأواني نوري الأعمى قد جن . قال رضا بيك :

ـ إي يا خيّ . أهذا هو همك؟

إنك تسب وتلعن بدلاً من أن تحزن وتتألم على نوري الأعمى . نقودك نستردها لك . لقد ذهب عقل المسكين . . واخ واخ . .

قال جليل المجنون :

ـ لقد نزل نوري الأعمى إلى البلدة، وهو الآن في المقهى .

بسرعة أرسلنا في طلب نوري الأعمى . جاء . . الله يعلم أنه قد جن . لباسه، مثلما وصفه جليل المجنون، لباس عجيب يشبه لباس العسكر الانكشارية، أو الدرك العثمانلية، أو قطاع الطرق . . وبندقية على كتفه . . سأله رضا بيك :

ـ ما هذا ولاه؟ هل عينت نفسك حامياً للجبل على رؤوسنا؟

ـ بوصايتكم صرت موظفاً في حماية الغابات .

المسكين . عنده خضة في عقله

ـ هذا يعني أنك عينت في حماية الغابات؟ عال ومن الذي عينك فيها؟

ـ رضوان الله عليه . . أمد الله في عمره، وحماه من الشرور والبلاوي، سيدنا إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ . . لقد حنّ علي وعينني في حماية الغابات .

صحونا قليلاً . مارسنا عليه شيئاً من الضغط ففهمنا منه الموضوع . نحن نعرف، من قبل، أن نوري الأعمى ، حتى يخلّص دكانه من الاستملاك، أعطى نقوداً لزوبُكْ زَادَهْ . . وعندما تم استملاك الدكان، هجم على زوبُكْ زَادَهْ صائحاً (إما نقودي أو روحك . .) فقال له زوبُكْ (لقد بلع جماعة البلدية نقودك . . لكن أنا أحبك، وسأعطيك أكثر منها . . أخرجَ المحفظة التي في الجيب الداخلي من تلك الجاكيت المعلقة على المسمار، وخذ منها ألف ليرة . لكن الألف ليرة ماذا تعمل؟ تمضي أيام قليلة، وتجوع . . سأسدي لك معروفاً، ومن جهتك، أُدْعُ لي . . سأدبر لك عملاً دائماً، ألا تريد أن تصبح موظفاً؟) من فرحه نوري الأعمى فتح عينه العمياء . سمع بالوظيفة فوقع على قدمي زوبُكْ زَادَهْ . قال زوبُكْ زَادَهْ (ما دام هكذا فسأعينك موظفاً في حماية الغابات . . تعال أكتب لك طلباً!) . كتب له الطلب . ولأن نوري الأعمى لا يقرأ ولا يكتب، فقد بصم بإصبعه على الطلب . قال زوبُكْ زَادَهْ (رُحْ الآن شف كيفك) . . وراح نوري الأعمى وجاء، اليوم غداً، واليوم غداً . . لم يرد تعيينه . فقال له (إذا لم أذهب إلى أنقرة فلن يتم العمل) . باع نوري الأعمى ما تبقى من دكانه، ووضع خرجية الطريق على الرف في بيت زوبُكْ زَادَهْ . خاف أن يغضب إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ من تقديمه النقود له، فيُقلع عن تعيينه . وعندما عاد من أنقرة قال له (ولاه . . أعمى . . شغلتك انحلّت . . صدر قرار تعيينك . أرغمت وزير الزراعة على توقيع الطلب إرغاماً . . . وقبل أن أغادر مكتبه، أرسلوها بالبريد . اذهب الآن بسرعة، استحصل على لباس موظف حماية الغابات، وقِفْ عند الخضرلك، وكل من تراه ذاهباً لاقتلاع جذور أو أشواك، اقطع له مخالفة) . . ولما قال نوري الأعمى (دخيلك، لربما حصل شيء؟) زعق به (شوفوا الكلب . . ما يزال واقفاً . . حضرة الوزير قال بالحرف : ليباشر العمل فوراً . . سأحول كل تلك المنطقة إلى غابة!) وكما أفهمه زوبُكْ زَادَهْ، أسرع نوري الأعمى إلى مركز المحافظة، اشترى ألبسة عسكرية قديمة، علق في كتفه بندقية، وطلع إلى الخضرلك . . صار يأخذ من المارين، ليس ضريبة، لكن قل : خُوَّة!

وعقب نوري الأعمى :

ـ اليوم أو غداً يرد تعييني . . إنه في البريد .

سأله رضا بيك :

ـ وكم هو راتبك؟

ـ لا يوجد راتب الآن . سيدفعون لي العِشْر . . سآخذ عشرة بالمائة مما أجبيه من تنظيم المخالفات .

ـ والباقي؟

فكر نوري الأعمى قليلاً . . إنه لم يفكر بهذا من قبل :

ـ إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ يعرف . . اسألوه .

أخرجنا نوري الأعمى وجليل المجنون، وبدأنا بتقليب الأمور . قال إحسان أفندي الصف ضابط :

ـ أصبح كل شيء واضحاً . . الجرثومة التي في حزبنا أصبحت مرئية .

ثم هاج الجميع :

ـ ما دام فاقد الناموس زوبُكْ زَادَهْ في حزبنا فلن نحصل على صوت واحد . . أليس كذلك يا شباب؟

ـ بلى . أنا، رغم كوني أنا، تفّ علي إذا كنت سأعطي صوتي لحزبنا . . لقد مرغ هذا الرجل اسم الحزب .

ـ بسبب هذا العديم الأخلاق توسخنا جميعاً . يجب علينا الآن أن نكتب إلى المركز، نشرح كل شيء، ونطرده من صفوف الحزب . يا ناس، ما هذا الذي نذوقه منه . . رجل بمفرده يصبح دولة . . يعين من يشاء في الغابات، ويعين من يشاء محافظاً . . ما هذا، هل نحن أموات؟

وبينما نحن نتداول أطراف الحديث، انتبهت إلى أن احسان أفندي الصف ضابط غير موجود . . لقد خرج في زحمة النقاش . احسان أفندي الصف ضابط يدبر مقلباً . لكن ما هو؟ وكذلك غياب أمين أفندي التاجر، يعني أن ثمة لعبة دنيئة يُعَدُّ لها من وراء ظهورنا . قال مرتضى أفندي سلمه الله :

ـ الكلام عند قادر أفندي . إنه يعمل طيلة هذه السنوات في المعارضة، في هذه البلدة، وقد انضم إلينا أخيراً . . إنه يفهم جوهر المعارضة . ما رأيك يا قادر أفندي، هل نفوز في انتخابات البلدية، أم لا؟

فقال قادر أفندي :

ـ ما دمتم سألتم فلأُجِبْ . لو جمعتم الآن مواطني البلدة كلهم، وسألتموهم : من منكم معارض؟ لما ظهر منهم واحد . . إفهمْ إذن أنهم، دون استثناء، معارضون . في هذه الأيام يبدو وكأن البلدة خالية من معارض واحد . وطالما أن هذا هو البادي، فاعلم أنهم معارضون جميعاً . ما أُدركه هو أنه عندما يتناقص عدد المعارضين، يكون حزب الأغلبية قد انتهى . ألا تدركون هذا من ضمائركم . . أليس لكل واحد منكم عقيدة يحملها في داخله سراً؟ لا تزعلوا، مثلاً، إذا صادفنا إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ، فهل نقف في وجهه؟ . . أنت كذا، أنت كذا، وننبطح أمامه . ماذا يعني هذا؟ يعني أننا نريد إغراقه في ملعقة ماء . . الوضع الراهن يتطابق مع هذا الحساب . . فلتأت الانتخابات، ولنرا . .

سأله حمزة بيك جفتفران أوغلو:

ـ وما الذي ينبغي فعله؟

ـ ما ينبغي أن يفعل هو ما قاله احسان أفندي الصف ضابط قبل هنيهة . إلى أين ذهب؟ لقد قدم لنا مشورته وهرب . . ما ينبغي فعله هو طرد هذا الصَّرَع زوبُكْ زَادَهْ من الحزب . . يجب أن نلبسه كل الذنوب والأخطاء التي ارتُكبت، ومن ثم نطرده . هذا هو الصواب .

قال رضا بيك :

ـ يجب أن نسارع إلى إخبار القائمقام بموضوع حماية الغابات . . هيه هيه . . إذا كان القائمقام مأذوناً، فأنا أنوب عنه . .

ـ وماذا تفعل في مثل هذه الحالة، رضا بيك؟

ـ ماذا أفعل يعني ؟ أكتب محضراً، وإلى القضاء فوراً، مع مذكرة توقيف .

ـ دخيل عرضك، ما دام هكذا فإلى القائمقام بسرعة .

كلفنا بهذه المهمة صاحب الفندق سطلمش بيك واسماعيل أفندي عبد الله. ذهبا إلى القائمقام ليقدما له الإخبار.. وبينما نحن نتحدث مع بعض، أخذ الجو يعتم.. بدأنا بإعداد مذكرة إلى أنقرة، نشكو فيها من زويُكْ زَادَهْ.. إما أن يَطرد المركز هذا الرجل من الحزب أو يطردنا جميعاً. وجود زويُكْ زَادَهْ في الحزب يمس شرفنا، وما دام في الحزب فلن نربح أية جولة انتخابية.

عاد سطلمش بيك واسماعيل أفندي.

ـ بهذه السرعة؟

ـ لا تسأل يا خي. عندما يعتم الجو يذهب عقل القائمقام. وصلنا إلى عند حضرته.. لم نذكر اسم زويُكْ زَادَهْ.. لم أقل غير (زُ..) حتى تجمد الكلام في حلقي.. لقد بدأ ينتف شعره ويضرب نفسه وينوح (آخ يا رأسي.. آخ يا رأسي.. من جديد زويُكْ؟ من جديد؟ يا أنتم، ألا تعرفون كلمة غيرها.. سئمت من زويُكُكُمْ..) رجل لا يعرف السكوت. يا ساترا كيف جلس القرفصاء وراح ينتحب.. كان يشوح وينوح (واه.. لقد احترقت في أطراف الجبال هذه.. راح شبابي سدى.. خربت..).

ـ وماذا فعلتما؟

ـ لا شيء. تركناه وعدنا.

ـ عال! اجلسوا لنجمع الأدلة التي تدين زويُكْ زَادَهْ.

وهل الأدلة التي تدين زويُكْ زاده تنتهي؟ إنها تملأ الصفحات.

وفجأة يدخل أمين أفندي التاجر.

ـ ولك أين أنت يا أمين أفندي؟ أليس اليوم موعد اجتماعنا؟ ألم تكن أنت أول من دعا إليه؟

كان أمين أفندي مرهقاً، كما لو أنه حمل من الحطب حمولة خمسة حمير. قال:

ـ لا تعرفون ما حدث.. إنكم لا تقومون إلا بأعمال المجانين.. ليس بينكم من يسأل أين كنتَ، ما الذي جرى على رأسك؟

ـ ماذا حدث؟

ـ ماذا يصح بعدها؟ أنتم مجتمعون هنا.. أين إبراهيم بيك زويُكْ زَادَهْ؟ هل

حصل أن عُقد اجتماع حزبي، ولم يحضره زويُكْ زَادَهْ؟ لماذا هو اليوم غائب؟ قولوا لي: لماذا هو غائب؟

نظر كل منا في وجوه الآخرين.. بلى، لم يحصل أن يغيب زويُكْ زَادَهْ عن اجتماع حزبي.. لو طردته لعاد. قال أمين أفندي التاجر:

ـ أين أنتم وأين العمل الحزبي.. هل بينكم من فكر في سبب غياب زويُكْ زَادَهْ؟

ـ قل بسرعة رجاء، ماذا حصل؟

ـ لقد قدم ابراهيم بيك استقالته من حزبنا. أما سمعتم؟

ـ ماذا؟ لا تقلها رجاء..

ـ بلى. استقال.. أنا أخذت الخبر بالسر..، ثم ذهبت إليه، قلت آخذ منه بعض الكلام. انتفخ معلاقي منذ الصباح، حتى آخذ منه كلمة.. لكن عبثاً.

قال حمزة بيك جفتفران أوغلو:

ـ هكذا مليح.. طلب الأعمى من ربه عيناً، فأعطاه اثنتين.. كنا نفكر في كيف نطرده من الحزب، فترك من تلقاء نفسه.

علا صوت:

ـ أهذا إلهامُك؟

نظرنا وإذا هو إحسان أفندي الصف ضابط متى عاد؟ زمق خارجاً وزمق داخلاً..

لا بد من وجود تتييسة.. ولكن ماهي؟

قال أمين أفندي التاجر:

ـ أيها الأصدقاء.. أنا لن أشرح لكم شيئاً عن زبك زادة، فأنتم تعرفونه أكثر مما أعرفه.. هذا الرجل لا يستقيل من الحزب هكذا، عبثاً.. هذا العديم الناموس الذي يلعَب السنونو على يده، هل يستقيل من الحزب دون مكاسب؟

قال سطلمش بيك:

ـ لابد وأن في الأمر شيطنة.

وسأل إحسان أفندي الصف ضابط:

ـ ألم يأت زويُكْ زَادَهْ البارحة من أنقرة؟

- بلى أتى ومعه قرار تعيين نوري الأعمى في حراسة الغابات.

- بلى. لقد رجع من أنقرة لتوه..، ويقول إنه سيستقيل من الحزب. لماذا؟ وما الغامض في هذا؟ إن هذا يعني أن الحزب قد بدأ ينهار. لقد ذهب زوبُكْ زادَهْ، علم بهذا، فعاد وهو ينوي أن يستقيل قبلنا جميعاً، حتى يرتب أموره في الحزب الآخر..

فقال احسان أفندي الصف ضابط:

- إذا صار ما صار، فإنه يصير هكذا.. لا يمكن أن يستقيل في غير هذه الظروف.. لم يبق في هذا الحزب خير، لو كانت عليّ لقلت إنني مستقيل وخالص من هذه الفوضى منذ البارحة.

قال مرتضى أفندي:

- دعوا هذا وذاك.. قعود وتفكير هكذا لا يكفي.. ما قولكم، تعالوا نذهب إلى زوبُكْ زادَهْ، طالما أنه عائد من أنقرة لتوه، لنعرف حقيقة الأمر منه.. هل حقاً سينهار الحزب؟ فإذا طلع صحيحاً، نتصرف على أساسه.

- نعم. يجب علينا أن نذهب إلى زوبُكْ، ونأخذ من فمه الخبر الجميل!

القرار قرار. ذهبنا إلى زوبُكْ زادَهْ. لو كان غير هذا اليوم لما توانى عن ضيافتنا، ولكان قدم الطعام وقال، أرجوكم يا أعمامي.. لكننا وجدناه جامداً. بعد ترحيب فاتر، سأله حمزة بيك جفتفران أوغلو:

- ماذا في أنقرة.. ما الأخبار؟

فقال زوبُكْ زاده مستخدماً نصف فمه:

- ماذا ستكون الأخبار؟.. كما تعرفون..

الكلمات، لكي تخرج من فم هذا السافل، تحتاج إلى كماشة.. صحيحٌ إذن أن حزبنا مضعضع وينهار. ولهذا سيستقيل زوبُكْ زادَهْ وينتقل إلى حزب آخر. لو لم يكن الأمر على هذا النحو، لكان قال (الوزير فلان أخذني بالحضن، رئيس الوزراء قبلني من جبيني. الوزير فلان عزمني على الطعام في بيته..) وما أكثر ما يفرم. لم يحدث أن ذهب إلى أنقرة وعاد صامتاً هكذا.

يسأله الأصدقاء:

- إي ابراهيم بيك.. ماذا في أنقرة.. ما الأخبار؟

فيجيب:

- ماذا ستكون؟.. كما تعرفون..

يدور الحديث ويعود إلى السؤال:

- إي إبراهيم بيك.. ماذا في أنقرة.. ما الأخبار؟

- ماذا ستكون يعني.. كما تعرفون..

وبعد برهة:

- وماذا في أنقرة أيضاً؟

- وماذا سيكون يعني في..

- إي إبراهيم بيك.. وغيره؟.. لا شيء غيره؟

لا شيء!...

- إي إبراهيم بيك.. بالنسبة لما أكلته وشربته، صحتين، لكن احكِ لنا عما رأيته وسمعته!

- والله.. ماذا أقول؟ لا أعرف.. لا شيء...

لقد بدا أن الجو مغبر، وأن حزبنا منهار من أساسه.. واضحة!

وكما اتفقنا في الطريق إلى بيته، باشر حمزة بيك:

- يبدو لي يا إبراهيم بيك أن هؤلاء الذين على رأس حزبنا قد وسّخوا بما فيه الكفاية.. وكما قيل (رائحة السمك تفوح من رأسه)... بيد أن الذيل قد سبق الرأس في النتانة.. الأمور ليست على ما يرام يا إبراهيم بيك. ماقولك؟

- والله.. ماذا أقول؟

قالها وأمال رقبته. لو في غير هذا الوقت لحكى كالبلابل. استلم الحديث مرتضى أفندي سلمه الله:

- لم يبق في حزبنا خير يا سيدي.. لماذا هكذا حزب؟ الناس انفضوا عنه، والمعارضة تتسع يوماً بعد يوم. أليس كذلك يا إبراهيم بيك؟

- والله لا أعرف.. أنتم أدرى...

بالنسبة للحكي، لا يحكي . . لكن كلامه الفاتر يدل على أنه يعرف . . ولا شك في أنه ترك الحزب وتركنا فيه.

أعطاني الأصدقاء الإشارة المتفق عليها، فبدأت الكلام:

ـ لقد فكرنا، أنا والأصدقاء، ألا نتخذ قراراً دون استشارتك. فبالرغم من كونك أصغرنا سناً، لكنك أكثرنا ضلوعاً في مسائل العمل الحزبي. نحن قلنا: يا هوه. . ما هذا الذي يذيقه الذين في الرأس للناس. . ولماذا يستخدموننا بدل العكاكيز. . قلنا: نستقيل من هذا الحزب. . ألسنا على حق؟ ها قد جئنا نقلق راحتك ونستشيرك.

لم يكن في وجه زوبُكْ زادهْ الخابي أي تعبير نقرؤه لنعرف ما يدور في خلده. أنزل رأسه وثبت عينيه على السجادة. . وقال:

ـ أنتم تقولون ما لا تفعلون. كلكم أصدقاء أبي، فلا تزعلوا مني يا أعمامي، لا يوجد فيكم من يمتلك الجرأة على الاستقالة. . من شاء أن يستقيل فليستقِلْ. فقط.

ها. . لقد فهم كل شيء. . الرجل سيترك الحزب لأنه لا بد يعرف بعض الأمور السرية. . سيستقيل. يعني أن الحزب سينهار. قال سطلمش بيك:

ـ بسرعة. . الآن. . هل عندك ورقة بيضاء؟ هات أعطني، وانظر إلى الجرأة!

كان زوبُكْ زادهْ، على ما بدا، مستعداً للأمر. أخرج من خزانته أوراقاً بيضاء، ووزّعها علينا.

قال سطلمش بيك:

ـ يا شيخ بدر. . . إن قلمك أشدُّ بأساً. أكتب استقالة على لساني، لأرسلها إلى صحف اسطنبول كلها، حتى يفهم الناس طبيعة هؤلاء الذين على رؤوسنا.

قال قادر أفندي:

ـ لو نفكر في الأمر. . لماذا العجلة. .

فقال زوبُكْ زادهْ:

ـ ألم أقل إنكم تقولون ما لاتفعلون؟

فأخذت القلم ورحت أكتب:

«إلى الأمانة العامة للحزب،

إن الحزب الذي حصل على الأكثرية، بإرادة الشعب، وبالرغم من أنه قد تولى السلطة منذ أعوام طويلة، لم يفِ بأيّ وعد من وعوده. . لا بل إنه مشى ضد وعوده. إنه لا يقدم لنا، عدا نظريات التقدم، إلا اللاديمقراطية. لقد جعلنا نبحث عن الأيام الخوالي على ضوء شمعة. . ولم يأخذ التحذيرات التي نبعث بها بعين الاعتبار! . . .» كذا كذا. . وتحتها:

«أحيطكم علمًا بأنني مستقيل من الحزب، ويا حبذا لو عممتم هذا الطلب على الجهات صاحبة العلاقة».

قرأت لهم الطلب فأعجبوا به. قال زوبُكْ زادهْ:

ـ لو جعلتموها بلسانكم جميعاً، ووقعتم عليها، أحسن من أن يكتب كل واحد طلباً مستقلاً.

فيها نظر. وهذا ما فعلناه. وقعنا تحتها. . أمضى من أمضى، وبصم من بصم. بعدها أخذها زوبُكْ زادهْ من يدي، وضعها في خزانته، أقفل عليها ووضع المفتاح في جيبه.

صحوت فجأة:

ـ إبراهيم بيك، هل ستوقع عليها فيما بعد؟

ـ أوقع؟ أنا لن أوقع. هل قلت لكم إني سأترك الحزب؟ هل بينكم من سمع مني ذلك؟

ـ أرجوك. . لا تقلها. . ما هذا؟

ولو يا أخي. . رجل عديم ناموس. لقد وضع قدمنا على خشبة مسوّسة.

ـ طيب. . كما تشاؤون. . سأكتب طلباً.

ـ أكتب دخيلك. .

كتب. ثم، دون خجل، قرأ لنا ما كتب. . إنه مرتبط بالحزب قلباً وقالباً وروحاً. إذا كان الموت في النهاية، فلن يعود عن الطريق الذي رسمه الحزب. وحتى لو ترك الحزب كل من في البلدة سيظل يقاتل في سبيل قلعة الحزب حتى آخر قطرة من دمه. . الله مع الحزب.

إذْ قرأ لنا هذا الكلام فقدنا أعصابنا، ولم نعد ندري ما نفعل. قال حمزة بيك:

- إبراهيم بيك. لقد سمعنا عنك من الأقاويل الكثير. لكننا لم نصدق.. حتى أنني قلتها في حضور الأصدقاء.. نحن أردنا أن نجس نبضك.. برافوا.. أنت رجل شهم.. في العمل الحزبي، الموت ولا التراجع. نحن مرتبطون برؤسائنا.. لكننا أردنا أن نجس نبضك.

فأجاب زويُكْ زَادَهْ:

- حسنا. أنتم جسستم نبضي، وأنا جسستُ نبضكم. أنتم حكيتم، وها قد جاء دوري، فاستمعوا إلي.. أنت جاهل، تضع توقيعك دون إرادتك. لقد صرت رئيس بلدية من وراء هذا الحزب. فلولا هذا الحزب، أكنت تصير رئيس بلدية؟.. ولا حتى في المنام. والآن تقف وتقول هكذا يصير هكذا لا يصير..

ثم التفت الينا:

- ماقولكم يا سادتي.. أليس هذا صحيحاً؟

ماذا يمكن أن يقال؟ ما قاله عن جفتفران أوغلو صحيح. قلنا:

- بلى، صحيح

فالتفت إليّ وقال:

- وفي حين أنت شيخ أولي العقل، وكنت إماماً في قرية، أتيت إلى البلدة... وبفضل الحزب صار اسمك (تاجر)... من أجل تعويض عجلات السيارات، وبالرغم من عدم وجود السيارات، أخذت عشرات، بل عشرينات من العجلات إلى مركز المحافظة، وعملت بها سوقاً سوداء.. والآن تقف لتتحدث عن اللا ديمقراطية.. أليس هذا صحيحاً؟

- اسكتْ دخيلك.. أستغفر الله.. نحن تحت العجلات.. الله الله.. كم أكلنا وشربنا مع المرحوم أبيك.. ماذا يعني، ألست الآن تعذب روحه؟ لقد تربيتَ يا إبراهيم بيك على يديّ هاتين.. يا ولدي..

لكن ما نفع ما قلته.. صاح الآخرون:

- بلى صحيح.

وهزوا رؤوسهم. لو رأيت حمزة جفتفران أوغلو، الواطي، من أجل أن يغطي قذاراته، كان يقول، كلما قال زويُكْ زَادَهْ شيئاً عني، مثلما الشيخ عندما يقول (آمين)، مثل الغراب، نعيبه يغطي على كل الأصوات:

- بلى صحيح..

تركني والتفت إلى سطلمش بيك:

وأنت؟ لقد أطلقت شاربيك كما يفعل الرجال، شارباك تجاوزا طرفي أذنيك.. لقد كنت (شَقُوفة) صاحب خان، وبفضل الحزب، جاءت البلدية فاستملكت خانك بسعر مرتفع.. ومنه أنشأت Palace عصرياً حديثاً.

لو سمعت العويل. لكي لا نطيل يا سيدي، لقد صبغنا المارق زويُكْ زَادَهْ، وعرانا، دون أن نضن بتصديق أحدنا على الآخر. وختاماً قال:

- إني أحترم كبر سنكم.. ولو لم تكونوا ضيوفي لكنت عرفت ما يجب أن أعمله بكم..

لو أنه طردنا لكان محقاً.. رمينا أنفسنا على يديه وقدميه، فلم يُعِدْ لنا طلب الاستقالة.

- لا تتضايقوا، الطلب عندي.. إذا أعدته لكم فقد يسقط منكم، هنا وهناك، فيبتل.. أنا أخبئه. فإذا لم يحصل شيء فلن أرسله إلى أية جهة. أما إذا حصل، فحسابها مختلف. أضعُ له تاريخاً وأرسله. أجرة البريد علي. وهذا هدية مني لكم!...

- الرحمة! لا يسمعنا أحد... لا ترسله لأحد.. ليس عندنا عقل. إنه سر حزبي، فدعه بيننا!

خرجنا وهو ينظر إلى مؤخراتنا. لا صوت. قال قادر أفندي:

- ولاه. ألم أقل لكم لا تدعوه يلعب علينا. جئنا لنلعب فانقلبت علينا. ألم أقل لكم لنفكر في الأمر.. مهابيل.. مهابيل كبار. قدمنا لحانا لعديم ناموس كبير. الآن سيسحبنا من لحانا كالأرسان ويجرنا كحمير ليس لها صاحب.

صحيح. وهل عبثاً يذهب زويُكْ زَادَهْ إلى أنقرة؟ إنه يذهب إلى أنقرة، فيتعلم أنواع اللعب السياسية. حل الليل وإذا برجل يحمل على ظهره كبشاً:

- السلام عليكم!
- وعليكم السلام.. خيراً؟
تقدمت. نظرت في وجهه. إنه صابر آغا الآلوجاني..
- إلى أين صابر آغا؟
- إلى سيدنا، وعرّاب قريتنا، زوبُكْ زادهْ.

وراح يحكي لنا. معلوماتنا نحن أن زوبُكْ زَادَهْ في أنقرة منذ عشرة أيام، وأنه عاد منها البارحة. تفو.. لم يكن في أنقرة. كان عند صابر آغا الذي أغلق عليه الباب، مع راقصة! خرج من هنا على أنه ذاهب إلى أنقرة، فإذا به يُمضي عشرة أيام مع راقصة في قرية آلوجان.

قال صابر آغا:
- مشكلة سهل قريتنا انحلت. لقد صدر الأمر من أنقرة.

تفرقنا. ذهب كل إلى بيته. أما أنا واسماعيل أفندي عبد الله، فقد توجهنا إلى مقر الفرقة الحزبية. قال اسماعيل أفندي :
- أرأيت إلى تلك اللعبة يا خيّ.. كيف وقعنا فيها؟
- الألعاب كثيرة.. أيها تقصد؟
- طلب الاستقالة.. لماذا لم يوقع عليه احسان أفندي الصف ضابط وأمين أفندي التاجر؟

تفو.. صحيح ياه.. في تلك الضوضاء لم أنتبه إلى أنهما لم يوقعا..
- لماذا؟
- لماذا يعني.. عقلنا دائماً هكذا، لا يعمل إلا بعد فوات الأوان.. لقد نظر إحسان أفندي فوجد أنه لن يستطيع أخذ رئاسة البلدية من جفتفران أوغلو.. إذن فليصبح زوبُكْ زَادَهْ رئيسها بدلاً من جفتفران أوغلو. عندما عرف أننا سنطرد زوبُكْ زَادَهْ من الحزب، انسل من بيننا وأخبر زوبُكْ.. فهمت؟

ورحت أضرب رأسي.. آخ يا رأسي.. هل هذا، الذي نحمله، رأس؟
- حسن ومن أين طلع خبر استقالة زوبُكْ زَادَهْ؟.. من أين، ولماذا تداولنا الخبر؟

- هذه أيضاً رتبها زوبُكْ. لماذا اقترح أمين أفندي التاجر عقد الاجتماع، ثم لم يحضره؟ هذه من ألعاب زوبُكْ. لقد أرسل نبأ استقالته مع أمين أفندي التاجر، فلخبط عقولنا.. وفي حين كنا نفكر في طرده من الحزب، استقلنا نحن وتركناه فيه وحده.. آه من عقولنا.. آه.. أرأيت يا سيد كيف أوقعنا زبك في لعبته.. هل تسأل عن المهارة في اللعب.. إنه يأخذ أكبر سياسي انكليزي إلى الماء، ثم يعود به عَطِشاً.. احترقنا.. احترقنا.. هذا الزوبك الذي لايصفه لسان، لن تفهمه دون أن تقع في حبائله. بأيدينا كتبنا وثيقة هبلنا، وسلمناها له.. وثيقة الهبل التي في يده هذه أقوى بكثير من وثائق البنك وأسناده.

ما أشرفه!!...

ما رواه اساعيل أفندي عبد الله:

أسلمناه لجانا. ولو شاء لرقّصنا كدببة النَّوَر.

عندما سمع رضا بيك الكاتب ما جرى لنا، قال:

- هيه، يا مجانين.. وهل يُذهب إلى بيته.. كان واضحاً أنه سيلعب عليكم.

فقال حمزة بيك:

- يكرِّز ألف كذبة، وهو واقف على ساق واحدة.. لم تُصِبْ تسعمائة وتسع وتسعون منها، تصيبُ واحدة، وهذا يكفيه.. لِنَقُلْ، يا صاحبي، إننا لم نصدق..، لكنه قادر على خداع محافظ كبير. غداً يذهب إلى المحافظة، يجلس قبالة المحافظ لافّاً ساقاً على ساق، ويقول (البارحة زارني النائب فلان.. لا بد أنه قد مر بك)، فيقول المحافظ لنفسه (أنا محافظ كبير، فكيف يتجاوزني النائب ويروح ينام عند زوبُكْ زَادَهْ الذي لا يساوي عشرة قروش..).

قال الشيخ بدر:

- وهل هذا يعني أن زوبُكْ زَادَهْ يستطيع أن يأتي ما لم تستطعه المعارضة خلال كل تلك السنوات، حيث يضرب أفراد الحكومة بعضهم ببعض؟ لا ياه!.. هل يستطيع الدخول على حضرة المحافظ؟

فأجابه رضا بيك الكاتب:

- رأيته بأم عيني.. يدخل دون أن ينقر الباب حتى.. وإذ يلمحه المحافظ يقفز من مكانه، يحتضنه، ويتباوسان.

قال إحسان أفندي الصف ضابط:

- يا أصدقاء.. دعوا هذا، فلقد صار ما صار.. الانتخابات اقتربت، فماذا نعمل؟... هذا ما يجب البحث فيه.

لا يرجع حمزة بيك جفتفران أوغلو، بالرغم من تسليمه وثيقة الهَبَل لزوبُكْ زَادَهْ، عن رئاسة البلدية.. والشيخ بدر، رئيس الفرقة الحزبية في الناحية، يدعم جفتفران أوغلو، يدعمه خوفاً من أن يشفط منه رئاسة الحزب بعد أن يشفط رئاسة البلدية من حمزة.

قال رضا بيك كاتب القائمقام:

- أنا موظف حكومة، أخشى من أن أبدو وكأنني أتدخل في شؤونكم.. ما رأيك أنت في الموضوع يا إسماعيل أفندي عبد الله؟

- وما عساي أن أقول؟ لقد قدمت استقالتي من الحزب لزوبُكْ زَادَهْ.. فماذا بعد.. إذا بصقنا إلى أسفل، فعلى اللحية، وإذا بصقنا إلى أعلى، فعلى الشارب..

وأضفت:

- أيها الأصدقاء.. إبراهيم زوبُكْ زَادَهْ اليوم، واحد من حزبنا.. وهذا يعني أنه روحنا وكبدنا. ما ذاك الذي نقوله عنه؟ يا هوه.. المعارضون لا يغتابونه مثلما نغتابه نحن.. يجب أن نطهره.. أن نعمل ما في وسعنا من أجله، فالظفر لا يطلع من اللحم.

قال احسان أفندي الصف ضابط:

- إيه. الرحمة على أبيك.. شكراً لله، ثمة مَنْ ما يزال ينطق بالحق.. ما الذي يقال عن حزبنا في كل مكان؟ ماذا تعني السياسة؟ السياسة تعني حملة إعلامية.. وماذا تعني الحملة الإعلامية؟ تعني: كذب ودجل.. تعالوا نقعد ماثلين ونتكلم باستقامة، هل بيننا من هو أشد كذباً ودجلاً منه؟

فقال سطلمش بيك:

- الرجل غائب، لكن الله موجود.. لا يوجد من هو أكثر كفاءة منه في الكذب والدجل!

- مادام الأمر هكذا، إضافة إلى ما قاله قادر أفندي، من أجل أن الناس قد سئمتنا، وأن المواطنين سيُدلون بأصواتهم لصالح المعارضة فإن أحداً غير زوبُكْ زادهْ لن

ينقذنا.. فتعالوا نقل له (سننصبك رئيساً للبلدية) عله يجمع أصواتاً للحزب... فإذا زعل من تقديمنا رئاسة البلدية له، وتَرَكَ الحزب وانضم إلى الحزب الآخر، نكون قد احترقنا، ولن نربح في هذه البلدة أية جولة انتخابية.. لماذا نصب نيران غضبنا عليه، ألأنه ادعى كذباً (الحكومة أتت إلى بيتي)؟ ولاه.. الحكومة نفسها تكذب، وبالرغم من معرفتنا أنها تكذب، نصدقها. الآن زوبُكْ زَادَهْ واحد منا، ينزل كذبُه علينا ثقيلاً؟ ماذا تعني السياسة؟ السياسة تعني أن نُظهر الواحدَ ألفاً، والقملةَ جملاً... والجملَ قملةً إذا اقتضى الأمر.. يجب أن نرفس المعارضين من بيننا، نسألهم: هل عندكم أكذب وأكثر سفالة من زوبُكْ زَادَهْ؟ إذا كان ثمة، فليخرج رافعاً إصبعه!.. أرأيتم؟ ها قد سكتم.. ما دام هكذا فإن الواجب الوطني يقتضي تأييد زوبُكْ زَادَهْ. إذا قال (سلم القائمقام عليَّ، فلم أردّ عليه) فيجب أن نضيف (المحافظ سلم على زوبُكْ زَادَهْ فلم يلتفت إليه).. وإذا قال زوبُكْ زَادَهْ (زارني نائب..) فيجب أن نردفه بسرعة (لقد أتى رئيس مجلس الأمة إلى بيت إبراهيم بيك، واستشاره في مسألة..) وكلما أطلق إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ كذبة، يجب أن نقول (والله، وتَالله، صحيح.. لقد سمعنا ورأينا) ونكثر من الحِلفان.. هذا هو التضامن الحزبي أيها الأصدقاء. كلا؟ طيب.. إذا كان بينكم من يستطيع قلب المعارضة رأساً على عقب، وعنده من الاحتيال ما يبزُّ به إبراهيم بيك.. فليس عندي له قول..

لقد هاج احسان أفندي الصف ضابط في ذلك اليوم هياجاً، لكأنه من مرشحي النيابة. قال الشيخ بدر الفهمان:

- حسناً.. تكلمتَ حسناً، إحسان أفندي.. لكن، إذا سلمنا البلدية لهذا العديم الناموس، فإننا لن نستطيع تحريرها من يده أبداً.. ها أنا أذكركم: سيستملك زوبُكْ البلدة كلها، ثم يكنسنا من هنا. أنصير، بعد هذه الكَبْرة، لاجئين، ينزح من ينزح، ويتحول الباقي إلى عبيد عنده؟

فقال أمين أفندي التاجر:

- صحيح ما قلته.. أي نعم، ليس البلدة فقط، بل إنه سيطوِّب القرى المجاورة على اسمه أيضاً. لكن، ما عندنا حل آخر، إما أن نرعى هذا الجَمَل، أو نرحل.. إما

ان نقول لزويُكْ، تعال نجعلك رئيساً للبلدية، فنربح الانتخابات. . ، أو نخسرها. يا أصدقائي، في الحزب الآخر محام. . فمَنْ منا يستطيع مواجهة المحامي بالكذب، غير زويُكْ زَادَهْ؟ محام يا هوه، قرأ كتاب الكذب. إبراهيم بيك يختلف. . الكذب عنده هبة من عنـد الله، فماذا يساوي عنده كذب الكتب. . خلنا نربح الانتخابات، وبعدها هينة، نتكاتف، فماذا يستطيع زويُكْ زَادَهْ أن يعمل معنا؟. . نتحد فنرده إلى جادة الصواب.

فكرنا وأمعنا التفكير. . في الحقيقة لا يوجد عديم ناموس كزويُكْ زَادَهْ. . وحتى لو أوصينا على واحد، فلن يكون أقل منه ناموساً.

بعدما قال الثلاثة، حمزة بيك جفتفران أوغلو والشيخ بدر الفهمان وإحسان أفندي الصف ضابط:

ـ حسناً. . إذا كان حمارك أنثى تجنبتَ الشجار!

اتخذنا القرار. بحثنا في إبلاغه لإبراهيم بيك زويُكْ زَادَهْ. قال رضا بيك كاتب القائمقام:

ـ من الواضح أنكم قد جننتم. لا يُذْهَبُ إلى بيته. . ذهبتم مرة فأخذ منكم، وأنتم في كامل رضاكم، وثيقة هبلكم. فإذا ذهبتم مرة أخرى فسيقول (لعلهم لم يفهموا) ويبدل عقود زواجكم ويجيِّرها لنفسه!

قال مرتضى أفندي سلمه الله:

ـ أي نعم، صحيح. . لا يجوز الذهاب إلى بيته. لكن، ما العمل، أنستدعيه إلى هنا؟

أرسلنا له خبراً مع شكري الحافي، فقال له (علي راسي، حالاً). . انتظرنا. . لا أحـد. ماهـذا؟ أرسلنا له خبراً آخر. (على راسي، فوراً). . انتظرنا. . لاأحد. . لابد أنه، ابن الكلب، قد تيَّس.

أرسلنا له للمرة الرابعة. . المهم أتى مع حلول المساء، واضعاً تحت إبطه محفظة، كالأدباء. كان مضطرباً يبحث عن شيء ما. . يدس يديه في جيوبه، يفتح المحفظة، ينقِّب فيها. . الله الله. . وإذ هو على هذا الحال، وقف الشيخ بدر يشرح له (كنا نريد

ان ننصب إبراهيم بيك زويُكْ زَادَهْ رئيساً للبلدية. . ليس بيننا من هو أعرف منه بهذه الأمـور. . متعـدد المهارات). الشيخ بدر يشرح، وابراهيم بيك ينكُش في المحفظة، يلوب في جيوبه عن شيء ما. . امتدحه الشيخ بدر. . حتى جعل منه، هذا الذي نعرفه صاحب اسم في القذارة، مَلاكاً، ولما نفدت عبارات المديح، قال:

ـ هذا قرارنا، إبراهيم بيك. . ستُنَصِّبُكَ رئيساً للبلدية. . ما قولك؟

ألا يسأله وهو يضع يداً في جيب جاكيته الداخلي، وأخرى في المحفظة:

ـ هل قلت شيئاً، عمي الشيخ بدر؟

تحول لون الشيخ بدر، من شدة الخجل، إلى أحمر. . لو كان القائل واحداً آخر لصرخ في وجهه (أهو نهيق حمار الجاويش؟. . أعْطِ أذنك للكلام). لكنه صبَّر نفسه، وعاد للحديث من بدايته. . ليس بيننا أفضل من زويُكْ زَادَهْ، يجيد القراءة والكتابة، دؤوب في الحق، لا يتدخل في القيل والقال. .

ـ تداولنا طويلاً يا إبراهيم بيك، ووجدنا، بالإجماع، أنك أفضل من يكون رئيساً للبلدية إذا ربحنا الانتخابات سنجعلك رئيس البلدية. تمام؟ ما قولك إبراهيم بيك؟

وهو ينكش في جيوبه ومحفظته قال زويُكْ زَادَهْ:

ـ لم أفهم عمي بدر. . كيف. . ماذا؟

إنـه، على نحـو جلي، يسخر منا. وَجْهُ الشيخ بدر الذي احمرَّ في المرة الأولى، ازرقَّ. . قال في سره (لا حول ولا. .) وعاد يشرح من جديد. ولست أدري، عند المرة الرابعة، الخامسة قال زويُكْ زَادَهْ:

ـ لا تؤاخذوني. لَكَمْ أحب أن ألبي رغبتكم. . لكن. . لا أستطيع. .

يا لطيف! أي لعبة من ألعاب علي جنكيز هذه؟ يا سيدنا، يا إبراهيم بيك. . لا تقلها. . إهْ. . يقول لا أستطيع، ويسكت. . نتوسل إليه، لكن، دون جدوى. وهو يلخبط محتويات المحفظة، قال:

ـ بعد إذنكم، أنا ذاهب إلى أنقرة. لقد استدعاني رئيس الوزراء.

ـ رحماك يا زويُكْ زَادَهْ. .

لا تحرجوا أنفسكم، المسافر يجب أن يركب طريقه. لأر لماذا أرسلوا في طلبي. .

لقد مللت من السِرِّي مِرِّي من إلى أنقرة . . أنا لا أخجلهم لكونهم أصدقائي .

خرج زوبُكْ زَادَهْ. وبقينا ينظر بعضنا إلى الآخرين. كل لعبة نبدؤها معه يطلع ماهراً فيها أكثر منا. إن في رفضه منصب رئاسة البلدية شيطنة جديدة. . لكننا لم نستوعبها.

قال صبي المقهى وهو يقدم الشاي للشيخ بدر:

ـ عمي الشيخ، ثمة أشياء واقعة على الأرض.

انحنينا، فإذا هي مجموعة من الصور والبطاقات. ما هذا؟ لا بد وأنها سقطت من زوبُكْ زَادَهْ وهو يجرُ في محفظته. تناول الشيخ بدر مجموعة الصور والبطاقات. . وعلى الفور نبقت عيناه كفنجانين. .

ـ يا مولى! . .

يحملق في الصور فيندهش ويأخذ وضعية الاحترام. قدمها لأمين أفندي. نظر أمين أفندي إلى الصور:

ـ حَسْبُنا الله، حسبُنا الله . . !

بدأت الصور والبطاقات تتنقل، فيندهش كل من ينظر إليها. مددت يدي (ياهوه. . أعطنا لنرى) وأخذت صورة. . ما هذا؟ أليس هذا زوبكْنا، سلطان السفلة، في صورة مع رئيس الوزراء، متأبطاً أحدُهما ذراعَ الآخر؟ في الصورة يد زوبُكْ زَادَهْ على كتف رئيس الوزراء، في حين ذراع رئيس الوزراء ملتف على خصر زوبُكْ زَادَهْ. لكن مالم أفهمه: لقد بدا زوبُكْ زَادَهْ بجوار رئيس الوزراء وكأنه عملاق يقف بجوار قَزَم. . وإذا أمعنت النظر في رئيس الوزراء لخلته ديكاً هندياً يلف جناحه على خصر زوبُكْ زَادَهْ، الذي انتفخ، ومد يده ليبدو رئيس الوزراء تحتها. وثمة، تحت الصورة، كتابة مُذَيَّلة بتوقيع رئيس الوزراء:

(صديقي المحترم إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ. ذكرى صداقتنا الأبدية).

تدور الصور من يد إلى يد. صورة أخرى فيها زوبكْنا ورئيس الوزراء جالسان إلى طاولة ويشربان. لكن هذه على عكس الأولى، رئيس الوزراء، ما شاء الله، مثل الجبل، وبجواره زوبُكْ زَادَهْ مثل الفأر.

وكمن يقرأ آية، قرأ الشيخ بدر الكتابة التي تحتها:

(إذا هبت ريح الفراق
عندما لا أكون معك
لتبقَ صورتي للذكرى. .)

والبطاقات، في كل منها وزير، نثرت على الأرض. . أي رجل هو إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَنا! . . لقد حشا جيوبه ومحفظته بالحكومة كلها. في إحدى البطاقات (أخي إبراهيم بيك) وفي أخرى (عيوني برهوم) . . قال احسان أفندي الصف ضابط مخاطباً حمزة جفتفران أوغلو:

ـ الآن اِحْكِ. . ياالله. . اِحْكِ! . .

فقال جفتفران أوغلو:

ـ الذي فهمته هو، إما أن يكون زوبُكْ زَادَهْ هذا رجلاً عظيمًا، ونحن لم ندرك قيمته حتى الآن. . ، فلو لم يكن كذلك لما استطاع أن يعمل صداقة ضرب كف على الرقبة، وتطبيش على المؤخرة. . مع أركان الحكومة. . ، وإما أن يكون هؤلاء الذين أخذوا صوراً معه متأبطين بالأذرع، أكثر سفالة منه. هل هناك احتمال آخر يا خيّ؟ . . . المثل يقول (قل لي من تعاشر، أقل لك من أنت).

قال مرتضى أفندي سلمه الله:

ـ كُفُّوا عن الكلام الآن. . إن كان هكذا أو هكذا. . ولاه. . نحن، عندما نذكر اسم رئيس الوزراء، نتلوه كالصلوات، في حين زوبُكْ زَادَهْ، هذا الذي لا يملأ أعيننا، متصور معه ذراعاً بذراع. أرجوكم، هل هذا وقت القعود؟ لنسرعْ، فإذا لم تتحرك عربة البريد، نتوسل إلى إبراهيم بيك، نقول له: دخيلك، ما صار قد صار. فإذا كان ابن بلدتنا حقاً، ويريد خدمتها، فليصر رئيس بلديتها.

ـ صحيح، الآن فَهِمتُ. . لماذا لم يقبل برئاسة البلدية. . في الوقت الذي يتزلف فيه الوزراء إلى رئيس الوزراء، ترى إبراهيم بيك زوبُكْ زَادَهْ يشرب معه العرق على طاولة واحدة. . فهل يرضى برئاسة بلدية بائسة كهذه؟ أنا لم أكن في يوم من الأيام، ضد زوبُكْ زَادَهْ. . . قيمته واضحة. . وإذا كان ثمة من لا يصدق فَلْتُدَكُّ هذه الصورة في عينه.

وبينما نحن نفكر في ما نفعل، انتصب زوبُكْ زَادَهْ أمامنا:

ـ بالله هل وقع من محفظتي شيء؟

فقدمنا له الصور:

ـ تفضلوا إبراهيم بيك.

نظر في الصور وقلب خِلقته:

ـ يا رجل. ليس هذا ما أبحث عنه.

ناولناه البطاقات..

ـ يا خيّ. ليس لهذه الأشياء لزوم.. لو كانت لازمة لشيء مفيد لما عثرنا عليها.

ورمى الصور التي تحمل توقيع رئيس الوزراء في محفظته، كما يرمي موظف النفوس الأوراق بعد أن يجعلكها.

ـ لو كانت هذه الأشياء.. التي ضاعت..

ـ عم تبحث ابراهيم بيك؟

ـ يا هوه.. عن رقم.. رقم مكتوب على ورقة صغيرة.. من أجلها أنا ذاهب إلى أنقرة، معاملة تتعلق بأحد مواطني بلدتنا.. قلنا نحلها ونكسب الثواب.. رقم المعاملة مثبت على الورقة.

تكورنا جميعاً، وبدأنا البحث عن الورقة.. وعينك ترانا.. ترى لحية الشيخ بدر الفهمان وهي تكنس الأرض.

صاح قادر أفندي:

ـ هذه؟

فأخذنا زوبك وهمّ بالخروج. أمسك أمين أفندي الباب، واعترضه سطلمش بيك، بينما راح إحسان أفندي الصف ضابط يحكي:

ـ يا إبراهيم بيك.. أنتِ سيدنا وعظيمنا. اِمْشِ، لكن ليس قبل أن تمعسنا. إذا كنا نساوي في عينك نقطة، فاستمع إلينا.. نعم، ليس منصب رئاسة البلدية باللائق عليك.. كلنا يعرف أن مقامك أعلى.. لكن، إذا كنت ابن هذه البلدة، ففكر بها قليلاً، وحتى ولو كانت هي لا تفكر بنفسها.

ورحنا نتوسل إليه، حتى انبطحنا على الأرض وصرنا نتدحرج..

ـ ليعمّ الفرح، بفضلك.. لا تخجلنا.. اِقْبَلْ رئاسة البلدية..

طفرت من عيني إبراهيم بيك زوبُكْ زادهْ دمعتان، وقال:

ـ بَسْ.. لقد قبلت.

نظرنا إلى فمه. ترى بماذا سيتفضل..

ـ ولكن..!

قالها وسكت. قليل الذوق، إنه يخرج الكلام من فمه درهماً درهماً.

ـ تفضلوا إبراهيم بيك، تفضلوا. قلتم (ولكن..) وسكتم..

ـ ... لي بعض الشروط.

أيقن جفتفران أوغلو أن رئاسة البلدية قد طارت من يده، فبدا، حتى لا تتسع الهوة بينه وبين زوبُكْ، أكثرنا حماساً. قال:

ـ مهما يكن شرطك، أو شروطك، فهي على الرأس والعين.

فقال عديم الحياء زوبُكْ زَادَهْ، ودمعتان أخريان، عصرهما بالقوة، واصلتان إلى ذقنه:

ـ أيها الأصدقاء.. شرطي الأول هو.. كلنا بشر، نخطىء، ننحرف.. الغلط ضريبة الانسانية قبل كل شيء، وبإذنه تعالى، سنربح الانتخابات.. وطالما أنكم أصررتم، فسأصير رئيس البلدية. لكن المنصب يفتل الرأس. فإذا فتل رأسي، وبدر مني غلط، ولم تعيدوني إلى جادة الصواب، فأنتم لستم شهباء.

لزوبُكْ زَادَهْ يا سيدي صوت لا تجده لدى ممثلي المسرح.. حتى أنا الذي لا يوجد من يدرك سفالته مثلي، عندما سمعت كلماته، خرجت عن طوري، وأخذت عيناي تدمعان.. دور البكاء الآن علي. عندما يرقّص صوته قائلاً (إذا لم تعيدوني إلى جادة الصواب فأنتم لستم شهباء).. هنا، لا بد للمرء من أن يبكي.

صاح المارق حمزة جفتفران أوغلو:

ـ لسنا شهباء.

ودون أن يخجل من كبر سنه، سأل أمين أفندي التاجر:

- وما أمرك الثاني؟

- أستغفر الله. شرطي الثاني هو. . لا أريد أن أرى أية ملعنة. . إذا سألتموني لماذا. . أقول. . وجه الانسان يستحي. . لنفرض أنني اتبعت سبيل الشيطان وانحرفت. .

حاشاه. . إنه يتكلم كالأنبياء!

- عندئذ لن تخدعوني. . تكونون سفلة إذا لم ترشدوني إلى الطريق الصحيح. .

لم أتمالك نفسي فصحت:

- سفلة!

- أما شرطي الثالث. .

- تفضل إبراهيم بيك. .

- لن تخالفوني فيما سأقول. . .

فصاح الملقب العنزة الملتحية، الشيخ بدر الفهمان:

- عديم وجدان من يخالف. .

- الكل يعرف أن المعارضة قوية. . وما دام المحامي برهان على رأسها، فإن سحقها صعب. لكن إذا اتحدنا. .

أجل. . إن بلاء المحامي برهان لا يُحتمل. .

وكان هذا قرارنا. وقد قَبِلَ إبراهيم بيك زويْك زادَهْ، كرمى لخاطرنا، أن يصبح رئيس بلديتنا. نحن لا نقدر على التماسك في وجه المحامي برهان، ولا في أي وقت. .

لكني سأحلق شاربي إذا لم يجعله زويْك زادَنا يندم على كونه على قيد الحياة. . ، أو إذا لم يسحب منه رخصة المحاماة، ويحوله إلى كاتب عرضحالات أمام مبنى العدلية.

قال قادر أفندي:

- صحيح. . لا أحد يعرف مثلما أعرف. . ها أنذا أفكر وأفكر، فأحزن على المحامي برهان. أيقنوا أننا قد ربحنا الانتخابات، صارت في جيبنا. . فلو درنا العالم، لما عثرنا على عديم ناموس كزويْك زادَهْ.

خرجت مع إحسان أفندي الصف ضابط. عند زاوية المسجد التقينا بالمصور

فرحات، الذي يصور في مركز المحافظة. قلت له:

- أهلاً وسهلاً يا ابن أخي.

- أهلين وسهلين يا عمي.

- مِن زمن وأنت غائب. لقد شغر مكانك.

- من كثرة الشغل.

- خيراً؟

- خير طبعاً. أين يتواجد الكافر زويْك زادَهْ يا عمي إسماعيل؟ منذ الصباح وأنا أسأل عنه.

استجوبه إحسان أفندي الصف ضابط، فحكى. ذهب إبراهيم زويْك زادَهْ إلى مركز المحافظة، ومر بالمصور فرحات، الذي سحب له صوراً بمائتين وخمسين ليرة. أخذ الصور، وقد مر عليها شهران ولم يدفع أجرتها. قال صاحب المحل لفرحات (تذهب وتحضر النقود، وإلا لا يبقى لك عندي عمل. . كرمى لخاطرك عملت الصور لابن بلدتك دون نقود، أصلاً أنا لولاك، ما كنت تركت رجلاً منحوساً كهذا يعتّب محلي. .). . يبكي فرحات كالأطفال. منذ خمس سنوات وهو يتعلم المهنة، وصار عاملاً. . والآن سيطرد من عمله.

سألته:

- يا ابن أخي. . وهل توجد صور بمائتين وخمسين ليرة؟ صور ماذا هي؟

وإذا حكى المصور فرحات عن الصور، اختل عقلي. عثر ابراهيم زويْك زادَهْ، لا أدري أين، على صور الوزراء، ورئيس الوزراء. . أخذها واتجه إلى المصور فرحات:

- ضع صورتي بجانب هذه الصور أُعطِك ما تريد. . فقط اطلب.

لا يوجد من هو أكثر مهارة من المعلم الذي يعمل عنده فرحات، لقد تعلم المهنة في اسطنبول. . أراد أن يظهر مهارته فأجلس رئيس الوزراء وزويْك زادَهْ، جنباً إلى جنب، وأدخل ذراع أحدهما في ذراع الآخر.

سمعت هذا فرحتُ أنتف شعري. ولاه. . هذه هي الصور إذن؟ انظر الخفة

التي في عقولنا . . رئيس وزراء عظيم، يأخذ صورة بجانب الكلب زويْكْ زَادَهْ؟ أرأيت إلى عقل الحمار هذا الذي نحمله! . .

قال المصور فرحات:

ـ دخيلك يا عمي . . أين أعثر على الواطي زويْكْ؟ إذا لم أحصل النقود ستنقطع لقمة عيشي.

زعلت عليه. قلت:

ـ إذا كان لك عقل فلا تواجه زويْكْ أبداً. عُدْ بسرعة، وبُسْ يد معلمك . . إذا كان معك مائتان وخمسون ليرة فادفعها له، وإلا فادفعها تقسيطاً من أجرتك الشهرية.

ـ ماذا يعني هذا؟ أيأكل النقود عينك عينك؟ والله أستخرج معلاقه . .

ـ يا بني. أنت لا تستطيع استخراج معلاقه . . أما هو فيستطيع استخراج صرة نقودك ويأخذها. لا يستخرجها هو. أنت تعطيه إياها وتتوسل إليه أن يأخذ منك مائتين وخمسين ليرة أخرى. اسمع كلام من هو أكبر منك . . إذا سمعت أن زويْكْ زَادَهْ واقف هنا، قف هناك. وإذا رأيته في مكان، اهرب!

لكن المصور فرحات لايفهم. يقول (سأستخرج معلاقه) ولا يضيف شيئاً. إنه لن يرى طريق السلامة. قلت:

ـ يا ابن أخي، إذا كان لا بد من ذهابك فاعمل عملاً عاطلاً لحمارك . . ستذهب إليه . . إذن اترك محفظة نقودك عند أحد، واذهب . .

ذهب المصور فرحات. هأ هأ إحسان أفندي الصف ضابط.

ـ علام تضحك يا خيّ . . ؟

ـ أليست أموراً مضحكة؟ انظر إلى هذا الدماغ الذي عند الكلب زويْكْ. أيّ دماغ! . . أتى الخبيث في المرة الأولى يقول لا أقبل برئاسة البلدية . . لأنه لو قبل رأساً، فقد يوجد بيننا من يعارض. لماذا قعد وخبط محتويات محفظته؟ . . لكي يسقط البطاقات والصور . . يا هوه. لقد تظاهر بأن الصور سقطت منه سهواً . . لكنه نثرها على الأرض عمداً. عيناي لم تفارقاه . .

ـ يا مسخ! . . تعني أنك رأيته وهو ينثرها على الأرض عمداً . . تعني أننا وقعنا في اللعبة عينك عينك؟ ولك لماذا خرست إحسان أفندي؟

ـ يا رجل. اسماعيل أفندي، ما نفع الكلام؟ . . ما هذا العقل الذي عندك . . الأمور تؤخذ بالعقل، لقد خدعنا زويْكْ زَادَهْ جميعاً، فماذا سيفعل بالمحامي برهان؟

ـ يعني أننا وقعنا في اللعبة بعلمنا؟

ـ طبعاً، وما أدراك أنت؟

في المقهى التقيت بسطلمش بيك وحكيت له:

ـ أرأيت يا خيّ؟ لقد أسقط الصور عمداً.

فلم يستغرب. قال:

ـ عرفت ذلك.

ـ كيف؟

ـ ياهوه. . ألم تنتبه إلى الصور؟ في إحداها حضرته، رئيس الوزراء، بجانب زويْكْ زَادَهْ مثل الولد، وفي الثانية مثل الجبل.

ـ هذا يعني أننا ذهبنا إلى معركة متفق عليها؟

ـ وما أدراك أنت؟ رائع جداً زويْكْ زَادَهْ. . الرجل يفهم في الاحتيال. . هذا يعني أنه سيمسح بالمعارضين الأرض. . عنده عقل يا أفندي، عقل. .

طلع معي يا سيدي أن الكل كان عارفاً بلعبة صور زويْكْ زَادَهْ. . أما أنا فلا. . لكنني لست أقلهم فهمًا، أنا، مذ لمحت الصور عرفت بوجود لعبة. .

سمعنا في اليوم التالي أن المصور فرحات قد عدل عن العودة إلى مركز المحافظة، وأنه سيفتتح محلاً للتصوير في بلدتنا. شاهد إحسان أفندي الصف ضابط معلاقاً في يد المصور فرحات، فسأله:

ـ ماهذا يا فرحات؟ . . لعلك استخرجت معلاق زويْكْ زَادَهْ؟ مستحيل، هذا معلاق ثور. من أين للكلب زويْكْ مثل هذا المعلاق؟ . .

فقال المصور فرحات:

ـ اسكت يا إحسان افندي أرجوك. . حاذر أن يسمع إبراهيم بيك . . لم نكن

تدري . . إبراهيم بيك هو ولي نعمتنا. رَبُّكَ ستّار، لم أفتح معه سالفة النقود، لكنتُ تبهدلت . . عندما لمحني قال (يا لطيف! . . بحثت عنك في السماء فوجدتك في الأرض) سيفتح لي محل تصوير . . ثم، وأنا خارج، أعطاني معلاق الأضحية هذا. قال لي (خذ هذا لأمك!) . . انظر إلى انسانيته.

وهكذا يا سيدي. ربح حزبنا، بفضل زوبُكْ زادَهْ، انتخابات البلدية . . وصار رئيس بلدية فوق رؤوسنا ـ أعانك الله على التصديق ـ . . . وأنهى المحامي برهان. نعم، لقد أنهاه.

***

وضعنا هذا البلاء على رأسنا مع شرابته. ما نذوقه، كله، من قلة عقلنا. ما دامت لنا هذه العقول فإن، ليس زوبُكْ واحد، عشرة زوبُكَاتٍ قليلة علينا.

صار رئيس بلدية، وبعدها خاصمنا على الذبح. لم يؤذنا أحد . . ، كله من يدنا . . يجب أن يمعس رأس الأفعى وهو صغير . . أما الآن فكل ما نقوله عبث. فلقد صار الذي صار.

سألت عن أصله . . .

ما رواه سطلمش بيك صاحب الفندق :

ليتنا لم نقدم على ذلك. عملنا من هذا الوضيع رئيساً للبلدية ووضعناه على رؤوسنا كبلاء بشرابة.

كنا ذات مرة جالسين في مطعم الفندق العائد لي. كنا نشرب. لا أذكر جيداً، اليوم الذي سبق تلك الليلة، هل كان عيد الجمهورية؟ الاستقلال؟ كان شيئاً من هذا القبيل. في النهار أقيمت المراسم، وفي الليل وليمة بمناسبة العيد. وإذ نحن نشرب وقف ذلك القصير المدعبل المضحك زوبُكْ زادَهْ، وقال:

ـ أيام جدي عبد النظيف باشا كان في بلدتنا غابات . . !

ماذا يقول هذا القليل الأصل؟ لم أستطع تحمل ذلك فسألته:

ـ أيام من؟ أيام من؟

فقال: ـ أيام جدي عبد النظيف باشا!

يكذب وعيني في عينه، دون أن يرف له جفن. ثمة من يكذب، نعم، وثمة من يمدح نفسه، لكن هل ثمة كذب بهذه الضخامة؟

استفسر كاتب الديوان رضا بيك:

ـ بالله عليك إبراهيم بيك، ماذا تقول؟

فأجابه، دون خجل:

ـ كنت أنقب بين الكتب فوقع في يدي كتاب بخط جدي عبد النظيف باشا، الله يرحمه. كلما قرأت فيه ازدادت دهشتي. بلدتنا هذه كانت، في الماضي، مركز العرش لدولة جنفيز[1].

---

١ - جمهورية جينوفا Genova اليوم. المترجم.

نظر بعضنا في بعض. هذا الكريه، ماذا يقول؟ جنفيز ماذا، ومركز عرش ماذا؟.. وأي عبد النظيف باشا؟

سأله رضا بيك:

ـ كتاب جدك المرحوم الذي تحكي عنه، مكتوب بأي لغة؟ بالتركية الحديثة، أم بالحروف العربية؟

هامة! كلام جميل لقد وضع رضا بيك الحجر في مكانه الصحيح. من أين لزويك زادة الذي لم يُنْهِ دراسة الثانوية معرفة الحروف العربية؟ لا بد وأنه سيتوقف عند سؤال رضا بيك ويصفن.. لكن لا، فلقد لزق الجواب فوراً:

ـ بالحروف القديمة طبعاً. يعني، عمي رضا بيك، أيام عبد النظيف باشا، هل كانت الحروف الحديثة معروفة؟

ـ كيف يا سيدي أصفه لك. الرجل يكذب مثلما يسحب النَّفَس ويرده. نحن نعرف أصل وفصل هذا المنحط. أنا أعرف والده.

أيام جهلي، وأنا في الخامسة عشرة، السادسة عشرة، وصل بلدتنا مهاجرون من بلاد (قارْس). كان المهاجرون يحصلون من الحكومة على أراض ومساعدات. وقتها ظهر رجل. كان رجلاً رث الثياب، لكن، كانت له وقفة ومشية تستحقان المشاهدة. ذراعاه تقفان بعيدتين عن جسمه مسافة شبرين. كيف يفتح الديك عندما يصيح جناحيه وينفخ صدره؟ هكذا. يفتح ساقيه ويمشي بغطرسة. له سعلة تظن معها أن قائد الجيش قد جاء للتفتيش. عندما يضطر إلى النظر جانباً، لا يدير رأسه، بل جسمه كله. طول عمري وأنا أرى مدخني سجائر، لكنني لم أر أحداً يدخن السيجارة مثله. مشربه طويل، يدرج السيجارة ويدكها في نهايته، ويمسك به كما البندقية. جاكيته وبنطلونه لا يشبهان ثيابنا. الجاكيت فارغة عند الكتفين.. على خصره حزام ليس كأحزمتنا. يمشي فيتمايل يمنة ويسرة وإلى الأعلى والأسفل. رجل مغرور، نعم، لكن ليس كغرورنا. تظنه من مهاجري قارس، لكن لهجته تختلف عن لهجتهم.

تجول الرجل في طول السوق وهو يبيع المراجل. من فرط تطنيبه لا تستطيع الاقتراب منه قائلاً «أهلين وسهلين يا آغا.. أنت رجل أيِّ بلاد؟». بلدتنا صغيرة لا

تتسع لسر. لقد سرى أن هذا القبضاي المطنب من بلاد العكداء[1]. الرجل عكيد، اتضح ذلك من نفخه وتعربمه. لقد أتى من بلاد العكداء. بدأنا نفكر به. استطاع بعض الشبان محادثته في المقهى.. لم يكن يدعي: أنا كذا أنا مذا..، أنا أذبح، أنا أعلّق.. لكنها، من معالمه، واضحة: إنه عكيد. له قعدة خاصة على مسطبة المقهى، ولف سيجارة خاص بالعكداء. ليس عنده إثبات آخر للمعكدية.. لكن هذه الصفات، أليست كافية إلى حد الإعجاز؟.

اندك شباننا بجانبه في المقهى. قالوا:

ـ مرحباً يا آغا.

ـ مرحبا..

ـ من أين؟.. اعذرنا إذا كان في سؤالنا فظاظة.. هل أنتم من المهاجرين من أطراف قارس؟

عندئذ صرّح أنه من بلاد العكداء.

ـ وهل تتفضل علينا باسمك أيها البطل؟

تفحص وجوه شباننا واحداً واحداً، وكأنه يقول لهم «يعني ألم تعرفوني؟.. تفو عليكم». تعال انظر، نحن هنا، في بلدة التراب الميت المذرى، هل يطلع لنا من أحد خير؟

قال وهو يفتل شاربيه:

ـ يقولون إن اسمنا هو زيبق زادة قره يوسف. والآن؟ هل عرفتموني؟

لا. ليس ثمة من يعرف.

ـ ألا يوجد بينكم من سمع باسمنا أو بصيتنا؟

وضحك زيبق زاده قره يوسف من تحت شاربيه. ثم سكت. قوة العكيد قرة يوسف من نوع مختلف. لو كان صرخ وتحدى، وحتى لو أشهر مسدساً، مدفعاً، وحوّل الساحة إلى دخان، لأمكن أن يخرج له شهم من بيننا. لكنه كان، عندما يظل ساكتاً،

١ ـ يُقصد بالعكيد: الزعيم الشعبي الذي يعتمد على استعراض عضلاته. المترجم.

لا يمكن أن يعرف ما قد يفعله عندما يغضب . . هل يلمع ويبرق، أم يرعد فيتحول إلى صاعقة تصعق؟ في سكوته قوة سبعة أولياء .

ومن وقتها شاع في الجيل مظهر جديد . صرنا كلنا نقلد العكيد قرة يوسف . نمشي متمايلين يمنة ويسرة، مثله، نفتح سيقاننا شادّين على أفخاذنا، مباعدين بينها . وعندما يُنادى باسمنا لا يجوز أن نقفز وننط ونلتفت، وإنما نبرم الجسم كله، بهدوء، جهة الصوت . صرنا وكأننا دخلنا في عالم المراجل مدرعين بدروع قاسية، ندور ونناور كما تناور المدرعة . سرقنا من العكيد زيبق زاده طريقته في لف التبغ، في التسبيح، وفي تبريم الشاربين بتباه .

لقد ذهل السمانون في بلدتنا من أنهم صاروا لا يلحقون في بيع البندق . ما هذا يا هوه؟ كان الواحد منهم يأتي بأوقيتين[1] من البندق، فلا تنفد من عنده بسنتين . كان البندق يخنّن في المطربانات الزجاجية . عاف السمانون بيع الفاصولياء المييسة، الرز، السكر . . وصاروا يأتون بأعدال من البندق . انهوس شباننا بالبندق على نحو مريع . البندق دواء ناجع وصباغ جيد للشوارب، نأخذ قلب البندقة، ونضمه بسيخ، ونشويه على النار، فينتج عنه فحم زيتي . فحم البندق الزيتي هذا هو سماد الشوارب . شعر الشوارب المدهونة به يصبح مثل قصب المستنقعات . قوّى الفتيان أصحاب الزغب زغبهم بفحم البندق الزيتي، حتى صار لأبناء الخامسة عشرة شوارب مثل البَلاّن . الشوارب الضعيفة إذا ما دهنت بفحم البندق الزيتي، تشب وتسودّ وتقوى . صار طرف شاربي الواحد منا عند الشمس والثاني عند القمر . أصبح شاربا الواحد منا، بلا تشبيه، كقرني غزال . أفرط شباننا في تفتيل شواربهم وأقلعوا عن العمل، والكبار يشتمونهم قائلين (ابصق على شاربيك . . لقد صار عملك في وجهك . كلها من هذين الشاربين) . . إلا أن تجارة البندق في البلدة كانت قد وجدت وراجت، فأثرى السمانون من ورائها .

وقد فعلت تجارة البندق فعلها في البنات . صرن ينظرن إلى اسوداد شوارب الشبان فيتغنجن .

---

١ ـ ١٢٨٣ غرام الأوقية الواحدة ـ المترجم .

أخذنا نتوق إلى سماع سيرة عكيد بلاد العكداء الشهير زيبق زاده قرة يوسف . سمعنا أن والد القصاب عثمان رحمه الله قد أولم لعكيد بلاد العكداء الشهير . يا ساتر! . . ذهبنا نلتقط من فمه هذا الذائع صيته في الكون، شغلة شغلتين .

وليمة لا مثيل لها تلك التي أقيمت . ننظر إلى فم العكيد زيبق زاده وننتظر كلامه . غير أنه لم ينبس، واستمر يفتل شاربيه . الوليمة وليمة . جيء بمنسفين نحاسيين كبيرين . أحضر خدم البيت أنواع الأطعمة . أهي سهلة استضافة عكيد لم تعرف البلاد له ندا؟ بعد الطعام حضرت القهوة . شرب الكبار، وبعدها دارت الأحاديث وتبودلت وجهات النظر . ثم نُقل عكيد بلد العكداء إلى الزاوية الرئيسية . . وبدأ يحكي .

ـ أشياء كثيرة مرت على رأسنا يا آغوات . .

من يكون هذا الرجل؟ حكى فتجمدنا . كلامه انحفر في ذاكرتي . .

كان مصارعاً مذ أن كان في سن السادسة عشرة، لا يستطيع أشد المصارعين غلبه . في قريتهم لا تزرع الحبوب ولا تربى الماشية . . دخلهم يأتي من المعكدية . العكيد الذي تخرجه تلك القرية يتمنطق بالبندقية وهو في الثانية عشرة أو في الثالثة عشرة . . يقول (ياالله، بسم الله)، ويطلع إلى الجبل بحثاً عن قسمته . إلى جوار قريتهم قرية لا يعرف سكانها الفلاحة ولا الزراعة . . يعيشون من المشيخة . إذا كان مولودهم ذكراً فإنهم ينتظرون حتى يتعرق شارباه فيصبح شيخاً ويهاجر . في تلك القرية لا تربى العجول، الأغنام، ولكن المشايخ . ما أن يصل واحدهم منطقة أخرى حتى يلف لفة ويصبح شيخاً . وثمة قرية أخرى من نوع آخر . دخل أهاليها يأتي من الشحادة . كبيرهم صغيرهم امرأتهم فتاتهم . . الكل يتسول . قرية أخرى تعيش من السرقة . إذا طلع من بينهم شاب لا يسرق وطلب بنتاً فإنهم يرفضونه قائلين (أنت لا تستطيع إطعام عيالك) .

أنا قربان الله على هذه الحكمة، كل حي يرزق بطريقة ما . البعض من المعكدية والبعض من التسول .

زيبق زاده يقص علينا فتزداد أفواهنا اتساعاً . لسانه حلو:

ـ في إحدى الليالي سمعنا أن عكيد الجبال السبعة سيأتي إلى قريتنا . عندما يحل العكداء في قرية، تتحول إلى عرس . إذا سألتم لماذا . . لأن العكيد يجيء القرية بكنز

ويغادرها خالياً. عندما يشيع نبأ نزول العكداء من الجبل يحصل رجال الحكومة على إذن ويفركونها كيلا يلتقوا بهم، فتنزل على رؤوسهم البلاوي أو تزهق أرواحهم. يتوجه رجال الجندرمه إلى الجبل الذي غادره العكداء ويطلقون النار على الأوكار الخالية. ماذا يعني عكيد؟ هيه هيه.. لو أنكم تفكرون، مؤن، أحمال سبعة بغال من المجوهرات، أحمال سبعة بغال من الذهب والفضة، وأحمال سبعة بغال من الأقمشة الحريرية والمخملية. ودون أن يكون لأحد على أحد شيء وُزِّعت هذه الأشياء على نساء القرية. عندما انتهت عملية القسمة دخل العكيد القرية، ممتطياً حصانه الأحمر اللامع. وفور وصوله، ألا يسأل:

ـ أين زيبق زاده قرة يوسف؟؟

الله الله! عكيد الجبال السبعة، أين سمع باسمنا؟ لا بد وأن يكون اسمنا قد وصل إلى الجبال رأساً. اقتربت منه، قبلت يده. قال (هيه يا شهم! أيليق بك أن تفني شبابك بجانب الموقد مثل النسوان؟ واجبك أن تكون في سوق الأرواح، تأخذ روحاً تعطي روحاً.. أليس كذلك؟ خذ هذا السلاح واضرب باسمي!).

وأعطاني سلاحاً مثل البنت.. لو نقبت في خزانة أسلحة الشاه لما وجدت مثله. أخذ يدي بيده وقال لي:

ـ معك إذني. الجبال التي من هنا وأنت رايح لك. هيا أمامي.

القعود في قرية أو في بلدة ليس من شيم العكداء. لم ينتظرني حتى آمر بالبيت وآخذ غيار ثياب، فخرجنا إلى الطريق دون جوارب أو جزمة. ماذا يعني أخذ سلاح عكيد له هذه الشهرة؟ عليك ألا تسيء لاسم العكيد ولو أزهقت روحك.

ومنذ ذلك اليوم، ولله الحمد، لم نترك جبلاً لم نصعده ولا طريقاً لم نسلكه..، ولم نلوث اسم العكيد الذي منحنا اسمه.

ما زيبق زاده؟ إنه لا يشبه البشر الذين نعرفهم. في تلك السن يصعد إلى الجبال؟ ماهذا الذي قصه علينا يا سيد؟..

في الطريق أخذني العكيد إلى جواره وقال لي «يبيع المرء مما يشتري.. وأنت ديب ابن ديب». حكى عن والدنا أن من كان يسمعُ باسمه يطير صوابه. لو أننا سمعنا بصيت

والدنا.. لم نكن سمعنا عنه بهذا القدر.. لقد كان والدنا هو الذي أخذ هذا العكيد من يده، أخرجه من قريته، رباه،.. حتى جعله على هذا القدر. ولأنه كان شهماً أراد أن يفي بدينه.

في تلك الليلة ظل زيبق زاده يحكي حتى الفجر.. كان يتكلم فأفقد القدرة على الثبات في مكاني. وفي اليوم التالي لم نجد مكاناً ينام فيه قرة يوسف العكيد.. ماذا يعني أن يشرف بلدتنا عكيد له هذه الشهرة؟ أربعون عاماً وهو يرجُف البلدان.. أفلا يندهش من كوننا لم نسمع باسمه؟ لكن أنى لنا أن نعرف قرة يوسف العكيد ونحن مثل سلحفاة في قوقعة؟

وإذ ذاك أخذت شهرة زيبق زاده تنتشر في القرى المجاورة. قُدِّم له أجمل بيت من البيوت التي تركها الأرمن في البلدة. صار من يسمع باسمه يهرع إليه متوسلاً، سائلاً تقديم خدمة له. يمد زيبق زاده يداً إلى الماء البارد وأخرى إلى الماء الساخن. يمد يداً إلى السمن ويداً إلى العسل. يقص علينا ما فعله في المقهى أو في السوق، منفوخ الصدر مطنباً.. فندهش أكثر كلما حكى أكثر.

قليل ما كنا نعطيه لشجاع كهذا.. ولقد كان رجلاً طيباً على أي حال. فلو شاء لخرج إلى وسط البلدة، وصاح صوتاً أخذ به كل ما في أيدينا، وتركنا حفاة عراة. لم يكن يحتاج إلى مد يده إلى سلاحه، فيما لو حاول أحدنا الهرب. صوت واحد يكفيه لتسميرنا، ويزيد. لقد صار بيت العكيد زيبق زاده قرة يوسف وكأنه مستودع من مستودعات الجيش.. الكل ينقل إليه، مع أنه لم يطلب شيئاً من أحد. يمكنك أن ترد ذلك إلى خوفنا، ويمكنك أن تقول إن مجيء عكيد كهذا يشرفنا..، ويمكنك أن تقول إننا صرنا خَدَمَهُ، كي يحمينا من المخاطر التي كانت تتهددنا.

في إحدى الليالي سجلتُ ما حكاه. قال:

ـ وصلنا بلاداً ما فيها ليل.. تمشي أسبوعاً على ضوء النهار. لا يوجد بيت ولا بشر. هل نحن في الصحراء يا ترى؟ ثلاثة أيام، أربعة أيام، خمسة أيام مضى علينا، لم ندر، بسبب عدم وجود الليل...، ونحن على ظهر الجياد لا ننزل. وفجأة لاح لنا دخان، فقال العكيد:

من جهة البازار. وأي استغاثة!.. ألفيت نفسي في البازار، والناس قد ملؤوا المكان حتى إذا ما قذفت إبرة فإنها لا تنزل على الأرض. كان ثمة ولد يدعى عظم وجلد.. هو الآن في الغربة. كان عظم من النوع الذي لا يستطيع مقاومة نسمة هواء.. لو نفخت عليه لطار. ولد خواف، في وسط البازار، يمسك بيديه امرأة ضخمة ويضربها. لو رأيت المرأة.. انها كالعمالقة. كان يبدو الولد عظم أمام المرأة وكأنه **مخلب عصفور**.. لكن، أليس خلقة الله؟ كان يضرب المرأة **وملاءتها مرفوعة إلى الأعلى**. أما صوتها فكان، ما شاء الله، قوياً وكأنه بوق.

- ياهوه، ماهذا؟ ما الذي يجري؟

يا سيدي، لقد لف أحدهم نفسه بملاءة امرأة، ودخل حمام النسوان، وجلس على حافة بركة الحمام، دون أن يرفع غطاءه.. قالت إحداهن:

- اشلحي يا يامو..

- أنا لن أستحم. كنني في الداخل وأنا أنتظرها.

دخلت إحدى النسوة إلى الماء البارد فصاحت إحدى العاريات:

- أماه!..

وسقطت على الأرض.

هل عرفت، المرأة المجليبة، من خوفها، ماذا جرى لها؟ المرأة التي سقطت شاهدت شارباً مدبباً يخرج من تحت الملاءة، فسقطت مغمياً عليها. وعلى الفور التفت النسوة بالمآزر وأخرجن الرجل تحت ضرب القباقيب.

لقد دخل الرجل ذو الشارب حمام النسوان ليتفرج عليهن.

عندما سمع الولد عظم وجلد بذلك، ولأن أمه كانت في الحمام، أصيبت رجولته، فجرجر الرجل إلى البازار وهو يركله. عندما بلغنا ساحة البازار، كان عظم قد معس الرجل المتزيي بزي امرأة معساً. والمتفرجون ينادون من كل صوب:

- اضرب، اضرب، ها، اضرب..

والرجل ذو الملاءة يحاول الهرب من المكان كجرذ، فيشده الولد عظم من ملاءته التي على رأسه حتى كاد أن يختنق من قلة الهواء.

تساءل الناس:

- من عديم الناموس هذا؟

لم يكن معروفاً من هو، إذ لم يكن يظهر منه سوى طرف شاربه. لقد خرج طرف شاربه من الملاءة وكأنه عصا مدببة الرأس.

لم تشهد بلدتنا في تاريخها نذالة كهذه. الأنثى تعرف أنوثتها، والرجل يعرف رجولته.

تحول الولد عظم إلى سبع..، يسحب الرجل ذا الملاءة، وينزل به ضرباً. لم يكن **الرجل ليجد مناصاً، وكان لابد له، كي يخرج من هذه الجمهرة، من حركة ما**. لكن الملاءة في يد الولد عظم، وكأنها عالقة. ثم ملص الرجل وبقيت الملاءة في يد عظم. ألن تعجب إذا عرفت من الذي خرج منها؟ ألم يكن زيبق زاده قرة يوسف العكيد؟

عندما رأى الولد عظم زيبق زاده قرة يوسف العكيد أمامه، أدار ظهره وولى هارباً. خاف الولد، ومن فرط خوفه طلع إلى قمة الخضرلك وبقي هناك شهراً لم ينزل. لو رأيت زيبق زاده قرة يوسف.. كان يرتجف مثل الكلب المبتل.. وكاد أن يغرق بالبصاق.. الذاهب يبصق عليه والآيب يبصق عليه.. لم يتنازل أحد ويلمسه، صاروا يبصقون في وجهه ويركلونه.

صاح أحد الواقفين:

- يا عديم الناموس ولاه. أنت لست زَيْبَقْ زَادَهْ. أنت زوبُكْ زَادَهْ. لقد بهدلت الزيبق يا زوبُكْ. ومنذ ذلك اليوم واسمه زوبُكْ.

لقد أتى ذلك النَّوري إلى هنا وبلّعنا كذبته التي تقول إنه من ديار العكداء، وعلّمنا تفتيل الشوارب. ونحن كيف لنا أن نعرف؟ ومن يومها لم يبق له اعتبار، ولا حتى بمقدار كلب. أصبح مسخرة الصبية.. يرفع واحدهم يده ويقوله له:

- اسكت ولاه زوبُكْ!

فيحمي رأسه بيديه ويهرب.

لكن ما نفع هذا بعدما صار الذي صار، بعدما جعلناه رجلاً ووطناه وملكناه؟ إبراهيمنا هذا ابن زوبُكْ ذاك. نعرف هذا جيداً. لكنه، وبالرغم من كونه زوبُكْ

ابن زويُكْ، يقف ويقول أمام الجميع:

ـ أيام جدي عبد النظيف باشا..

يا ناس. إنه عديم أصل يفلق.

لم أستطع صبراً، فقلت:

ـ إبراهيم بيك، أخي، عبد النظيف باشا، **كان باشا في أي مكان؟**

الحياء والخجل لم يعرفا هذا **الرجل أبداً. قال:**

ـ جدي عبد النظيف باشا كان قائد جيش السلطان مراد. مراد هو الذي احتل هذه المناطق من دولة جنفيز. عندما كنت صغيراً أخبرني والدي قرة يوسف باشا بذلك.

تفو! هذا الرجل لا يعتبرنا بشراً في أي وقت. لم يكفه أن ادعى أن جده (باشا)، فقال عن أبيه، الذي دخل حمام النسوان بثياب امرأة، إنه باشا أيضاً. ولم يبق غير أن يقول عن نفسه «أنا ابراهيم باشا زويُكْ زادَهْ..».. الواطي، حتى في أيام الجمهورية سيجعل من نفسه صدراً أعظم.

أراضي هذه المنطقة، والأراضي التي تصل حتى طريق القوافل السبع، كانت، كلها، ملك أبيه زويُكْ زادَهْ قرة يوسف باشا. في عهد أبيه كان آل زويُكْ زادَهْ يملكون أربعين قرية تبرع بها والده للقرويين. عندما ولد إبراهيم قال أبوه «لقد جاء ولي عهدي» وعاف خمس عشرة قرية للقرويين.

تطلعنا إلى رضا بيك كاتب الديوان. انتظرنا منه، لكونه لا يخاف من قولته، ولأنه أفضلنا في مجال القراءة والكتابة، أن ينبري لزويُكْ ويبهدله ويخرب مزاجه ويجعل قيمته قرشين. وإذا برضا بيك يقول:

ـ نعم.. إنني أذكر ولادتك كما لو أنها حصلت اليوم. رحمة الله عليه، أبوك، جنابه، قرة يوسف باشا، فرح كثيراً. حتى أن آلوجان كانت مصيف آل زويُكْ زادَهْ، ثم إنه تبرع بها للآلوجانيين. كانت سفرة أبيك **مبسوطة للفقراء**. كان يعيش عند أبيك جيش من الفقراء. هيه يا تلك الأيام. نعم إن له علينا الكثير من الفضل.

انحنى عليّ أمين أفندي التاجر وهمس في أذني:

ـ يسخر منه. أليس كذلك؟

فقلت:

ـ يسخر منه حتماً. وهل غير ذلك معقول؟

لاحظ ابراهيم زويُكْ تهامسنا فالتفت إلى أمين أفندي التاجر:

ـ عم أمين، هل عشت في زمن جدي عبد النظيف باشا؟

ـ أنا ما عشت فيه. لقد كنت أيامذاك طفلاً.. لكن والدي نال من جمايل عبد النظيف باشا الكثير. وأنا رأيت من جمايل والدك قرة يوسف باشا.. أطال الله عمرك يا سيدنا..

هيه، يا الله.. ما الذي قاله أمين أفندي التاجر.. أتراه أضاع عقله؟ عندما فرغ من كلامه مال علي وهمس لي:

ـ كيف مشت عليه؟ الواطي...

ـ سخرتَ منه جيداً.. لكنني لم أفهم هذه السخرية.. لقد جعلت من قرة يوسف النُوري قرة يوسف باشا.

بعدها ألا يتكلم الشيخ بدر الفهمان دون أن يطلب منه ذلك؟

ـ وهل يوجد رجل كالمرحوم أبيك؟

أخرج زويُكْ زادَهْ من جيبه الداخلي محفظة، ومن المحفظة صورة صغيرة. قال:

ـ لكم عندي مفاجأة.

ـ ما هي أرجوك؟

ـ لقد عثرت على صورة أبي قرة يوسف باشا.

وقدمها إليّ قائلاً:

ـ كيف؟ جميل عمي سطلمش؟

نظرت في الصورة. إنها صورة باشا، نعم، لكن ليس فيها ما يشبه قرة يوسف النُوري. الباشا الذي في الصورة مثل السبع.

ـ كيف رأيته عمي سطلمش؟

يا هوه. ماذا أقول؟ أنا لن أكون المُقوِّمَ لكل هؤلاء. قلت:

ـ جيل. إنه هو، والدك بذاته. كأنه الآن أمامي. هيه، ياألله.. لا بد وأن تكون هذه الصورة ملتقطة أيام حرب الاستقلال. أنا أذكر تلك الأيام جيداً.

مرة أخرى مال علي أمين أفندي التاجر:

ـ يا خيّ. يخرب بيتك. لقد زدّتها على الآخر. أي حرب استقلال وأي باشا ولاه؟ لم يكن ذلك الأجوف قرة يوسف يعرف غير تفتيل شاربيه.

ـ أمين أفندي. **هل صدقت؟** إنها سخرية من زونْك. أما فهمت؟ إنها سخرية.

تدخّل الشيخ بدر الفهمان:

ـ يا أبناء بلدتنا. الآن يقع علينا واجب. إذا كنا بشراً، فلنجسم صورة سيدنا قرة يوسف بطول رجل ونضعها في إطار ذهبي، ونعلقها في صالون البلدية. ماذا تقولون؟

قلت بصوت خفيض:

ـ ماذا تقول أيها الشيخ الذي أبصق في لحيته؟ ابتلاه الله، ولاه، أما بقي في هذه البلدة رجل حتى نعلق صورة الكلب قرة يوسف في البلدية؟

فقال، بصوت خفيض أيضاً:

ـ ألا تفهم بالمزاح؟

ـ إذا كان مزاحاً أو سخرية، فهذا أمر آخر.

صاح الجميع:

ـ نعم. يجب تعليق صورة قرة يوسف آغا.

هل كان قرة يوسف ذاك، آغا أم باشا؟ لم نفهم. البعض يقول مازحاً إنه (آغا) والبعض الآخر يقول ساخراً إنه (باشا)... لقد أمعنا في السخرية إلى درجة أننا صرفنا من ميزانية البلدية ما يكفي لتجسيم الصورة بطول رجل، ووضعناها في إطار، وعلقناها في قاعة الاجتماعات في البلدية. الصورة التي تراها اليوم هناك هي صورة السافل زونْك. هل قرأت الكتابة التي تحت الصورة: «من أبطال حرب الاستقلال ـ قرة يوسف زونْك زَادَهْ آغا»؟

الصورة الباقية هناك. لماذا؟ لأننا نسخر من إبراهيم بيك زونْك زَادَهْ. كيف؟ هل سخرنا منه كما ينبغي؟

يا سيد. ما عنده خجل، ولا يفهم بالسخرية. عندما يجيء أحد ما من بلدة أخرى يقول له:

ـ هذا والدي قرة يوسف باشا...

قبعته ليست قبعة باشا عسكري، إنها قبعة باشا مدني قديم. أنا ظننته باشا.. من أين لي أن أعرف وصفوف الفَشَك على صدره والقنابل؟

ذات يوم مر من بلدتنا رجل ودخل إلى البلدية. وإذا رأى الصورة قال:

ـ لماذا تعلقون صورة هذا السافل؟ واسمه ليس قرة يوسف، بل الكافر علي.. إنه واحد من أشقى الأشقياء.. لقد عمل أثناء حرب الاستقلال مع الأعداء، وأطلقت النار في ظهره وهو هارب، وعلقت جثته ثلاثة أيام في الساحة كي يبقى عبرة للآخرين.

لقد جعلنا من عديم ناموس بطلاً، كي نمزح، وكي نسخر من زونْك زَادَهْ. ترانا سخرنا منه؟

هذا هو أصله وفصله. عرفنا فيما بعد من أين جاء بالصورة. لكن الذي صار صار. صار إبراهيم زونْك يستمد قوته من الصورة، ويفتح على رؤوسنا ما لا يفتح. لكننا قلنا منذ البداية:

ـ نعم. إنه قرة يوسف باشا...

ونحن لا نرجع بكلامنا. ولو أننا اكتفينا بالقول إنه يوسف باشا لكان ذلك حسناً.. لكن كم خلقنا.

ياه.. هكذا ياسيد. لنر ما سيفتح على رؤوسنا، من وجه هذا السافل، وإلامَ ستصير حالنا.

الرسالة التي كتبها مدرس اللغة الألمانية في المدرسة الإعدادية إلى صديقه:

. . . الحبيب:

دون إرادة مني سأبدأ رسالتي بإبراهيم بيك زوبُكْ زادَهْ. ذلك أنني إذا قلت لك: لا يوجد أحد، ولا يوجد شيء سواه، فصدقني. كل ما هو موجود هنا، بروح أو بدون روح، لايستطيع أن يكون إلا زوبُكْ زادهْ؛ أوهكذا يخيل إلي، لقد امتلأ سمعي بقصص زوبُكْ زادَهْ إلى حد أنني أصبحت لا أستطيع التفكير بشيء آخر. شيء مدهش، فبالرغم من أني لم أره بعد، أتحدث عنه. إنه على ألسنتنا جميعاً. في الأيام الفائتة كان في أنقرة، عاد، قعد في بيته يومين، ورجع إلى أنقرة.

لقد حدث الكثير من الأمور التي أدهشتني. إذا أخبرتك أن المدرسة الإعدادية التي هنا لا تدرس سوى لغة أجنبية واحدة، هي الألمانية، فستندهش أنت الآخر. في المدرسة الإعدادية هنا لا تدرس الانكليزية، ولا الفرنسية. . اللغة الألمانية هي اللغة الأجنبية الوحيدة، وأنا مدرسها. قد يخطر ببال الانسان فيتساءل: لماذا لا تُدَرَّسُ بقيةُ اللغات الأجنبية في حين تدرس الألمانية؟ لا بد أن هناك ضرورة لأهل المنطقة بالنسبة لهذه اللغة؟. . لا. لا يوجد ثمة أي منطق يقضي بتدريس الألمانية دون غيرها في هذه المدرسة. لقد نظروا فوجدوني أمامهم مدرس لغة ألمانية متخرجاً حديثاً. . لم يجدوا أمامهم مدرسي لغات أخرى، فقالوا لأنفسهم: لنرسل هذا المدرس إلى هناك ونسد هذا النقص. لقد ناقشوا أنفسهم بالأمر حتماً، فقالوا: ليتعلم طلاب الاعدادية هنا شيئاً من الألمانية! وثمة ما يدهش أكثر: لا يوجد في المدرسة الثانوية التي في مركز المحافظة التي تتبع البلدة لها مدرس لغة ألمانية، ولا تدريس ألماني. . ولهذا فإن الطلاب الذين يتمون دراستهم هنا، لا يمكنهم استئنافها في الثانوية. وحيثما وُجدَتِ الثانوية التي تدرس الألمانية، بالرغم من كونها قليلة ونائية، فهم مضطرون للذهاب إليها. وفي الحقيقة كله حكي، ليس ثمة من يتعلم الألمانية، لا هنا، ولا في الثانوية. .

إن المنطق الذي أُرسِلتُ بموجبه لتدريس اللغة الألمانية هنا، لقادر على إرسالي لتدريسها في الجامعة ـ قسم اللغات، مثلاً. ليس ثمة أي فرق بين كوني مدرس اللغة الألمانية هنا، أو في الجامعة، من ناحية المنطق واللا منطق.. إذ بدلاً من أن أعلم الطلاب اللغة الألمانية، فإنني سأنسى، بمرور سنة أو سنتين، ما أعرفه منها. واعلم أنني، من الآن، نسيت بعضاً مما أعرفه منها. لماذا أرسلوني إلى هنا؟ لأقل إن طلاب الصفوف الاعدادية الثلاثة قد تعلموا حسب المنهاج، القليل من الألمانية. فماذا يهم هذا؟

سينفجر رأسي. لا أستطيع توضيح كم أنا مهموم. أرغب في إنجاز بعض الأعمال، لكن متى؟ وكيف؟ وماذا علي أن أفعل؟ لقد باشرت بالشرب، لكن ليس كل مساء كما كنت أفعل في السابق. بعد انصرافنا من المدرسة نذهب إلى رابطة المعلمين ونلعب بالورق (باقرا، مشلَّحة، بوكر).. وبعدها نذهب إلى المطعم الذي تحت فندق سطلمش بيك ونشرب. عندما أقول رابطة المعلمين، لا تحسب أن فيها ازدحاماً.. أربعة معلمين مع المدير، كحد أعلى، ويوم دخل زميلنا المستشفى بقينا ثلاثة.

نعمل على سد النقص في عدد المدرسين بالتعاون مع معلمي المدرسة الابتدائية. القائمقام يدرس التاريخ والجغرافيا.

في داخلي انقباض لا يوصف. التراب الميت المذرى على البلدة بدأ ينذري علي. قريباً الامتحانات، ثم العطلة. لن أغادر هذا المكان في العطلة. يسيطر علي نوع من التخدير، كيف أصفه؟

أنت زعلان مني، أعرف، وأنا زعلان من نفسي. أشرب حتى الثمالة، وعند منتصف الليل أذهب إلى بيتي وأبكي. أحملق في يدي على ضوء المصباح البترولي نمرة خمسة.. أصابعي ليست معي.

في رسالتي الأولى إليك كنت سعيداً. كنت أنوي أن أُدخل يدي تحت التراب وأهز البلدة، وأنفضها من التراب الميت؛ لكني أدخلتها في باطن الأرض فوجدت أنها دخلت تحت الحجارة. سحبت يدي فلم أجد أصابعي. إن مكان اتصال الاصبع بالكف عندي ينزف دماً. مرة أخرى، مرة أخرى سأدس يدي تحت الجبال.. هذه المرة سأفقد يدي من الرسغ. أعرف؛ وهكذا سأنتهي، قطعة قطعة هنا.. هكذا سأنتهي.

أدخل الفراش باكياً. أبكي وأتساءل:

ـ هل أنا أحب هؤلاء الناس؟

أتريد جواباً صميمياً؟ أنا غاضب من هؤلاء الناس، غاضب. لقد جاشت محبتهم في نفسي حتى تحولت إلى غضب. قل لي ماذا أعمل، من أين أبدأ؟ أفكر: لو كان زويُكْ زادَهْ غير موجود، فما الذي كان سيُحكى هنا.. وكيف سيتم العيش؟ اعتكفت على زويُكْ زادَهْ جيداً. أقول: إذا عرفته فقد أجد مخرجاً، أو طريقاً للخلاص.

في أول عهدي هنا كنت أستغرب أحاديث أهل البلدة. لكنها ليست غريبة. أحاديث الناس هنا متطابقة، وكأنك تسمعها من شخص واحد. مفردات قاموسهم قليلة ومحددة، لكن قوة تعبيرهم كبيرة. بواسطة هذه المفردات لا يوجد إحساس لا تستطيع التعبير عنه عندما ترصف الكلمات بعضها بجوار بعض. كلما غيرتَ تركيب الجملة حصلت على معان جديدة. يتكلمون، كلهم، وكأنهم شخص واحد.. يتكلمون بأسلوب واحد، لكن نبرات أصواتهم متباينة. لو سمعهم رجل مدني لا يعرف هذا المكان، من خلف باب، لظن المتحدث واحداً. نبرات أصواتهم، كما ذكرت لك، متباينة، منها الرفيع والغليظ. سبابهم كثير. أما مبالغتهم!... أية مبالغة!.. وهذا ما جعلني، في الأيام الأولى، أستغرب أحاديثهم. كنت أقول لنفسي: إنهم يكذبون. ذلك أن ما كانوا يروونه من حوادث لا يمكن أن يصدق... إلى أن دخلت في ايقاع طريقتهم في الكلام، وصرت أفهمها. إذا لم تدخل في إيقاع طريقتهم في الكلام فستعجب من طرافتها.

في بادىء الأمر قلت: هذه الطريقة في الكلام ليست غريبة علي. ثمة من يتحدث بالطريقة ذاتها. لكن، من هو؟ نعم، هذه الأحاديث، وهذه الطريقة، أعرفها.. فكرت.. فتذكرت أبي الذي مات وأنا ما أزال في الثانية عشرة من عمري. لقد كان يتحدث على نحو مطابق لهؤلاء.

لغة قاسية، هجائية، حلوة. لم يكن أبي من هنا، كان من إحدى نواحي محافظة مجاورة، نزل إلى المدينة في سن مبكرة. نعم نعم.. كان أبي يتحدث كهؤلاء. الآن، عندما أصغي إلى هؤلاء، أخال أبي هو الذي يتحدث.

بالأمس القريب، وأنا أتصفح أحد الكتب التي أحضرتها معي، اكتشفت لغةَ مَنْ يستعمل أهل هذه البلدة. أقول إنهم يتكلمون لغة (أوليا جلبي)[1]. لا أدري، ما قولك أنت؟ وأنا أقرأ في (رحلة أوليا جلبي) ظننت أن الشيخ بدر الفهمان وكاتب الديوان رضا بيك ومرتضى أفندي سلمه الله، قد اجتمعوا وراحوا يتحادثون. مثله تماماً. لغة أوليا جلبي مضت وحلت محلها لغة معدلة، لكن المصطلحات وتركيب الجملة مثلها تماماً. لهذا أنا لم أشعر بغرابة هذه اللغة.

كنت أقرأ في رحلة أوليا جلبي جُمَلاً مثل «لو رأيت كم شهمًا انفرم!» و«تقادير الرب هكذا» و«بدأت الغربة الأبدية».. فظننت أمين أفندي التاجر هو الذي يتكلم.

كيف كان أوليا جلبي يبالغ ويغالي.. هؤلاء يبالغون ويغالون مثله تماماً، وبشاعريته.

وصف أوليا جلبي السفينة والعاصفة على هذا النحو:

«كانت ترتفع تارة حتى يلامس عمودها الغيم، وتنخفض تارة حتى تظن أنها نزلت إلى الهاوية، التي يسمونها الدرك الأسفل».

كذب أوليا جلبي. أليس كذلك؟ بالنسبة إلي، لم يكذب.. لقد قال شعراً. إنْ هذا إلا فن الكلام في سبيل توضيح حقيقة ما.

كم هو كبير الشبه بين وصف أوليا جلبي للسفينة والعاصفة بوصفهم زيبق زاده قرة يوسف العكيد؟ «أحد طرفي شاربيه عند الشمس والآخر عند القمر». هذه الأحاديث ليست لخداع الشخص الذي أمامك. طرافة هذه اللغة تتجلى في كونها ليست للخداع، بل لتوكيد الحقيقة، وتوصيلها على نحو أسرع. إنهم ينظرون إلى الأشياء كأنها بمكبِّرة.

كيف كان أوليا جلبي يردد جملاً من مثل «قفزت روحه إلى رأسه» «من نسل عاهرات» «وصلت روحي إلى فمي» «أَدِرْ أذنك للكلام» «لا يليق بك أن تقف في المؤخرة

١ ـ رحالة عثماني معروف. المترجم.

وتقول: الحرب هكذا!».. الناس هنا يرددون جملاً من هذا القبيل. إذا ارتشى موظف بخمسين ليرة مثلاً فإنهم يروونها هكذا:

ـ بحمولة خمسة جمال من ذهب.. ويوجد على هذا شهود.

الخمسون ليرة رشوة، تصبح حمولة خمسة جمال من ذهب. وليس ثمة كذب. إطلاق رصاصتين يصبح زخاً من الرصاص.. بالنسبة لي هذه لغة شعر.

كيف كان أوليا جلبي عندما كان يرى شيئاً مدهشاً يصفه: «ما في مثله؟» في لغتهم شيء من هذا. كان أوليا جلبي، عندما يرى جماعة أو فصيلاً من العسكر، يقول «جيش ماله مثيل في الدنيا». هؤلاء هكذا. لقد حكوا لي عن زيارة محافظ جديد لبلدتهم أشياء لا تصدق. ربما كانت قد طَرَشَتِ المحافظَ قطرةُ دم، فجعلوا الدم يغسله من فرقه إلى قدمه. والطلقات التي أطلقت من المدفع من قمة الخضرلك.. لا يوجد مبالغة كهذه أبداً.

في رحلة أوليا جلبي رواية لم يصدقها هو نفسه. يروي يحيى أفندي، إمام محمد باشا المفلطح القدم: «كنا ذاهبين لنصرة مرتضى باشا في أرظروم. كنا نتقدم في الثلج بخطا بطول رمح. لم نستطع اجتياز ممر دفابويو من كثرة الثلج. أخرج محمد آغا، أحد رجال محمد باشا المفلطح القدم، من زناره ألفي قطعة ذهبية، حفر لها بخنجره تحت غيمة وطمرها. نظر إلى السماء ودل عليها بغيمة زرقاء.

بعد عشرة شهور رجع محمد آغا ورجاله فوجد الغيمة التي دل بها على المكان.. حفر تحتها وأخرج الذهب، ودخل أرظروم»[1].

لم يطق أوليا جلبي هذه المبالغة فسأل:

ـ وهل تبقى غيمة في مكانها عشرة شهور؟

وكان الجواب:

ـ في تلك السنة مر شتاء.. حتى الغيوم تجمدت في السماء.

إنني أكتب لك هذا لكي أقرِّب لك لغة هؤلاء. إنهم يبالغون، نعم، لكن

١ ـ أرض الروم. المترجم.

مبالغتهم تستند إلى الواقع. ليست كذباً، وليس فيها غش للسامع. ومن لا يفهم هذه الغرابة يدهش. لذلك يجب إجراء تنزيل نسبي على ما يحكى هنا. لقد بدأت إلى حد ما أميز، أي الكلام الحقيقي، وأيه المبالغ فيه. إنني الآن، ودون أن أنتبه إلى ذلك، أحكي مثلهم. كل شيء هنا يقوم على الحكي، إذ لا يوجد شيء آخر. هؤلاء الناس يستنبطون المرح من مآسيهم، ويسخرون من أنفسهم. هل هو انتقام، أم ماذا؟

هكذا يتكلمون عن زويُكْ زَادَهْ. لا أدري مقدار الصحة في كلامهم عنه.. إن هذا ما أتوق إلى معرفته. سيأتي من أنقرة قريباً.

لو أنه يأتي وأتعرف عليه.

لو دققنا في ما يحكى عنه، لوجدنا أنه أسوأ رجل في العالم. ما لفت انتباهي في كلامهم هو أنه لم يخدع أحداً منهم. المخدوعون جعلوه يخدعهم ضارعين. وكأنهم عملوا من زويُكْ زَادَهْ انساناً سيئاً بالقوة.

اكتب لي شيئاً.. قل لي: ماذا أعمل؟

مشاريعي التي كانت قبل مجيئي تلاشت وانتهت، حتى أنني أصبحت لا أقرأ كتاباً.

هذا المساء أنا مدعو من قبل اسماعيل أفندي عبد الله إلى مطعم سطلمش بيك. أتعرف ما السبب؟ ابنه الآن في الصف النهائي في مدرستنا. لن ينجح لأنه كسول في الرياضيات. يريد اسماعيل أفندي أن يأخذ ابنه، ويسجله في مدرسة إعدادية في ناحية أخرى. في إعدادية تلك الناحية لا يوجد مدرس للرياضيات. وهذا يعني أن الولد سينجح بسبب عدم وجود مدرس رياضيات. يريد وثيقة نقل لابنه من مدرستنا. ولأن المدير عرف السبب يمتنع عن إعطائه وثيقة. ينظر الآباء في أي مادة أبناؤهم مقصرون، فينقلونهم إلى مدرسة لا تدرس تلك المادة. إذا لم يعطه المدير وثيقة ماذا سيحصل؟.. كيفما كان، في النتيجة، سيعطيه.. لكنه يقول عسى، ونحن نقول عسى. وأثناء العزيمة سيخاتلني اسماعيل أفندي عبد الله حتى أدبر له وثيقة النقل من المدير.

اسماعيل أفندي عبد الله رجل حلو للغاية. الكل هنا يشتم إلا اسماعيل أفندي.

لم تجر على لسانه شتيمة واحدة. عندما يغضب فإنه يصيح (يا عبد الله!).. ولهذا فإن اسمه اسماعيل أفندي عبد الله.

سأذهب لأشرب مجدداً. وسأعود من ثم إلى هذه الغرفة الباردة. أفكر دائماً في أن أصرخ. قبل مدة صعدت إلى قمة الخضرلك. هناك لا يوجد أحد، صحت بالجبال وبكيت.. حتى تعبت أعصابي. ماذا جرى لي؟

أرجوك أن تكتب لي باستمرار.

أقبلك من بين عينيك.

هكذا عجل.. من هكذا بقرة!

ما رواه احسان أفندي الصف ضابط:

محسوبكم عسكري. عندي خدمة في الجيش مقدارها أربع وثلاثون سنة. دُرت في البلاد.. لم يبق قضاء لم أره ولا ناحية. مر الألوف من الجنود تحت إمرتي. أعرف حدودي في التعامل مع الناس. لست أمدح نفسي، لكني، من نظرة إلى وجه الرجل، أعرف ما هو. لا يمكن أن يملص، إذ لا مناص من نظرتي. كم من الأشياء رأيناها في الجيش، لذلك فإنها لا تمشي علينا. شاهدت الآلاف، من أنواع الحرامية، المناحيس، العلاّكين، المقطوعين، القتلة، الصائعين، والمحتالين.. لكن، مثل إبراهيم زوبُك، لا أنا رأيت، ولا غيري رأى. يجب ألا نضيع حقه في كونه صاحب الرقم القياسي العالمي في قلة الناموس والأخلاق. لو كوّمنا كل قذارات العالم لما وصلت ظفر زوبُك. افهم يا خيّ.

لكن ذنب من هذا؟ انه ذلك الوعل الملتحي، الشيخ بدر الفهمان.. واحد رئيس الفرقة الحزبية في الناحية، والآخر رئيس البلدية.. وضع أحدهما يده في يد الآخر وراحا يظلمان الناس.

الشيخ: هل تعرف ذلك الشيخ ولماذا سموه الفهمان؟ لأنه يعرف كل شيء. يعرف الخلوة التي تزوج فيها الشيطان.. لكن ما لا يعرفه هو أداء الصلوات الخمسة.. وفوقها شيخ.. واحد أسود الوجه، نحس.

ذات يوم سقطت هنا طائرة. أنا لم أرها، لكن الكثيرين رأوها. انفجرت الطائرة فجأة في الجو، نفث منها الدخان، وهوتْ خلف الخضرلك. ولأن أهالي البلدة لم يروا طائرةً قط، فقد صعدوا، من ابن السابعة إلى ابن السبعين، إلى الخضرلك. أحدهم أعلم المحافظة، فبدأت قوات الجيش والجندرمه بالبحث عن الطائرة الساقطة. مضى أسبوع بتمامه ولم يعثروا على شيء. غير مهم. نُسي الموضوع.

وبينما كان راعٍ من قرية آلـوجان يرعى قطيعه، شاهد هيكلاً عظمياً على أحد جانبي الطريق. ودون أن يلمسه سارع إلى إعلام الجندرمه بذلك. جاؤوا بالهيكل إلى البلدة. رأيته، لحمه متفسخ ومفتت. هيكل يابس. لكن هيكل ماذا؟ غير معروف. كان طبيب المستوصف في إجازة. ولم يُرسَلْ طبيب حكومي في ذلك اليوم. عندنا موظف يدعى (ضَرّاب الإبر). هو الآخر لم يفهم ما هو الهيكل. مَن الذي يفهم عندنا في كل شيء؟ الشيخ بدر. من كان عنده مشكلة فليذهب لاستشارته. من أجل هذا سموه (الفهمان). يستطيع الإجابة على أي سؤال توجهه إليه. عنده الشفاء من كل الأمراض والدواء لكل العلل.

جُمعَتْ عظام الهيكل واجتمعنا حوله. سحب الشيخ بدر بسملةً وجلس إلى جوار العظام. عاين، جسّ. صاح:

ـ الله أكبر كبيرا!..

سألناه:

ـ ماذا.. يا شيخ:

فقال:

ـ هيه.. هذا شهيد مبارك

يا ناس.. شهيد ماذا؟ ومن أين؟ حُروب مُروب ما في..، فمن أين طلع لنا هذا الشهيد؟

قال الشيخ بدر وهو يمسّدُ لحيته:

ـ من فترة سقطت طائرة.. ياه؟

ـ نعم..

ـ هذه عظام الطيار الذي سقطت طائرته.. شهيد مبارك، وطيار عسكري أيضاً.

لا يوجد مثل فراسة الشيخ بدر الفهمان، أبداً... ففي الوقت الذي لم يستطع أحد فيه العثور عليها، استطاع الشيخ أن يعرف: أولاً، أنها طائرة عسكرية، وثانياً، أن هذه العظام هي عظام الطيار.

ما الـذي يتـوجب فعله. أُعـطي خبر للقائمقام، وللجندرمه؛ وبدورهما أخبرا

المحافظة. لم يكن زوبُكْ زادهْ على علم بكل هذه المستجدات.. فلما سمع بها أخذ ينط تارة ويقع تارة أخرى. قال:

ـ تخبِّصون وحدكم دون استشارتي.. تفو!... لقد أتلفتم عِدْلاً من الجَزَر. كان يجب ألا يُعطى خبر للمحافظة..

ـ ياه.. وما الذي كان يتوجب فعله؟

ـ كم هو فأل حسن سقوط الطائرة في نواحي بلدتنا.

لم نفهم شيئاً. نظر بعضنا في وجوه الآخرين. ما الذي يقوله هذا الرذيل زوبُكْ؟ ماذا يخبِّص؟ إذا كانت الطائرة قد سقطت في مكان مجهول وراء الخضرلك، فما لنا نحن وما لهذا؟ عند زوبُكْ لعبة جديدة، لكن، ماهي؟

سأل الشيخ بدر:

ـ فأل حسن؟ مثل ماذا؟

ـ نعم يا خي؟ فأل مثل ماذا؟ لقد سقط الشهيد على ترابنا المقدّس.. هذه كرامة، فأل! لو أنها سقطت في ناحية أخرى، أو في مركز المحافظة!... هيه، يا عديمي العقول.. هذا بدلاً من أن تأتوا بالشهيد إلى هنا. لو أنها سقطت في مكان آخر. بدلاً من أن تعلنوا «الشهيد سقط على ترابنا»..، لا أكلنا ولا شربنا، رحتم بلّغتم المحافظة!

ماذا يقول هذا الواطي زوبك يا هوه؟ كرامة ماذا وفأل ماذا؟

ـ عندما تعملون عملة كهذه، دون استشارتي، يحدث هكذا. هيه، يا مجانين! ماذا يعني شهيد؟ هل فكرتم فيها؟ ولاه، لو دفعتم مليون ليرة فهل كنتم تحصلون على دعاية كالتي يمكن أن تحصل من هذا؟ هل يجوز تفويتُ فرصة كهذه، يا مجانين!..

قال إسماعيل أفندي عبد الله:

ـ دخيلك يا ابني إحسان.. بالله عليك، ماذا يقول هذا السفيه؟

ـ لم أفهم ما قاله. إن ما سقط ليس طائرة، لكنه طائر السعد وقف على رؤوسنا.. ونحن لا علم لنا بذلك!

وبينما نحن واقفون حول الهيكل مذهولين، أتى شرطي راكضاً. قال:

ـ جاء تلفون من المحافظة. قالوا إنهم يريدون الشهيد إلى المحافظة.

سمع السافل زوبُكْ هذا الكلام فصاح قائلاً (واه ه. .) . . وراح يضرب ركبتيه :
ـ لنر كيف سنسوي اللخبطة التي عملتموها . .

ورفع السماعة، وطلب المحافظة، فطلع له السكرتير. قال زوبُكْ :
ـ لن نمرر نعش الشهيد الذي سقط على ترابنا. لن نعطيه للمحافظة. أخبر المحافظ بهذا عن لساني. قل له إن مراسم دفن الشهيد ستقام في بلدتنا، وكذا الضريح. ليأخذوا علمًا بذلك. سيقيم الأهالي لشهيدنا مراسم لم يقم مثلها قط. ليس غداً، المراسم ستقام بعد غد. . مراسم عظيمة! . . فهمت؟ فروع الحزب وتشكيلاتها، في المحافظة، وفي النواحي المجاورة، والمحافظ، وأركان المحافظة، ورؤساء البلديات والمجالس. . كلهم مدعوون. أنا الآن سأركب عربة البريد إلى المحافظة، وسأعرض الموقف على المحافظ. إذا أقدمت المحافظة على أخذ الشهيد فإن الأهالي سيحتجون. . ولتعلموا!

أغلق الهاتف والتفت إلينا:
ـ أرأيتم أيها المهابيل الكبار؟ . . نشكر الله على أننا استطعنا إصلاح الأمر. . والآن شمروا عن سواعدكم وسيقانكم. ستقام للشهيد مراسم لم يُر مثيلها ولم يُسمع به. أسرعوا بإعلام مدفعي السلطان الجاويش محمد ليجهز مدفع الخضر لك للإطلاق! . .

لم تعد رجولة حمزة جفتقران أوغلو على سابق عهدها. الآن يقف في حضرة زوبُكْ زَادَاهْ مثل جرسون. سأل:
ـ كم طلقة يطلق يا إبراهيم بيك؟

فانفجر زوبُكْ زادهْ:
ـ هيه. يخرب بيتك. . وهل يسأل كم طلقة ولاه؟ جنازة شهيد هذه. . كم طلقة كم مَلْقة. لايجوز أن يُسأل. المدفع سيبدأ بالقعقعة منذ الصباح، ولن يسكت حتى أذان المغرب. أخرجوا القوس من مستودع البلدية وانصبوه! جهزوا كل الجهات! أنا الآن ذاهب إلى المحافظة، وعندما سأعود لن أجد أي نقص. . سيكون كل شيء على أتم وجه. لو كان عندي وقت لكنت دعوت الكبار من أنقرة. أرأيتم؟ لقد علم الله بحالكم فسقطت الطائرة على ترابكم. لتكتمل المراسم ووجهنا أبيض. ستتحدث البلاد كلها عن

بلدتنا. اسمنا سيذاع في الراديو وفي الصحف. . وفوقها سنكسب ضريح شهيد دون مقابل. . أنا ذاهب.

قال أنا ذاهب، ونحن لم نترك شيئاً بعده. ذهب إلى القائمقام أولاً. اسم القائمقام صار فارغاً بجوار اسمه. ما يقوله زوبُكْ، بل ما يتفضل بقوله، هو الذي يمشي. شرح للقائمقام ما يتوجب عليه فعله أولاً بأول. ثم مر بالجندرمه، تفضل بأوامره على قائد الجندرمه. . وركب بعدها عربة البريد ومشى. ونحن انهمكنا بالعمل. . البلدية أوقفناها على رجليها.

قال أمين أفندي التاجر وقد التفت إلي ووضع عينه في عيني:
ـ يا أخوان. نحن ـ مثلما قال إبراهيم بيك ـ مهابيل حقيقيون. لو عثرنا في ترابنا على كنز لما كنا عرفنا قيمته، ولرميناه في الزبالة. ليسلم لنا زوبُكْ زَادَاهْ. لو لم يكن معنا لكنا أعطينا الشهيد للمحافظة. إذا لم نكن مهابيل، فما نحن؟
قلت:
ـ نعم. نحن مهابيل دون إضافة ماء. مهابيل مُركّزون. على ترابنا ضريح شهيد. . أي شرف! حمداً لله على أن زوبُكْ زادهْ لحقنا بسرعة.
أنهينا الاستعدادات. كانت الجنازة ستقام بعد يومين. . لكن زوبُكْ زادهْ لم يعد من المحافظة، وهذا يعني أننا لا نستطيع فعل شيء وحدنا. اتصلنا هاتفياً بفرع الحزب في المحافظة، حكينا مع إبراهيم بيك. سألناه:
ـ ماذا بالنسبة للجنازة؟
ـ الجنازة؟ أية جنازة؟ الجنازة التي تحكون عنها لهيكل عظمي يابس، لا يتعفن ولا تفوح رائحته. لقد أبرقنا لأنقرة وسيأتي وفد من الحكومة. حسبكم أنتم أن تحافظوا على الهيكل جيداً.
ـ وماذا يعني أن نحافظ عليه؟ إنه في مكانه. .
فصرخ زوبُكْ زَادَهْ:
ـ أقول حافظوا عليه. تستمر المناوبة على حراسته ليلاً نهاراً. أعلموا الجندرمه بذلك. أنتم تعرفون المحامي برهان. . اه. . المحامي برهان؟ يأخذ الجنازة من أيدينا،

ويمنح شرفها للمعارضة. نحن الذين عثرنا عليه، فلا تدعوا أحداً يلهفه منا.

يا بنيّ. . أي عقل هذا الذي لزويك. ما قاله صحيح. ستقام في بلدتنا مراسم دفن شهيد. . ، ولأن اسم بلدتنا سيكبر، فإن المعارضين سيطقون من غيظهم. طائرة. . من أربعين سنة، هل سقطت طائرة على أرضنا؟

المهم، عاد زويك. قال إن الأمور على ما يرام، وبعد غد، ظهراً، ستقام المراسم. البلدة جاهزة من كل النواحي. قال القصاب عثمان:

ـ إبراهيم بيك، ألا يتطلب الأمر ذبيحة؟

فقال زويك:

ـ اذهب لشغلك. قال ذبيحة، قال. . كم عندك من المال من أجل الذبيحة؟ غداً ستأتي من المحافظة ذبائح، عندما ستراها سيتوقف عقلك!

نعم؛ لقد توقفت عقولنا. ففي اليوم التالي، عند الضحى، ملأت الشاحنات البلدة. ماذا كانت تحمل تلك الشاحنات؟ هل تحزر؟ عجول، جواميس، أبقار، أغنام. . شاحنات تأتي مملوءة. . تأتي شاحنة وتعود أخرى. تفرغ شاحنةٌ محملة بالأغنام، فتصل أخرى محملة بالعجول. شاحنات محملة بالذبائح حتى السقائف. من أين كل هذه الذبائح؟ مواشي ناحيتنا كلها لا تطلع بقدر نصف هذه. امتلأت الساحة بالعجول والأغنام والجواميس، وطفحت. سألنا زويك زادَه:

ـ ما هذا؟. .

ـ إنها الذبائح.

يا بني! لو تحولنا جميعاً إلى قصابين لما لحقنا ذبحاً. علا صوت بعضنا قائلاً بجدّ:

ـ عشنا. الناس، من أكل اللحم ستُبْشَم. يعيش إبراهيم بيك.

وقال بعض آخر:

ـ كل هذا اللحم؟ طوال حياتنا لا نقدر على أكله. حرام!. . اللحم سيفسد. إذا لم يكن ثمة إحراج، فلماذا لا نصنع منه (سجق)؟

نظرت وإذا حمزة بيك جفتفران أوغلو يفكر، وفي عينيه نظرة متشائمة. قلت:

ـ بماذا تفكر يا خيّ؟

فقال:

ـ إذا لم نفكر نحن، فمن الذي سيفكر؟ ألا ترى ما يفعله عديم الناموس زويك زادَه؟

ـ ماذا جرى يا هُوه؟ حتى المعروف لا يجد فينا أهلاً له! لو أنها بقيت علينا لما أمّنا رأس غنم واحداً للذبح. . عديم ناموس، مهما كان، الرجل ناجح. لقد جلب قطيعاً يكفي لمسلخ. جيش بأكمله لايستطيع استهلاك كل هذه اللحوم، هل نحن نرجو من الله البلاء؟

فقال جفتفران أوغلو:

ـ ولو يا خيّ. أعرف أن عقلك يستوعب. هل عندك عقل بقد عقل هذا الثور؟ يا عديمي العقول، ولاه؛ ثمن هذه العجول والأغنام كلها، من أين سيطلع؟ ألا تفكر؟ بعضنا يقول: لنعمل منه قاورمة، والآخر يقول: سجق. . عميان لا تفكرون إلا بحلوقكم؟. . طيب من الذي سيدفع ثمن هذه الذبائح؟

قال مرتضى أفندي سلمه الله:

ـ حقاً ياهوه. . من أين سيطلع ثمنها؟ ولاه، لقد غرقنا. . ولاه. . احترقنا. . ولاه. . انتهينا. .

قال جفتفران أوغلو:

ـ ركزوا تفكيركم الآن. . لقد احترقنا. . ، وكيف؟ لو أننا جمعنا كل أموال أهالي البلدة لما كفت ثمناً لهذه الذبائح. . البلدية ستفلس، بل قل إنها أفلست. .

ـ حسناً. لكن أين شرد عقل زويك؟ إنه هو رئيس البلدية. . ياه، ألا يفكر بهذا؟

ـ لا يفكر. قصده أن يصبح نائباً. لقد دعا سكان سبع محافظات، وكبار رجال الحكومة والحزب، ليقيم أمامهم هذاالمهرجان ويؤمن على النيابه. يصير هو نائباً، ونحن بعدهاندفع ديون الذبائح. أهو ماله؟. . هل فهمت يا أفندي؟ يريد إملاء أعينهم.

ـ وماذا نعمل؟

ـ لا أعرف. نحن لن نستطيع تسديد ديون الذبائح، وكذلك لن يستطيع أبناؤنا

تسـديدهـا . . ولن يستطيع ذلك أحفادنا ولا أحفاد أحفادنا . . ستشتمنا سلالتنا في قبورنا . . لقد احترقنا .

وأخذ كل منا يسأل (ماذا نعمل)؟

قال قادر أفندي :

ـ لم يبق شيء نعمله . بعدما وضعنا عديم الأصل فوق رؤوسنا ، قعدنا نفكر . . صار الذي صار .

وظ وظ . . وصلت العربات الحكومية الصغيرة . لم نر قبل هذا احتفالاً من هذا القبيل . . لم يكن للسكان علم بشيء ، مبتهجين كانوا ، وفجأة . . ألا يصل من المحافظة باص مملوء بالموسيقيين العسكريين؟ كان المحافظ متنحياً جانباً ، فقد كان ثمة من هو أعلى منه . لو رأيت السافل زوبك زادة . كان يتجول في الميدان وصدره منتفخ كطبل .

بدأ الموسيقيون العسكريون بالعزف . . مقام بطيء . . وصلوا باحة المسجد . الشهيد في التابوت . أقام الشيخ بدر القفهان صلاة الجنازة . حملنا التابوت وسرنا ، والموسيقا تعزف في المقدمة . . ثم دفن الشهيد . . وبدأت الخطب . رجل أنقرة يخطب على نحو مذهل . لم يكن يُفهم شيء من خطيب أنقرة ، لكن خطبته تبكي . أنا بكيت . نظرت وإذا جفتفران أوغلو يبكي . أمين أفندي كان يبكي أيضاً . لم يكن ثمة من لا يبكي . . هل يبكي الرجال؟ لكنه مستحيل أن تسمع تلك الخطبة ولا تبكي .

قال جفتفران أوغلو :

ـ إنه يخطب على نحو جيد . . بس لو أننا نفهم . .

إن ما استطعت فهمه هو (سماء الوطن . .) من يمر بجوار المقبرة ويسمع (سماء الوطن . .) لن يستطيع إيقاف دمعه .

قال أمين أفندي :

ـ يا هوه . أنا متُّ من فرط البكاء . كل هذا الدمع موجود في الانسان؟ هذا يعني أن في داخل الانسان كيساً من الدمع . .

وأخيراً طلع شيخنا بدر القفهان وباشر بالدعاء . ما قولك يا سيد ، شيخنا بدر باشر

بالدعاء ، فحصرهم جميعاً . نعم ، إن عنده شيئاً هذا السافل الشيخ بدر . . إن رجفان أصوات الخطباء لا يساوي شيئاً بجانب دعائه .

قال نوري الأعمى الذي كان بجانبي :

ـ جميل أن إحدى عيني ليست موجودة . . لو كان لي عين أخرى لنزح كل الماء الذي جواي ولييست . لم تعد عين واحدة تكفي لكل هذا البكاء .

يكثر نوري الأعمى من الكلام . . يَبْيَضّ كثيراً . قال :

ـ لقد اكتشفت أمراً يا عمي . .

ـ ما هو يا بني؟

ـ ان ابن آدم يبكي عندما يسمع كلاماً لا يفهمه . قبل قليل طلع الأفندية علينا بخطب . . الله يرضى عليهم . . هل فهمنا شيئاً؟ كلا ، لكننا بكينا . والآن تلا الشيخ بدر دعاء بالعربية . . ماذا فهمنا؟ لا شيء . ومع ذلك جفت عيني من فرط البكاء ، حتى أنها ، الأخرى ، كادت تعمى . . هذا يعني أن البشر يبكون لكل ما لا يفهمونه؟ واضح أن الأمر هكذا تماماً .

كان العكروت الشيخ بدر يئن بحرقة . يمسح دموعه بكمية . . ولا يسكت . يكفي ولاه . . لقد نجحت في إبكائنا حتى انتهينا . . الديوث الكبير لا يسكت . . لا يفهم لغة العيون ولا الحواجب . . إلى أن شده أحدهم من ثيابه وهمس له :

ـ لقد نجحت ولاه . . يا شيخي الذي أبصق في لحيته . . لقد قتلنا البكاء . .

سمع الشيخ هذا فزادها على الآخر . كانت ضراعته وهو يقول الله الله تصل السماء .

أتم الشيخ دعاءه ، ونحن انتهينا . نظرنا وإذا نحن في بحر من الدم . ما هذا؟ كل من أخذ سكيناً ، يكبّر ويذبح خروفاً أو عجلاً . كان عليك أن ترى المقبرة يا سيد . . صار دم الذبائح للزنار . أصوات التكبير تهيج ، فلا يُستطاع الوقوف . نظرت وإذا الجميع يكبّرون فصحت بأعلى صوتي معهم . كان جليل المجنون يتخبط ويقول :

ـ الذي يحب الله فليعطني سكيناً!

ـ ماذا ستعمل ولاه خنزير؟

- دخيلك يا عمي . . لنشترك في الذبح . . فيها ثواب . أعطني سكينك . .

كل من حصل على سكين دخل في قطيع العجول والأغنام . الحيوانات المكتوفة القوائم تلعبط، ومن هنا ينقذف رأس، ومن هناك إلية نعجة . وهناك جثة تيس تقوم وتقعد . . لو قلت إنه ميدان معركة فهو ليس كذلك! أنا قربان الله، خلنا نخرج من هنا في الوقت المناسب . . سنغرق بالدم .

عندما انتهى العمل أخذ الضيوف يركبون العربات والباصات، جماعات جماعات، وينطلقون . ثم توقفت عند المقبرة ثلاث شاحنات . بدأ الرجال اللابسون جزمات مطاطية، القادمون من المحافظة، يحملون الذبائح على ظهورهم ويلقونها في الشاحنات . ما هذا أيضاً؟ يا هوه، ذبائحنا تذهب؟ اقتربت من أحد لابسي الجزمات المطاطية وسألته :

- ما هذا يا أخ؟ إلى أين تأخذون الذبائح؟

- ذبائح ماذا؟ . . . هذه يا أفندي ملك مسلخ المحافظة، ونحن قصابو المسلخ .

حُملت الذبائح وغادرت الشاحنات . كان الفقراء ينتظرون . هل بقي شيء؟ لا، لم يبق رأس واحد . ذهبت الذبائح ولم يبق سوى الدم .

ذهبنا إلى زوبُكْ زَادَه :

- إبراهيم بيك، ما هذا العمل؟

- ماذا تريدون يا كبار المجانين؟ هل كنا لندفع ثمن ذبيحة من ميزانية البلدية؟ لقد استأذنت المحافظة وأحضرت ذبائح القصابين لمدة ثلاثة أيام . عملنا ذبائح من جهة، وشفنا شغلنا من جهة أخرى . والآن يُحمل اللحم إلى الثلاجات . .

هذا العمل من اختراع زوبُكْ زَادَه نا . الكل تعلم منه هذه العملة . الآن، عندما يزور الكبار مكاناً ما، فإن حيوانات القصابين تذبح أمامهم على أنها ذبائح .

بعد برهة قال زوبُكْ زَادَه :

- سيقام في البلدة نصب . فلنجمع الأموال .

أموال للأحياء ما في . . فمن أين نجي بها للأموات؟

وبينما كنا نجمع الأموال بلغنا أن قبر الشهيد سيُفتح، وأن جثمانه سيرسل

للفحص . . ذلك أنه لم يعرف من هو الشهيد . ثم إن قيادة القوى الجوية صرّحت (لم تسقط أية طائرة من طائراتنا، ولم يستشهد أحد) .

كيف ذلك ونحن عملنا له جنازة ودفناه . . ، والآن سنقيم له نصباً؟ إذا لم يكن ثمة شهيد، قبر من هذا إذن؟ . .

وبحضور الطبيب الذي جاء من المحافظة، اجتمع المدّعي العام والقائمقام ورجال الجندرمه . فتحوا القبر، وجمعوا العظام، وحملوها إلى المحافظة . إن وجود شهيد تحت ترابنا شيء جميل . لكن من هو هذا الشهيد؟ . . . هذا ما سوف نعرفه .

فرض زوبُكْ زَادَه من أجل النصب، مبلغاً من المال على كل شخص . لكن، ألا يطلع زعيم المعارضة المحامي برهان ويقول .

- هذه سقاطة . . لا يجوز ذلك!؟

خنزير ابن خنزير المحامي برهان . حمداً لله على أن زوبُكْ زَادَه موجود فوق رؤوسنا، وعلى أنه قادر على مجابهته . . وإلا لكان سمم كل الناس وجعلهم معارضين .

أرسل إبراهيم بيك خبراً إلى المحامي برهان، يقول له :

- نحن نعرف أي منبوذ هو هذا السافل . فلا يحشرنّ أنفه في أمور الدين، حتى لا نضطر إلى سحب رخصة المحاماة منه!!

هكذا ياه . . شهيد هذا القدر قدره يحل ضيفاً على ترابنا! . . لقد وهب روحه للوطن، ونحن نستكثر عليه نصباً؟ كلها على بعضها خمسون قرشاً، أو ليرة، من كل شخص . غضب زوبُكْ زَادَه من برهان وقال :

- ألف ليرة مني كرمى للنصب!

انظر إلى نخوة الرجل . بعث الجابي إلى مكتب المحامي برهان، . فلم يكتف بأنه لم يدفع الخمسين قرشاً، لكنه طرده من على الباب . أَلحَقَ الأذى بمن؟ بنفسه . لم يكفه أنه لم يعد يساوي قرشاً بيننا، فأعلن عن نفسه أنه زنديق معادٍ للدين .

وفي يوم كنا مجتمعين، قال إبراهيم زوبُكْ زَادَه :

- أيها الأصدقاء . أعطوا اهتماماً لشغلة النصب . النصب عمل عظيم . لا يمكن لشعب أن يبقى بلا تقاليد . وما التقاليد؟ التقاليد تعني مقبرة، مزاراً، أعمالاً قديمة . .

فهمتم؟ فأين مقبرة هذه البلدة، مزاراتها؟ لو جاء غريب وسألكم (أين مقبرتكم؟)، واكتشف عدم وجودها، ألا يصبح من حقه البصاق في وجوهكم؟ نحن أتاتوركيون صفوة، نمشي في مسار حضارة أتاتورك.. لكن الشهيد ومقام الشهيد شيء يختلف. لو كان أتاتورك حياً، ودرى أننا نقيم مقبرة، أما كان قال (عافاكم)؟.. هيه يا أتاتورك العظيم.. ليتك طهرتنا من الملحدين أمثال برهان.. فوائد المقبرة كثيرة يا سيدي.. ليكن في بلدتنا نصب ومقبرة. إن هذا يُعلي من شأن بلدتنا، ويجلب السياح. ما سيصرفه أصحاب العلل والبلاوي في ترحالهم مسير ثلاثة أيام لمقابلة شيخ عربي، ألا يمكن تحويله إلى المزار؟ أليس حراماً ركوبهم الطريق لكل هذه المسافة؟ ما دام عندنا ديمقراطية، فإن المدرسة ضرورية والمزار ضروري، لكل منها زبائنه. ما قولكم؟

ماذا يقال في الكلام الحق؟ لسان الرجل قوي. كأنما العسل ينسكب من فمه. فهل يستطيع الملحد برهان مجابهة واحد مثله؟

بعدما فرغ من كلامه هذا أضاف:

- ألف ليرة مني كرمى للنصب!

ولاه. كم رقم هذه الألف؟ كلما جاءت سيرة النصب يقول:

- ألف ليرة مني كرمى للنصب!

فتظن أنه سيخرج النقود من جيبه ويقذفها في الوسط..، لكنه لم يدفع قرشاً.

في إحدى الأمسيات، وبينما كنت ذاهباً إلى مقر الحزب، شاهدت مبيض الأواني نوري الأعمى وجليلاً المجنون. كانت حالتهما حالة.. أَحَمرُهما أحمر وأزرقهما أزرق. ماشيان وكأنهما مصابان بداء الكَلَب. نظرت فوجدت أنهما ناويان نية عاطلة. الذهاب لأداء عمل خير لا يكون هكذا.

- ما الأمر ولاه؟.. إلى أين ذاهبان وكأنكما في طريق الشيطان؟

فأخذا يتمتمان فأيقنت أن نيتهما عاطلة.

- ما الأمر؟ احكيا لي. كأن وجهيكما شوندر.

فتمتما ثانية، فقلت:

- امشيا أمامي!

ودفعتهما قدامي إلى مقر الحزب. كان هناك إسماعيل أفندي عبد الله، وحمزة جفتفران أوغلو، وسطامش بيك. ما سمعته ضايقني. فلقد سمعت أن نوري الأعمى وجليلاً المجنون ذهبا إلى جانلاق، واشتريا سلاحاً. لا يوجد أفضل من صانعي السلاح في قرية جانلاق. أعانك الله على التصديق يا سيدي. المسدس الذي يصنعونه هناك لا يستطيع معمل السلاح العسكري في أنقرة صنع مثيله. صنع السلاح على نحو سري، وكأنه فرضٌ عليهم. عندما تحكي عن مسدس جانلاق ستجد أنه معروف في كل البلاد. كيف إن ساعة الشفنديفر ملكة الساعات؟ مسدسات هؤلاء رأس المسدسات. مرة استدعى صف ضابط في الجندرمه أمهرَ معلمي صناعة السلاح من قرية جانلاق، وقال له:

- لقد (تَطَعْوَجَ) مسدسي أثناء تجوالي. خذه أصلحه، وأعده إلي.

في اليوم التالي رجع المعلم ومعه ثلاثة مسدسات، كل واحد مثل البنت. قال:

- سيدي. لقد أصلحت مسدسك ووضعته بين مسدسين صنعتهما بنفسي. لكنني لم أعد أعرف أيُّها لك. هاالمسدسات أمامك، فخذ مسدسك منها!

نظر الصف ضابط، ودقق النظر، فلم يستطع تمييز مسدسه. للمسدسات الثلاثة أفاريز جيدة جداً، تتلامع وكأنها طالعة من تحت الحجر الآن..

- ولاه، خنزير ابن خنزير. ما هذا؟ أليس من حقي الآن زجُّك في السجن بتهمة التزوير؟ ولاه. إنها متطابقة مع إنتاج معمل السلاح العسكري.. لا يمكن معرفة الحقيقي من المزور منها.

فقال معلم الأسلحة:

- اختر الذي يعجبك وخذه.

أهالي جانلاق هكذا: من سن السابعة حتى سن السبعين يصنعون أسلحة للتهريب.

عندما سمعت أن نوري الأعمى وجليلاً المجنون قد اشتريا مسدسين من جانلاق، توسوست. حاولت أن أضغط عليهما فاقتربا مني:

- كرمى لله يا إحسان أفندي، لا تذع السر. اتركنا ولا تعق سبيلنا.. إننا ذاهبان في طريق عمل خيري.

- ولاه. ليس من عادتكما فعلُ الخير. ماذا في الأمر؟..

- قلنا نخدم هذه البلدة.. أرجوك لا تعطلنا.. ها مسدسان، وها عشر طلقات.. سنمحو عديم الناموس زوبُكْ من الوجود، وننقذ شرف بلدتنا.

- عافاكما! إن ما ستقومان به، في الحقيقة، عمل خير. لكن توقفا قليلاً وخذا نفساً..

دخلت الغرفة الداخلية حيث الأصدقاء. حكيت لهم ما جرى، فقال جفتفران أوغلو:

- طوال سنتين وهو يشلّح هذين الغفيرين. لم يبق بوسعهما سوى قتله.

وقال إسماعيل أفندي عبد الله:

- ليتك لم تأت بهما..، لكنا، إذ تصبح بلدتنا بلا زوبُكْ، ارتحنا.

وقال أمين أفندي:

- أنا لم أزعل على زوبُكْ، بل على هذين المسكينين. سيتعفن جسداهما في السجن.

وقلت:

- لا يملك أي منهما أي نقود.. لقد دفعا آخر ما لديهما في شراء المسدسين والطلقات..

قال جفتفران أوغلو:

- مارأيك بأن نتظاهر بأننا لم نسمع ولم نرى شيئا؟.. لم نر نوري الأعمى ولا جليلا المجنون. وأنت لم تصادفهما في الطريق.

فرغ من كلامه، نظر إلى أمين أفندي فوجد نظراته غير مريحة.. كان واضحاً أنه سيزمق ليوصل الكلام إلى إبراهيم بيك. وإذّاك اتخذ وضع الجد على نحو مفاجىء. قال:

- دعونا من المزاح يوه.. ولنفعل ما يتوجب فعله. هل أصاب الجنون جليلاً المجنون من جديد؟

لنسرع إلى إبراهيم بيك ونحذره. ما رأيكم؟

فقال مرتضى أفندي سلمه الله:

- ما أعرفه هو أن جليلاً المجنون هذا خنزيرٌ مهبول لا يمكن لجمه. إذا صمم على شيء فإنه ينجزه.. لذلك يجب أن نختار ثلاثة رجال من بيننا ونرسلهم إلى زوبُكْ زَادَهْ كوفد.. ولنر كم من النقود ابتز من نوري الأعمى وجليل المجنون، ونطالبه بإعادتها إليهما.

هكذا. لقد ساعدت الظروف السفيه زوبُكْ، فاتخذ من هذين البائسين غنمة حلوباً وراح يحلبها.

وقع الاختيار على أمين أفندي وحمزة بيك، وعليّ. قلت لنوري الأعمى وجليل المجنون:

- لا تتحركا من هنا. سنذهب إلى إبراهيم بيك. ما هو حقكما عليه؟ ونحن نسترده لكما.

فقال نوري الأعمى:

- دخيلك يا إحسان أفندي. الكافر سيخدعكم ويشلحكم سراويلكم ويأخذها.. إنه لا يفهم لغتكم.

فقلت بلهجة الكبار:

- اسكتْ. كيف تقول هذا؟.. خلّ كلامك على قدك!

بالنسبة للتسكيت، أسكتُّهما. لكن كان في داخلي شيء ينهش. نعم، لو عرف زوبُكْ زَادَهْ نيتنا لحول الموقف قبل أن نفتح أفواهنا، ثم شلحنا.

قال جفتفران أوغلو:

- دخيلكم، أيها الأصدقاء.. لنقفْ متماسكين، ولنترك أيدينا في جيوبنا. لننتبه لمحافظنا.

في الطريق خططنا ما سنقوله لزوبُكْ زَادَاهْ. سنقول له:

- زوبُكْ! ما هذا الذي تمارسه على الناس يا واطي؟ لقد عملنا منك رئيساً، فقعدت على رؤوسنا كبلاء بشرابة! ما الذي كان سيحصل لولا أن لحقناك؟ كان نوري

الأعمى وجليل المجنون سيرسلانك إلى جنة الحمير. الحمد لله على أننا لحقنا فأصلحنا الأمر وأنقذنا حياتك. لكن يبدو أنهما لا ينويان الرجوع عن نيتهما. سيطرحان جثتك أيضاً. فأعِدْ إليهما نقودهما، أو يقومان بعملهما! ما هذا الذي تعمله؟ لم يعد حزبنا يساوي قرشاً، من ألاعيبك التي تدوِّرها. ها الانتخابات العامة اقتربت، فما الذي سيحصل؟.. أطلع النقود بسرعة.. وليكن في علمك أننا اتفقنا مع الأصدقاء على طردك من رئاسة البلدية، إنقاذاً للحزب.. لقد أوْفَدَنا الأصدقاء في الحزب إليك... وهذا ما عندنا.. والباقي فكر فيه أنت..

هذا ما رسمناه. لكن، عندما وصلنا باب بيت زوبُكْ زادَه، وضع أمين أفندي يديه على بطنه، وقال:

- دخيلكم. أنا مزنوق. أمعائي تعبانة. سأذهب إلى مراحيض المسجد وأعود.. أدخلا أنتما الآن!..

- لا يصح هذا. تعال، يمكنك دخول المرحاض في الداخل.

- ياهوه.. ليس هكذا. بعد إلقاء السلام هل يُذهب إلى المرحاض؟

غضب جفتفران أوغلو من أمين أفندي ودهقه إلى الداخل. وصلنا ناحية زوبُكْ زاداهْ وأيدينا في جيوبنا. قال حمزة بيك:

- تماسكوا هه. تماسكوا. لا تخلوه يدوِّسنا على الرطب.

فقال أمين أفندي:

- أجل. يجب أن نثبت.

فقلت:

- لنتراصّ، ولا نتفرد. في الاتحاد قوة. يرمي عديم الناموس هذا الآن كلمة، فيوقع بعضنا ببعض، ويجعل بعضنا بسكين والبعض الآخر بدماء.

- مرحباً إبراهيم بيك..

لا يخرج منه صوت ولا نَفَس. لعله رآنا فمات من شدة الخوف؟ رفع رأسه ببطء، والتفت نحونا. ما هذا؟ وجهه مبلل بالماء. عيناه مثل أقداح الدم.. كان يبكي. يا ترى ماتت أمه أو عجله وما لنا خبر؟

- مرحبا. أهلاً وسهلاً يا أعمامي.

قالها.. لكن صوته كان بلا روح.

- خير إن شاء الله يا إبراهيم بيك. ما الأمر يا خيّ؟ ما بك؟

- ماذا يعني.. كما تعرفون.. الموت من عند الله.. لكن قلب الانسان لا يحتمل.

- بسلامة رأسك.

- بسلامة رؤوسنا جميعاً..

مات لنا أحد يا ترى ونحنُ لم ندر؟ لعل واحداً من كبار رجال الحزب قد مات وأذاعت الإذاعة الخبر؟

تسيل دموع إبراهيم بيك وكأنها خيط. قلب من يراه يتقطع. رجلٌ هذا القد قده يذرف الدمع كالنسوان ويتشهشه كالأطفال. تألمنا بعبارة (بسلامة رؤوسنا جميعاً!) فخمَّنا أن الإذاعة قد بثت نبأ وفاة رجل لا يمكن ملء فراغه.

لكزني أمين أفندي التاجر بكوعه، وقال:

- بالله. ابدأوا الكلام.

- الكلام للكبير أولاً. تفضل أنت أمين أفندي..

- لا يجوز. عيب. الكلام يبدأ من عندك. أنت صاحب علم وتربية. لقد كنتَ في الجيش برتبة صف ضابط، أما أنا فقد كنت مجرد مجند. عندما يحضر صف ضابط فإن الكلام لا يبدأ من عند مجند.. بالله عليك تفضل.

في الطريق خططنا ما سنقوله. لكننا لم نتفق على من الذي سيبدأ الكلام. همست لجفتفران أوغلو:

- شرِّفْ حمزة بيك. أنت أقدم مني في الحزب، وأنا أحترم القِدَم!

وبينما نحن نتجادل في الذي سيبدأ الكلام، وإذ بزوبُكْ زادَه يبدؤه قائلاً:

- هذه البلدة تعيش حرمة الشهادة والشهداء.

- لا شك في ذلك إبراهيم بيك.

- الذين يهبون أرواحهم للوطن.

وأخذ صوته يرتجف ويتقطع من الشهشهة.

- في سبيل البلاد والشعب.. و..

واستمر يبكي ويجعر.

- رحماك يا إبراهيم بيك.. يجب أن نموت مع الذي مات..

- كم شهمًا!.. كم شهمًا مثله هنا؟

كأن قبضة أمسكت حناجرنا. أنا قلبي رقيق، لا يحتمل رؤية رجل يذرف الدمع.. فراحت عيناي تدمعان. قلت لنفسي «دخيلك يا ابني، يا إحسان، إمسكْ حالك».. لكن، دون جدوى.. كأن شيئا قبض علي فانتقل الألم إلى رأسي. لوكنت بكيت كما يجب لارتحت.. لكنني أقول (عيب)، وأتمالك نفسي.

- كل شبر من تراب هذا الوطن مُرَوّى بدم شهيد، و...

عيناه تذرفان كنبعين. تبلل منديله فأخذ خرقة الجلي.

ارتخى جفناي. نظرت لأرى ما إذا كانوا يلاحظونني وأنا أبكي، فوجدت حمزة بيك يمسح دموعه بطرف جاكيته، وكان المسكين أمين أفندي يمسح أنفه.

- الشعب.. شهداؤه.. كل شبر من ترابه..

كلما تذكرته أفقد توازني. نحن إذن أمام قضية الوطن والشعب... لم نستطع إمساك أنفسنا فرحنا نجعر.. إبكي يا عين.. إبكي.. انكفأنا على الوسائد وبكينا.. بكينا دماً بدل الدموع، والدمع صار سيلاً.

كنت أبكي، وفي الوقت نفسه، أقول لنفسي:

- امسك حالك ياه.. إنها لعبة جديدة يلعبها الكلب زويُكْ.. واضح أنه سيخوزقنا.. ما الذي يدفعنا للبكاء؟

لكني لم أستطع. لو كان أمامه، وهو يبكي ويرجف صوته، شاهدة قبر، لدبت فيها الروح، وبكت.

جفتفران أوغلو إلى جواري. قال لي:

- لقد زنقنا من جديد.. لو نستطيع ضبط أنفسنا.

أجل. لو نستطيع ضبط أنفسنا. من فرط البكاء لم نَصْحُ. لم أر مثل هذا في حياتي، ولم أسمع بمثله..

بكينا بكينا.. وأخيراً، من بين الشهشهات، أخرج صوتاً راجفاً كأصوات المطربين المَنايك، وقال:

- الشهيد يهب روحه من أجلنا، ومع ذلك ثمة بيننا من يرى النصبَ كثيراً عليه..

تفو.. يا حرام على رجولتنا.. ما النقود؟

فأخرج أمين أفندي كيسه بسرعة، سحب منه خمسينية، ورماها في الوسط. حمزة بيك قذف أم المائة. أما أنا فقد كنت رفعت كل نقودي ولم أُبقِ سوى قطعتين أمهات العشر ليرات. قلت:

- ليس معي غيرهما.. أَدْفَعُ الباقي فيما بعد..

قال جفتفران أوغلو:

- أشعلت النار فينا إبراهيم بيك.

وقال أمين أفندي:

- مهما دفعنا فهو قليل.

يقول زويُكْ زَادَهْ (وطن ويبكي).. (شهيد) ويبكي.

خرجنا من عنده ونحن نكفكف دموعنا. اتجهنا إلى مقر الحزب. بادرنا مرتضى أفندي:

- ما الأخبار؟

فقال جفتفران أوغلو وهو يمسح عينيه وأنفه:

- نشكر الله. سُاهمنا في مشروع النصب.

- لتخرب بيوتكم وتنطفي نيرانكم.. أي نصب ولاه؟

صحيح. نحن لماذا ذهبنا إلى زويُكْ؟ نسينا. قال أمين أفندي:

- بالله لماذا ذهبنا؟

وهنا دخل رضا بيك كاتب القائمقام وقال:

- هل سمعتم بما جرى؟

ـ ماذا جرى؟

ـ لقد ورد تقرير العظام التي أُخرجت من القبر. لم يكن هيكل انسان.

ـ ياه.. اذن؟

ـ إنه هيكل دلفين. فحص الطبيب الشرعي العظام وأصدر تقريره، وابتدأ التحقيق. بينما كانت عربة تحمل دلفيناً مارةً من هنا، تفسخ الدلفين من الحر، فَرَمَوْهُ. أكلت لحمه الذئاب وبنات آوى، فلم يبق سوى هيكله. في الأساس لا يوجد لا شهيد ولا مهيد.. عندما أقيمت المراسم هنا، استغربت أنقرة. لم تسقط طائرة حتى يكون شهيد. الطائرة نفثت دخاناً أسود، وانخفضت خلف الخضر لك، فظن مهابيلنا أنها سقطت.

ـ ماذا تقول؟

ـ ما قيل قيل..

التفتنا جميعاً إلى الشيخ بدر الفهمان:

ـ ولاه.. يا شيخ، يا واطي.. لقد أقمت فينا الصلاة على دلفين.. يا رذيل، ودعوت أيضاً؟

يا ترى كل دماء الذبائح راح سدى، وكل بكائنا راح سدى؟

هكذا يا سيد. لكن المقبرة أقيمت. المقبرة التي على طريق الخضرلك، مقبرة (يونس بابا)* هي نفسها المقبرة.. ولقد صارت مزاراً يؤمه المرضى والمعتوهون والنساء.

هل عبثاً قيل (هكذا عجل من هكذا بقرة)؟ عندما يكون مهابيل من أمثالنا، فإن وجود زوبُكْ واحد مثل **زوبُكْ زادهْ لايكفي**.. يضحكنا ويبكينا..

ابكي يا عين.. ابكي..

---

* ـ يسمى الدلفين سمكة النبي يونس أيضاً. ومن هنا جاءت تسمية (يونس بابا) ـ المترجم.

كيف أكل زوبُكْ زادهْ المحامي برهان بيك

ما رواه أمين أفندي التاجر:

أعمال هذا الرجل تخل العقل يا سيد. أحداث لا يمكن حدوثها، لكنها حدثت، فماذا نعمل؟

حلت الانتخابات، ونحن معدودون من التجار. مع معرفتنا لحدودنا، فنحن لا نمنع الخدمات عن أهلنا، وعن أهالي قرانا، بقدر المستطاع.. الله يشهد، السُلَف التي نمنحها للقرويين، البنك نفسه لا يمنحها. قوة الحزب من هذا، إذا أتى أيُّ قروي وطلب سلفة، أو شيئاً بالدَّين..، فإن عبارة (ما في..) غير واردة عندنا. وإنما نقول: (تفضل يا أخ، خذ!). مليح؟.. ومن هنا فإن حزبنا يرتكز على الشعب.

إلا أن ذلك الزنديق برهان ما ينفك يسمم عقول أبناء بلدتنا. وبسببه أخذ الناس يديرون رؤوسهم عنا. تسأل الواحد:

ـ أي يا آغا، الانتخابات أقبلت، لمن ستعطي صوتك؟

فلو كان في السابق لقال:

ـ نموت ولا نتراجع.. نحن لا نعرف سوى حزب واحد.

أما الآن فيقول:

ـ عندما تهب الريح يا آغا، نعرف أين سيستقر طرف الثوب.

لماذا يتدللون؟ إنها من ذلك الخنزير المحامي برهان.

الانتخابات على وشك أن تحين، وفي رؤوس الناس صراع. قلنا نجلس ونتفق على خطة معينة. اجتمعنا في مقر الحزب منذ الصباح. الكل كان موجوداً عدا زوبُكْ. وبدونه لا يمشي شيء. بحثنا عنه في بيته، هنا، هناك.. لا أثر له.

قال مرتضى أفندي:

ـ إذا لم يكن إبراهيم بيك موجوداً، فلن تستطيع نحن مجابهة المحامي برهان.

كلامه صحيح. نعم، لقد اجتمعت فيه النقائص كلها، لكنه في العمل الحزبي فعّال جداً.

قال سطلمش بيك:

ـ لا تخافوا. زوبُكْ زادَه يأكل المحامي برهان أكلاً. والله يأكله نيئاً، وأمام أعيننا. يلعب عليه لعبة فيحوله إلى مرفوس بغل!

ـ نعم، يأكله. يأكل المحامي برهان، ومن المحتمل أن يبتلعه ابتلاعاً.

عندما قيلت هذه العبارة نط الشيخ بدر الفهمان وقال:

ـ تمام! المياه الجارية تقف. لكن أين ذلك العديم الناموس زوبُكْ؟ إنه ليس موجوداً.

وبينما نحن واقفون ننتظر، أُلقي كلام في الوسط. منذ زمن بدأت الأسلاك المشدودة على أعمدة الهاتف تُسْرَق. هذا ليس جديداً علينا. كل يوم تُصلح التمديدات، وكل يوم تسرق الأسلاك. لم تعد المحافظة قادرة على تلحيق أسلاك هاتف. ومدير الهاتف يتذمر قائلاً (ما هذا يا هوه..، بالأسلاك التي نعطيها لهذه البلدة نستطيع تمديد خطوط هاتف لكل بيت في تركيا!).

في وقت مضى لم تكن سرقة أسلاك الهاتف تخطر ببال أحد. اليوم القضية في منتهى السوء.. الذي يقطع سلكاً يأخذه لربط جاروخ، دكّة بنطلون. كل شيء صار من أسلاك الهاتف. دكك سراويلهم وزمامات أكمامهم من أسلاك الهاتف. أربطة الأحمال، الكدانات، نير الحراثة، دنكل العربة.. من أسلاك الهاتف. إذا تصدعت خشبة العمود في بيت أحدهم تراه يقطع سلك الهاتف ويجلّسها. إذا حسبتَها فسيطلع معك أن نصيب الفرد الواحد من الأسلاك خمس بكرات. والحكومة، من جهتها، تضغط لإيقاف عملية سرقة الأسلاك.

قال مرتضى أفندي سلمه الله:

ـ كل هذه السرقات من تحت رأس جليل المجنون.

فسأله جفتفران أوغلو:

ـ لماذا؟

ـ لماذا يعني يا خيّ.. منذ أن عُيِّنَ جليل المجنون موظفاً لحماية أسلاك الهاتف، وسرقة الأسلاك تكبر وتتوسع. هل كان بيننا من يرفع رأسه وينظر نحو أسلاك الهاتف، ببال مَنْ كانت تخطر يا خيّ؟ منذ أن عين جليل المجنون موظفاً لحماية الأسلاك صار الكل يهاجمها، قائلاً لنفسه «أسلاك الهاتف شيء ضروري، ولهذا فإنهم يحرسونها!»، وأخذوا يسرقونها.. الخنزرة كلها من جليل المجنون.

ـ صحيح. لولا تعيينه موظفاً لحماية الأسلاك لما كانت خطرت ببال أحد سرقتها. من أين طلعوا لنا بحراسة الأسلاك؟ وماذا جرى لدوريات حماية الخطوط الحكومية؟

تدخل سطلمش بيك قائلاً:

ـ إن الذي عَيَّنَ جليلاً المجنون في حماية الأسلاك هو زوبُكْ زادهْ.

فأُقفل الحديث عنها.

لم يكن ثمة ما يدل على أن زوبُكْ زادهْ سيأتي. وبدا أن إيجاده بالبحث عنه.. الرجل دكة سرواله رخوة، فمن يدري في ماخور أي شرموطة هو..؟

تفرقنا بعدما اتفقنا على اللقاء في اليوم التالي.

كان المساء على وشك أن يحل، وأنا في طريقي إلى شريكي بهدف تفقد قطيع الماشية، عبرت المقبرة فلاحظت حركةً في الخندق. اتجهت صوبه لأرى ما بداخله، لعله ثعلب، ابن آوى، نمس.. نظرت وإذا جليل المجنون ونوري الأعمى واقعان فيه.. تبين لي أنهما شربا عرقاً.. شربا زجاجة ونصفًا أخرى. قلت:

ـ ولاه.. يا عديمي الناموس. ألم تجدا مكاناً للصَّفا غير المقبرة؟ لتشربا زفتاً.. سفلة!

لاحظت بين رُكْبَتَيْ جليل المجنون قطعة سلاح:

ـ ما هذا ولاه.. هل خرجتما لقطع الطريق؟

كان نوري الأعمى ثملاً تماماً، وقد التف بمعطف طويل وراح يتمتم بأشياء غير مفهومة.

قال جليل المجنون ولسانه يتعثر:

ـ دخيلك أمين أفندي.. لا تَلُمْنا. نحن رجال ونعرف واجب الخبز والملح. ولقد شهدنا من فضائلك الكثير. كرمى لله لا تُرجعنا عن هدفنا.

- وما هو هدفكما؟ قطعُ الطريق؟
- معاذ الله . . ليس قطع الطريق هدفنا .
- فما هو إذن؟ انهض!
نهض . لكنه لم يستطع الوقوف على قدميه من شدة السكر، فوقع . لا بد أن يكون العرق الذي شربه قد طلع إلى رأسه دون المرور بمعدته . قلت:
- لا تسحل قدميك سحلاً . . إمْشِ !
لكن عبثاً . قال:
- يا عمي . لقد أقسمنا أنا وصديقي نوري الأعمى على أن نزهق روح **زوبُكْ زادهْ** . سنمحوه نهائياً . لا أحد يستطيع الوقوف في طريقنا . لو خرج المرحوم أبي من قبره واعترض طريقي لرميته ودسته وعبرته . لذلك ابتعد من طريقنا، ولا تمنعنا من فعل الخير. أنا احترمك . . أبوس يديك وقدميك، ابتعد من طريقنا.
نظرت فوجدت أن الشغلة ما فيها مزاح . قلت:
- لتكن غزوتكما مباركة . لكنّ أحداً من هذه البلاد لم يقدر على مجابهة هذا العديم **الناموس زوبُكْ زادهْ**، فما الذي تستطيعانه وحدكما يا بني؟
- إننا نستطيع انجاز عملنا وحدنا . بس اتركنا، وتظاهر بأنك لم ترنا .
- طيب . لكن ما الأمر؟ ماذا حصل؟
فقال جليل المجنون:
- شلف **زوبُكْ زادهْ** عليّ شلفة . قال: سأجعلك موظفاً في حراسة أسلاك الهاتف[1].
عندئذ انبطح جليل المجنون، وقد جن جنونه، على قدمي زوبُكْ (اوجدْ لي عملاً) فقال له:
- عينتك حارساً على تمديدات الهاتف . علق سلاحاً بظهرك واحرس الأسلاك .
رأى الناس جليلاً المجنون متقلداً **السلاح يحرس أسلاك** الهاتف، فباشروا

١ ـ في الأصل: (حماية الغابات) . . ويبدو أنه خطأ مطبعي . لاحظ السياق . المترجم .

بسرقتها . وإذّاك قبضت عليه الجندرمه:
- ولاه، حارس أي تمديدات؟
وأنزلوه تحت العصا . ضربوه مثلما يضرب الحمار . . ، هنا يوجعك هنا لا يوجعك . . حتى عاف سماه!
قال لي:
- تفسّخت قدماي . لم أعد أستطيع الوقوف عليهما من شدة الضرب .
وإذا بسقوطه، عندما حاول الوقوف، كان من تفسخ قدميه، وليس من شدة السكر كما حسبت.
صرخ جليل المجنون وهو تحت العصا «ولاه، كفارا! . . **زوبُكْ زادهْ هو الذي** عيني» . . لكن مَنْ سمعه . استفسروا من زوبُكْ زادَهْ فقال لهم «ليس لي علم بهذا، وهذا يعني أنه يستخدم اسمي ليشلّح هذا وذاك . . شوفوا عديم الناموس، كرمى لخاطري زيدوا لهذا الكلب خمس عشرة عصا أخرى، علها تعيد عقله إلى رأسه» .
فقالت الجندرمه:
- خذ هذه العصا من أجل خاطر زوبُكْ زادَهْ!
وظلوا يضربونه حتى تفسخت قدماه .
عندما أطلق سراح جليل المجنون من المخفر، تحول إلى بارود يريد إحراق الدنيا. لكن ما نفع ذلك وقدماه لا تقويان على حمله وتعملان زُنَقْ زُنَقْ؟ اتجه إلى إبراهيم بيك، ولأنه لم يكن قادراً على الانتصاب، زحف أمامه . رآه إبراهيم بيك يزحف هكذا فقال له:
- أستغفر الله . انهض على قدميك يا أخي . نحن أسدينا لك خدمة باسم الانسانية، فهذا يعني انبطاحك على قدمينا؟ أستغفر الله . نعم لقد أنقذتك من براثن الجندرمة! بمجرد أن سمعتُ باعتقالك سارعتُ إلى الاتصال بسيادة قائد الجندرمه، وقلت له (هذا من رجالي، وقد ارتكب حماقة فاتركوه) . . ولهذا فقد دغدغوك قليلاً ثم تركوك . ولولا ذلك لكان جزاؤك كبيراً . . لو كانوا أحالوك إلى المحكمة لرحت فيها عشر سنوات . أحْمَدْ ربك على أن المسألة قد انحلت بعصا أو باثنتين . . لا حرمني الله منهم، عدوا لي خاطراً فتركوك . . إن ما قمنا به عمل خير . صدق أو لا تصدق، الأمر عائد لوجدانك .

قال جليل المجنون:

ـ سمعت هذا الكلام فذهلت. هكذا إذن؟ الرجل ينقذني من سجن عشر سنوات؟ ياه! اسمه في كل مكان. وأنا في ذلك الذهول، ألا أنبطح مقبلاً كُمّيْ بنطلونه المغبرين، داعياً له (ليرض الله عليك، ولا يحرمنا منك.. ليدمك على رؤوسنا)؟... يعيننا رئيساً على حراس الأسلاك، ثم يجعل الجندرمه تعصرنا وتستخرج عصيرنا.. ومع هذا ندعو له؟.. واه يا عقل الجحش!

على إثرها جررت نفسي إلى ساعدي الأيمن نوري الأعمى:

ـ دخيلك يا ساعدي الأيمن.. أنظر إلى حالي.

وحكيت له ما جرى لي.

وجدت نوري الأعمى أشدّ حماساً مني. قال لي:

ـ يا ساعدي الأيمن. لقد قيل الكثير والرجل لم ينكسر. إذا ذهبنا الآن لأخذ روح عدو الانسانية هذا، فإنه سيضغط علينا ويشلّحنا حتى سراويلنا الممزقة، ويتركنا حفاة عراة، جاعلاً إيانا مسخرة..

وما قاله صحيح. إذن، ما العمل؟ وصلت مع ساعدي الأيمن نوري الأعمى إلى قرار: أثناء سحب روح هذا الرجل يجب ألا يكون بجانبه بشر أو حيوان، ولا حتى كرسي. وذلك كيلا يستمد منه القوة ويدبر مقلباً. أليس كذلك؟ أجل، بتلك الطريقة لا يمكن التقاطه. لأنه إذا رجعت الأمور إليه، **فسيجد الخلاص في طرحات البيت**.. يجب الاستفراد به في الخلاء..

بعدما توصلنا إلى هذا القرار راقبناه وتتبعنا أثره.. حتى جئنا إلى هنا. فجأة لمحناه. كان راجعاً من (بلْدُوْز) لوحده. قال نوري الأعمى (بالله يا ساعدي الأيمن، سدد عليه).. لكن زبك زاده أحس بنا وراءه، فزمق ورمى نفسه في المقبرة. أصبح حصاره في المقبرة سهلاً.. لكن، وأنا أضع إصبعي على الزناد، صاح ساعدي الأيمن نوري الأعمى:

ـ انتظر أرجوك!

ماذا جرى؟

ولاه.. إي أنا رأيته بعيني العمياء، وأنت، بكلتا عينيك لا تراه؟ انظر، لقد أقام الصلاة.

نعم. لقد وقف على رأس القبر وأخذ يصلي.

قال ساعدي الأيمن نوري الأعمى:

ـ أبْعِد المسدس.. النار لا تطلق على رجل يصلي.. أتريد أن تجعل من هذا الملحد شهيداً؟ عندها ستلعننا الناس. انتظر أرجوك.. عندما يفرغ من الصلاة نطخه في رأسه.

ـ لا، ليس في رأسه. لأن ذلك يميته بسرعة. لا أحب ذلك، ليمت ببطء، وخلنا نستلذ بالفرجة عليه. انتظر أنت. دعها علي. ستنتهي الصلاة وسنرى.

لكن الصلاة لم تكن لتنتهي. صار يركع ويسجد وينتصب دون توقف. يقول (الله أكبر) فتئن الجبال والحجارة.. يقول (سمع الله لمن حمده) بتهجد، فتردد الجبال صدى صوته. أقول

ـ يا أخي نوري الأعمى، ما هذه الصلاة يا ترى؟ هل توجد صلاة على هذا النحو؟ مرت ساعة وهو يصلي... تعال نخطف روح هذا الكلب برصاصة..

فيقول نوري الأعمى:

ـ مستحيل.. يا لطيف.. وإذا ذاع بين الناس أنه ضُرب وهو يصلي؟..

ـ طيب ما الذي سيحصل بعد؟ انظر، إنه يقول (الله أكبر) وكأنه يتغزّل، وما هذا إلا لكي يسمع الناس صوته ليخفوا لنجدته.

ـ لا يأتي لنجدته إلا من كان **متعطش لموته!**

ـ صلاة؟.. وأية صلاة في مثل هذا الوقت؟

ـ ربما كانت سُنناً!

ـ وهل ستستمر صلاة هذا السافل عشر سنوات؟ إنه لم يتجه نحو القبلة مرة في حياته.. فإذا كان ينوي قضاء كل الصلوات التي فوّتها خلال حياته، من خوفه من الموت، فقد يستمر عشْر سنوات.

والصلاة لا تنتهي بأي شكل.

- وماذا لو أصبح الصباح وهو يصلي؟

قال نوري الأعمى:

- الروح لا تزهق بين يدي الله.

- ما دام الأمر كذلك، فاذهب وهات لنا بطحتين من العرق نعبيء بهما رأسينا، ريثما ينتهي هو من صلاته.. الانتظار هنا في هذا الصقيع صعب.

قال نوري الأعمى:

- فكرة حسنة..

ومشى صوب البلدة. أحضر بطحتين، أنزلناهما إلى الخندق وبدأنا نشرب..، حتى رأيناك فوقنا يا عمي أمين.

روى لي جليل المجنون قصته ولسانه يتعثر، فسألته:

- وأين هو زويُك الآن؟

- هاهو.. هناك..

- أين، يا مُخنّى؟.. أين؟

- قبل قليل كان هناك.. لعله فَكَّ عندما جلسنا على العرق.. لاه..

وهذا ما حصل فعلاً. كان إبراهيم بيك يصيح (الله أكبر)، ليصطدم صوته بالجبال، وينعكس صداه ليخرج من يسمعه لنجدته. لكن أحداً لم يأت اليه. وعندما رأى النديمين وقد قعدا على العرق، قال لنفسه (الفرصة سنحت. يا الله).. وزيَّت قدميه.

جن جليل المجنون من جديد، وراح يضرب بيديه على جسمه ويصيح: آخ.

حضن نوري الأعمى رأسه براحتي يديه، فأصبحتا كعقدتين في وسط معطفه الطويل، وبدأ يشخر. فأخذت أركله وأقول:

- إنهض ولاه.

كانت ركلاتي على ما يبدو سريعة، فظن نوري الأعمى، وهو بين السكر والصحو، أنني واحداً من عناصر الجندرمه، فأخذ يهذي:

- أبوس قدمك يا حضرة العريف. التوبة. أنا لا ذنب لي. إن يدي لا ترتفع على

زويُك زادَانا في وقت من الأوقات. لقد جننت وتبعت الشيطان فأصبحت رفيق درب هذا العديم الناموس جليل المجنون. قلت له (لاتطلق عليه النار!)، لكن عين هذا السافل كانت محمرة، فلم يستمع إلي، فضغط على الزناد فأرى شبها كالسبع. امسكوه فأنا لا ذنب لي يا حضرة العريف.

كان يهذي دون أن يفتح عينه. سمع جليل المجنون كلامه فقبَّ ونزل فوق المسكين نوري الأعمى وراح يمعسه وكأنه سجادة في طريق. أحس الأعمى بالركل والتمعيس فظن نفسه في المخفر:

- دخيلك يا حضرة العريف.. واللهِ وباللهِ وتاللهِ إن الذي لوث يده بالدم هو جليل المجنون.. أنا نصحته، لا تفعل هكذا لا تتصرف هكذا..

تحول جليل المجنون إلى كلب كلبان وأخذ الزبد يفور من فمه وهو يمعس ساعده الأيمن حتى كاد أن يحوله إلى هريسة.

- كفى يا بني، كفى. لقد أتيتما وأنتما صديقان حميمان لتزيلا زويُك من الوجود.. فرحتما تقتتلان؟

هذا يعني أننا كنا ننتظر زويُك زادهْ في مقر الحزب لنتباحث معه، في حين كان هو في المقبرة يصلي صلوات نافلة.

في اليوم التالي عقدنا الجلسة.. دار الحديث حول موضوع المحامي الخنزير برهان. قال حمزة بيك جغفران أوغلو:

- نحن في هذه المسألة معتمدون على الله سبحانه وتعالى أولاً، وعليك ثانياً. تُنهي برهان هذا، وإلا فسوف لن تكون ثمة وحدة صف. لقد سمم الناس، وبالتالي فإننا لن نكسب الانتخابات بحال. ليس مهما ألا ننجح.. لكن إذا نجح الحزب في البلدان الأخرى ستصير قيمتنا في المحافظة قرشين، وسنتبهدل.

لزويُك ضحكة وسخة. لعق شدقه كما تفعل القطط بعد أن تلحس الصحون.

ضحك بوساخة وقال:

- هذه الشغلة اتركوها علي. نحن لا يرهبنا محام ولا غير ذلك. سنجعله رماداً، بعون الله، ونطشُّه على السهل.

ثم تصدّر وقال:

ـ دعونا من هذا. لكم عندي خبر. عمل خير سيعجبكم. سنرفع في البلدة مسجداً لا مثيل له، ولا حتى في مركز المحافظة. ستكون له مئذنتان، كل مئذنة بثلاث شرفات.. وثماني قبب. ستصل بين المئذنتين في رمضان حبال من مصابيح الكهرباء. داخل القبب سيُبطن بقماش آلطن يلدز[1].. وستبلط أرضه بالمرمر، وتُنمنم أبوابه وتُطعّم، وسيكون محرابه من المرمر الملون.. محراب مزخرف مُلَبّس.. ستكون مقاعد المشايخ من خشب الجوز. سيكون مسجداً يليق ببلدتنا، يفخر به مسلمونا.. قناديله المنورة كأنها العناقيد.

حكى حكى.. كان العسل يسيل من فمه. ثم سأل:

ـ ماذا قلتم؟ هل تريدون مسجداً كهذا؟

ـ رحماك إبراهيم بيك.. وتسأل؟

ـ ما دام الأمر كذلك فلتؤسس جمعية إعمار المسجد.

يا ترى كيف طلعت معه شغلة المسجد هذه؟ يبدو أن الصلاة النافلة لم تعجب زوبك، فقرر إقامة مسجد.

فرحنا بالمسجد، وكان أكثرنا فرحاً الشيخ بدر الفهمان. قال سطلمش بيك:

ـ لا تهزؤوا من سؤالي، من أين ستغطى كلفة إقامته؟

ـ الحصول على كلفة إقامته سهل. لو شاء المسلمون لأقاموا مسجداً تتسع قبته لكل سكان البلدة.

ـ طبعاً..!

ـ صحيح..!

ـ أي نعم..!

وافقنا دفعة واحدة. لا بد من وجود سر يعرفه زوبك زادة دوننا. يا ترى هل

١ ـ نوع من القماش الفاخر (النجمة الذهبية) ـ المترجم.

سيحصل كلفة إقامته من الحكومة؟

بعد هذا بدأنا العمل. وفي يوم اجتمع بنا زوبك:

ـ أيها الأصدقاء. إن إقامة المسجد عمل خيري، إنه ليس عملاً حزبياً أو سياسياً. لذا يتوجب على كافة المواطنين المساهمة فيه. المعارضون يحاجوننا قائلين (أنتم لا تعاملوننا كرجال، ولا تشركوننا في أي عمل).. أستغفر الله. نحن لا نميز بين معارض ومؤيد. لكن، ليكونوا رجالاً كما يجب. نحن لن نستأثر ببناء المسجد لأنفسنا أو لحزبنا. تعالوا نضع شغلة إنشاء المسجد بين أيدي المسلمين جميعهم، ثم ندعو المعارضين إلى جمعية إعمار المسجد.. ماذا تقولون؟

ماذا نقول؟ شيء جميل. يا ترى هل نزل نور من السماء على قلب الموسخ زوبك؟ هل ستكون شغلة المسجد هذه مناسبة للصلح مع المعارضة؟ شيء جميل.

انتشر الخبر في البلدة، وفي القرى.. ودُعي المخاتير.

اجتمعنا في يوم أحد في رابطة المعلمين. كان الاقتراح في البداية أن يعقد الاجتماع في مقر الحزب أو في البلدية. لكن إبراهيم بيك اعترض:

ـ لا يجوز. يجب ألا نخلط بين العمل السياسي والعمل الديني. نحن علمانيون. لنجتمع في مكان محايد، وليكن رابطة المعلمين.

وهذا ما حصل.

ازدحم المكان حتى كاد أن يتصدع. وفوداً وفوداً جاء القرويون. الذين لم تتسع لهم الرابطة بقوا في الخارج. كان الطقس لطيفاً. قام إبراهيم بيك بتمديد مكبرات الصوت العائدة للبلدية إلى الساحة. كل ما سيقال في الداخل سيصدح في أرجاء البلدة، وسيسمعه الناس أجمعين. امتلأت الساحة والبازار.. لم تشهد البلدة ازدحاماً كهذا من قبل.

في الداخل أُعطي مكان الصدارة للمعارضين. نبهنا ابراهيم بيك إلى ذلك من قبل. قال (أرجوكم. لنستضف المعارضين كما يجب). قبل أن يطفيء المعارضُ سيجارته نقدم له أخرى. والشاي والقهوة دائرتان. جلس برهان بيك في المقدمة وبجواره القائمقام. وفجأة تقدم زوبك زادة من المنصة وأخذ يتكلم. العسل يسيل من فمه.

قال لي إحسان أفندي الصف ضابط الذي صادف جلوسه بقربي:

ـ عند هذا الكلب زوبُكْ لعبة جديدة من ألعاب علي جنكيز. لكن ما هي؟ أنا لم أستطع إستنتاجها.

قلت:

ـ ولاه. يا خربان العقل. في قضية الدين أي لعبة يستطيع زوبُكْ زادهْ أن يلعب؟ العيب فينا نحن. قلوبنا فاسدة.. **كل مايقدمه لنا نجحده.**

ـ طيب، سنرى. عندما يلبس بابوجه سيتضح كل شيء. ليحمنا الله من رأس الخازوق المنجُر.

بدأ زوبُكْ زادهْ الكلام:

ـ كلنا أخوان في الدين ليس بيننا أي تفرْقة. لنتصافح ولنتحد. الوحدة الوطنية شيء عظيم، عظيم جداً. نحن علمانيون، نفصل أمور الدين عن أمور الدنيا. المعارضون أحباء الروح. السياسة بحث آخر.. لا يستطيع أحد التحدث عنها. عندما تحل الانتخابات نخرج من هنا، نتعارك ونتبادل الشتائم والسباب بقدر ما نريد.. لكن الأمر هنا يختلف. ها نحن نمد أيدينا للمعارضين. الآن عندي رأي سأعرضه عليكم جميعاً: قلت من قبل إن جمعية إعمار المسجد ستؤسس، ومثل هذه الجمعية تحتاج إلى رئيس صاحب عقل راجح، صاحب ثقافة، متعلم، مسموع الكلمة. وأحمد الله على أن هذا الرجل موجود بيننا. أخونا المحامي برهان واحد من الرجال الذين قلما عرفت بلدتنا مثيلًا له. إنه الأكثر قيمةً وعلمًا بيننا. أرجو من أخينا المحامي برهان أن يتقدم لترؤس جمعية إعمار المسجد، ويدلنا على الطريق، لنمشي خلفه جميعاً. المرجو من الأخ برهان التفضل بتقديم هذه الخدمة. والآن، أيها المواطنون الأعزاء، ماذا تقولون بهذا الكلام؟

علا التصفيق. تصفيق لا يطلع الرعد شيئاً بجانبه.. تصفيق في الأزقة، تصفيق في الساحة، تصفيق في البازار. البلدة ستتقوض من التصفيق، الزجاج ارتجّ. كانت تلك هي المرة الأولى التي شهدتُ فيها تصفيقاً بتلك القوة. القيامة قامت...، والناس يصرخون:

ـ يعيش إبراهيم بيك...

ويصفقون على نحو يصم الآذان.

كان الجد عرفان التسعيني، من فرط تأثره يبكي ودموعه تبلل لحيته البيضاء.

وقف الشيخ بدر الفهمان وقال:

ـ نشكر الله على أننا شهدنا هذه الأيام. لم يبق فرق بين معارض ومؤيد. لقد صرنا جميعاً اخواناً في الدين.

لم أنتبه للزمن. استمر التصفيق ربع ساعة، ثلث ساعة؟.. تقدم المحامي برهان نحو الميكروفون بهدوء، زمّ حاجبيه، ونشّف وجهه الكالح. ولاه واطي برهان، ماذا ستعمل؟.. قال:

ـ أعزائي المواطنين. أشكركم على ثقتكم بي. سلمتم! لكنني لن أستطيع القيام بهذه المهمة.. ذلك أنني..

فارتفع الصراخ حتى أن أحداً لم يفهم ما أضاف من كلام. وعندما توقف الصراخ قال المحامي برهان:

ـ أولاً أنا لا أجده من الصواب إنشاء مسجد في بلدتنا..

فارتفع الصراخ من جديد:

ـ وووو...

ـ عديم ناموس ولاه!...

ـ زنديق!...

ـ ملحد!...

قال المحامي برهان:

ـ من فضلكم، دعوني أوضح لكم لماذا هو ليس من الصواب إنشاء مسجد..

ـ لا لزوم!

ـ انقلع..!

ـ انزل..!

ـ انسحب!!!

تقدم إبراهيم بيك زوبُكْ زادَهْ من المحامي برهان، سحب الميكروفون منه وقال:

ـ أيها المواطنون المحترمون. أعزائي، أبناء بلدتي.. نحن نحترم أي فكر كان..

ولربما كان عند المحامي برهان رأي.. فأعطوه فرصة ليقوله.. خلوه يوضحْ لنا لماذا هو ليسَ معنا في فكرة بناء المسجد، ولتُفْصَلِ الغنمة السوداء عن الغنمة البيضاء، ولتظهر نوايا الجميع.

ثم صاح:

ـ لم تبق في العالم حقيقة يارب!

فظن الناس هذا دعاء، فصاحوا:

ـ آمين!

وبعد ذلك تقدم المحامي برهان وقال:

ـ يا أبناء بلدتي. إذا كنتم تريدون أن أسكت سأسكت..

ـ بل اِحْكِ.. اِحْكِ ولاه زنديق!

ـ احك يا عديم الإيمان.. يا مارق!

ـ أعزائي، أحبائي، أهالي بلدتي.. إن المصائب التي تنزل على رؤوسنا، إنما سببها الجهل. لقد عانينا من الجهل الكثير، وما نزال نعاني منه. تقولون بضرورة بناء مسجد. عال! على رأسي. لكن ما لزوم المسجد؟ ألا يوجد في بلدتنا مسجد؟ هل إن مسجدنا يمتلىء بالمصلين ويطفح؟ نحمد الله على أن مسجدنا موجود من أيام جدودنا. إذا كان قديمًا أو متهدماً، نصلحه.. أنا، من جهتي، أرى أننا لسنا في حاجة إلى مسجد.. ليس له لزوم. تعالوا نؤسس هذه الجمعية، لكن ليس من أجل بناء مسجد، ولكنْ مدرسة. تعالوا نبنِ مدرسة.

ارتفعت أصوات الاحتجاج:

ـ المسجد لازم.. والمدرسة..

ـ أُسكت أُسكت..

ـ في بلدتنا مدرسة واحدة، وهي لا تشبه المدرسة. إنها لم تعد تتسع لأطفالنا. أطفالنا يتكومون فوق بعضهم. في كل صف سبعون تلميذاً، ثمانون تلميذاً.. ما يقوله

المعلم لا يصل إلى التلاميذ. يمشون ساعة بتمامها على الأقدام حتى يصلوها. أنسيتم كيف مزق (الذئب) ابنَ الأرملة دودو، وهو في طريقه إلى المدرسة. خلّونا نبنِ مدرسة في الطرف الآخر من البلدة. لنجمع النقود، فإذا لم يكفنا ما جمعناه نقول للحكومة (هذا الذي استطعنا جمعه، فقدموا لنا الباقي).. تعالوا نرجع عن فكرة المسجد ونبنِ مدرسة عوضاً عنه.

وبينما كان المحامي برهان يتكلم بنعومة، وقف زوبُكْ في المكان الذي هو فيه، وقال:

ـ المسجد ضروري والمدرسة ضرورية.

فقال برهان:

ـ المدرسة أولاً.

عندئذ قال إبراهيم بيك:

ـ نحن لم ندخل المعارضين بيننا حتى يحصل زعل.. ونعرف أن اخواننا المعارضين لا يفكرون كما يفكر برهان بيك.

فعلا صوت المعارضين بالصياح:

ـ بالتأكيد. نريد المسجد!

لاحظ المحامي برهان أن أصدقاءه قد صاروا ضده، فقال فجأة:

ـ إننا نغالط أنفسنا.

فنط الشيخ بدر الفهمان وقال:

ـ يقول إن الأطفال يأتون إلى المدرسة من أماكن بعيدة، طيِّب، الشيوخ المحنيَّةُ ظهورُهم، من أين يأتون؟

وهنا قفز زوبُكْ زادَهْ من مكانه، ونتر الميكروفون من يد برهان بيك، وبدأ الحديث بسرعة، وبصوت مرتفع:

ـ أيها المواطنون المحترمون!

يا هوه، إن حركات زوبكنا تجعله وكأنه رئيس الوزراء. حرام، في مثل هذا المكان الصغير ألاّ تُعرَفَ قيمتُه.. تخرج قولة (أيها المواطنون المحترمون) من فمه وكأنها من فم رئيس الوزراء. كل ما يقوله بعدها ليس له لزوم.

- يُفهم من هذا أن برهان بيك يريد أن يمنع بناء المسجد الشريف. وهو لهذا يتخذ من بناء المدرسة ذريعة. يقول مدرسة، ويسكت.. ألا يدرك المسلمون أنها ذريعة؟

قال هذا واتجه نحو برهان بيك. رفع يده في وجه المحامي برهان فظننا أنه سيرقعه كفًّا.

صاح:

- برهان بيك، برهان بيك. الحلزون لا يباع في حارات المسلمين. انتبه! حمداً لله نحن نعرف ما تعنيه العباراتُ الأجنبيةُ المصدرِ التي تدفع بها.. واخ واخ. لَكَمْ يحزننا أن نجد واحداً من أبناء بلدتنا هكذا.. نحن نناضل في سبيل الاتحاد، وأنت تريدها مجزّأة. ويلاه ويلي. هذه ألعاب شيوعية. لا تظن أننا لا نعرف ذلك. ليكن في علمك، يا أفندي، يا محترم، أن المسجد الشريف سيبنى، ولا توجد قوة تستطيع إبعادنا عن طريقه.. حتى أننا..

ودوى تصفيق جعلنا لا نفهم بقية كلامه. ضاع صوته في صراخ الناس:

- يعيش إبراهيم بيك..

ليس ثمة من هو أفضل من زويُكْ زادَنا. لقد زوده الله بحنك.. حرسها الله من أعين الحساد.

أما برهان بيك فقد احمرّ وجهه وصاح:

- ايه، يا زويُكْ. تقول (مسجد) ولاه؟ في حياتك كلها، هل مررت بالمسجد مرة؟

كلام صحيح، لكن كلام برهان اختنق بالضجيج.

قال زويُكْ:

- نحن مسلمون والحمد لله. ونضيف على الأوقات الخمسة خمسة أخرى، نصليها في البيت.

فقال برهان بيك:

- أرأيتم؟ الصلاة تجوز في البيت أيضاً، ولا تحتاج، بالضرورة إلى مسجد. لكن المدرسة ليست كذلك. تقولون إن المسجد وحيد وبعيد. إذا كان بعيداً يكون أحسن. بالتعب والمشقة في الذهاب إلى المسجد ثواب أكبر.

- سيؤذي المسلمين..

- يقول الملحد (في الإسلام مشقة)..

- أسكتوا هذا الزنديق!

- ألا يوجد مسلم يقطع لسان هذا الكافر؟

- ليسكت الخائن!

صعد أعضاء حزبه إلى المنصة. كانوا ينوون تقطيع المحامي برهان.

- انزل!

- اطلع بره!

- انقلع!

شحطوا المحامي برهان من ذيله، وأنزلوه وهو يترنح. ولولا ان زويُكْ زادَهْ حجز الناس عنه، ووضعه وراء ظهره، لقطعوه. ذهب برهان. لم يترك الناس كلمة ما قالوها له. لاذ الرجل ببيته.

هاج زويُكْ زادَهْ بعدما غادر المحامي برهان.. حكى حكى.. وبسرعة تأسست جمعية إعمار المسجد. أدخلنا فيها ثلاثة من المعارضين. ثم طولب زويُكْ زادَهْ بترؤس الجمعية، لكنه أبى لكثرة مشاغله. وبإلحاح المعارضين الثلاثة استلم رئاسة الجمعية.

في المساء ذهبنا إلى البدية. قال ابراهيم بيك زويُكْ زادَهْ:

- ها قد ارتاح فؤادنا. لم يبق ثمة رجل يدعى برهان بيك. أنا لا أظن أنه سيستطيع الاستمرار في البقاء في البلدة. نحمد الله الذي مكننا من معس رأس المعارضة. وسنربح الانتخابات بالتزكية.

قال إحسان أفندي الصف ضابط:

- ألم أقل لكم يا خي؟ زويُكْ لم يطلع بهذه الشغلة عن عبث. أراد أن يأكل المحامي برهان، فأكله.. لقد أكله وأنهاه.

وهكذا. بعدما تأسست جمعية إعمار المسجد، لم يبق مع المحامي برهان نقود.. ولم يعد أحد يوكله بدعوى.. وسمعنا أيضاً أنه سيهاجر.

هذا الزوبُك. أي زوبُك ابن زوبُك! لو تعرف يا سيد.. حتى رستم زال أوغلو[١] لا يستطيع مواجهة مقالبه. ذلك أنه يصارع من تحت.. وقد اجتمعت فيه كل صفات الوساخة.

---

١ ـ مصارع مشهور في تلك الحقبة ـ المترجم.

ليزدد مقبلو يدك!

مارواه مرتضى أفندي سلمه الله:

صارت الانتخابات على الأبواب، فنزلت مشكلة الترشيح إلى الميدان. على البلدة أن تعلن اسم مرشحها. تعليمات أنقرة للمحافظة قضت بترشيح واحد عنده موهبة في مجال الانتخابات.

جمعنا بعضنا واجتمعنا في مقر الحزب. فكرنا في أن نعدّ قائمة مرشحين ونعطيها للمحافظة، وبدورها تعطيها لأنقرة. لكن تعليمات أنقرة تقول «يُستخلص من المرشحين واحد عنده موهبة في مجال الانتخابات». قال حمزة بيك جفتفران أوغلو:

ـ أيها الأصدقاء! هل نتكلم بصراحة تامة، أم نلف وندور؟ لنتفق على هذه أولاً، ثم نباشر.

معروف تماماً السبب الذي جعل هذا الدنيء جفتفران أوغلو يتكلم على هذا النحو. كان قصده أن نرشح زوبُك زادَهْ للنيابة، فيجلس هو على كرسي البلدية، الذي سيشغر، مثلما كان من قبل. لم يكن قادراً على مواجهة زوبُك زادَهْ، فأراد أن يفتح له الطريق، ويجلس تحت ذيله. ليس هو وحده، كلهم دنيئون.

قال إحسان أفندي الصف ضابط:

ـ ماذا جرى؟ طبعاً سنتكلم بصراحة. لقد جاءت الانتخابات، بل أناخت. وهذا أمر لا يمكن التستر عليه. لا نريد أن نشير إلى أذننا من خلف رقبتنا.

قال حمزة بيك:

ـ ما دام الأمر هكذا، فلْنَدَعْ ما سنقوله هنا. أتعِدُوْنَ بذلك؟ اسمعوا أيها الأصدقاء: إن هذا هو الطريق الأمثل للخلاص من زوبُك زادَهْ بسلام. كل هذه الأيام

ونحن نحتمل من زوبُكْ زَادَهْ ما نحتمل. إنه عديم ناموس، لم يترك شيخاً ظهره مقوس طاقين، أو رجلاً مسكيناً، إلا ونصب عليه.

ماذا يقول حمزة بيك يا هوه؟ لا بد وأنه قد فقد عقله تماماً. لو سمعه زوبُكْ زَادَهْ يقول هذا، ألا يحوله إلى مرفوس بغل؟

قال أمين أفندي:

- يا ولد، يا حمزة، ماذا تقول؟ هل هذا وقت مثل هذا الكلام؟ لقد أقدمنا على معركة حياة أو موت، فما هذا الذي تهذي به؟ نعم، لقد قاسينا من زوبُكْ زَادَهْ الكثير. لكننا ربيناه، وغذيناه، وخبأناه لمثل هذه الأيام. فلنفلته في الساحة ليخرجنا منها بوجه أبيض. أنا أعتقد أنه لا يوجد في المحافظة زعيم يستطيع الصمود أمام خطابات إبراهيم. يخطب خطبة فيجعل المعارض يندم على وجود اليوم الذي ولدته أمه فيه. فماذا تقول أنت أيها الأهبل حمزة؟

فقال حمزة بيك:

- ما قلناه، كلانا، يؤدي بنا إلى مخرج واحد. ما قلتُه أنا قلتَه أنت. ولئلا نتعارك مع بعض، أرى أن الطريق الوحيد للخلاص من هذا العديم الناموس، هو أن نجعله نائباً، فينصرف من فوق رؤوسنا.. وبذلك يصحو أهالينا لأنفسهم. ليصر نائباً، فيذهب عنا البلاء، وليدخلْ أنقرة بعضها في بعض، لنرى ما عندهم من بأس. يكفينا نحن ما قاسيناه حتى الآن. إذا لم نعمله نائباً فلن نستطيع زحزحته عن رؤوسنا. هذا ما قلته أنا.

فهمت اللعبة. انظر إلى تدبير ابن آدم. كل هذه ألعاب متفق عليها سلفاً. لو لم تكن لعبةً متفقاً عليها، فهل كان جفتفران أوغلو ليجرؤ على التحدث عن زوبُكْ زَادَهْ على هذا النحو؟ لقد بصق كل منهما في فم الآخر من قبل. واضحة. ويبدو أن زوبُكْ زَادَهْ قد قال لحمزة بيك (قل عني كذا كذا)، وعلمه ما يتوجب عليه قوله..، وإلا، هل كان يحكي طالعاً نازلاً بحق زوبُكْ؟

ثمة أمران يعرفهما زوبُكْ جيداً. الأول أننا نستخدمه بمثابة كلب نابح، ندفعه إلى المقدمة.. والثاني أنه نَفَضَ البلدة نفضاً. والآن، ولكي نتخلص منه، سننبطح على يديه وقدميه قائلين (دخيلك.. صرْ نائباً!).

حتى تلك الأثناء كان في حزبنا تكتلان. عندما حلت الانتخابات أخذ كل طرف يسحب إلى جهته، وكل واحد يمشي في طريق. آه، لقد قيل (في داخل كل شهم سبع!). ونحن نخدم الحزب طوال كل هذه السنين.. لماذا؟

قال السَّفَلَةُ رداً على كلام حمزة بيك:

- صحيح. لو نظرنا إلى هذا الكلام بكل المناظير لوجدناه صحيحاً. نعم، إن الطريق الوحيدة لدفع هذا البلاء عن رؤوسنا، هي دفعُه إلى أنقرة كنائب.

كان من بين الذين ينام في دواخلهم سبع، إسماعيل أفندي عبد الله. قال:

- لا يجوز. ليس من حقنا إغراق اسم البلاد.. مهما يكن من أمر فإنه هنا بيننا، ويبقى بيننا. نحتاج إلى وجه حتى ترفع رجلاً كهذا إلى أنقرة. الرجل الأكثر مناسبة لهذا هو رضا بيك كاتب الديوان. هو لا يرغب بذلك، لكن أنا وبعض الأصدقاء رجوناه أن يقبل فقبل. سيستقيل من وظيفته. كيفما كان، عندما نرفعه إلى أنقرة كنائب، فإن رأسنا لا ينزل إلى الأرض.

قال إحسان أفندي الصف ضابط:

- من جهتي أنا أفضل بهاء بيك. الرجل معلم مدرسة من سنوات طويلة، وكلمته مسموعة. وهو الآن جاهز، لكونه أحيل على التقاعد.

ثم أضاف أنه لا يدري بحكاية الترشيح هذه حتى الآن.

في الحقيقة بهاء بيك لا بأس به. نعم، فهو متقاعد، ومعلم من بلدتنا. وإذ رضينا به، نط جفتفران أوغلو:

- أيها الأصدقاء. مَنْ لم يكن منه خيرٌ لنفسه، فلن يكون للناس منه خير. تقترحون المتقاعد بهاء بيك؟ إنه، نعم، رجل جيد، ظريف، شريف.. لكن، ما الفائدة؟ يا سيدي، ما الذي قدمه هذا الرجل؟ منذ سنين طويلة وهو معلم، لم يبق في البلاد مكان لم يزره،.. ثم إنه عاد إلى مسقط رأسه. ليس عنده ما وى يدكُّ رأسه فيه. حتى أنه باع ما ورثه عن أبيه، وصرف ثمنه والتجأ في بيت أخيه. فكيف تجدونه مناسباً للنيابة؟ واعٍ؟ مثقف؟ فليذهب هو وثقافته. لستم بحاجة إلى رجل مثقف، بل إلى رجل ناجح يستطيع إنجاز عمل، إلى رجل كالرجال. هل تظنون مجلس الأمة التركية الكبير دار عجزة؟ ماذا

يعني أن يكون مُحالاً على التقاعد؟ بماذا ينفعنا يا خيّ؟ لو أن زوبُكْنا اشتغل في التعليم طيلة هذه السنوات لصار وزير معارف بإذن الله. نريد نائباً، عندما يصل إلى هناك، يحمي حقوقنا، العين بالعين والسن بالسن، ويُفرح بلدة التراب الميت المذرى هذه. افتحوا آذانكم للحكي، أقول تعالوا نرشحْ زوبُكْ زادَهْ، واتركوا الباقي عليه. لو أن النيابة في فم السبع، فهو يحصِّلها منه. ونحن هكذا نضرب عصفورين بحجر واحد؛ نحرر أنفسنا من براثن وحش كاسر، وتنال بلدتنا شيئاً من خير.

قال إحسان أفندي الصف ضابط:

ـ تذكرتُ أيضاً.. بهاء بيك رجل شريف، لا يسرق ولا يظلم.

فرد عليه جفتفران أوغلو:

ـ استلمتم كلمة (شريف) ومضيتم بها. ماذا يفيد كونه شريفاً إذا كان غيرَ ناجح بعمله؟ ليصلْ، ثم ليسرقْ، وليضربْ.. ولتُصِب البلدةُ منه منفعة بين الحين والآخر. ماذا سنستفيد من (ماسرق)، إذا كان سيقعد مسكيناً مُهرْدساً؟ أليس صحيحاً ماأقوله؟ لو كان له فم لكان أكل بالتأكيد.. الرجل هو الذي يأكل من جهة، ويطعم غيره من جهة أخرى.

جفتفران أوغلو رجل ضليع في السفالة. لقد ترعرع في كنف زوبُكْ زادَهْ حتى صار صانعاً، بعدما كان صبياً. لكنه لن يستطيع مجابهة هؤلاء على ما يبدو. انبرى له إحسان الصف ضابط:

ـ ما قلته زين. لكن ما هي مؤهلات زوبُكْ زادَهْ حتى أوليته كل هذه الأهمية؟

يا سيدي. لقد حكى جفتفران أوغلو عن صديقه الواطي ابراهيم حتى فغرت أفواه الحاضرين. كنا نظن أننا نعرف كل الاعيبه. لكن ثمة ألعاباً لم يُنزل بها من سلطان. قال:

ـ بينكم من يعرف أن ألعاب زوبُكْ زادَهْ كثيرة، ومن لا يعرف ذلك. أنتم تجهلون لعبته مع الشيخ سالم متعهد الغابات. لقد تعهد الشيخ سالم بتقديم كمية لا أعرف مقدارها من جذوع الأشجار. الغابة في مكان يبعد عن مركز المحافظة مسير ثلاثة أيام. إذا لم يُوَرِّد الجذوع في الموعد المحدد سيترتب عليه دفع مائة ليرة يومياً، كغرامة تأخير. لم

يتأخر شهراً واحداً، بل ثلاثة أشهر. وهل تُنقل الجذوع الضخمة في عربة مكسورة؟ الشيخ سليم احترق. كيف؟ طار ربحه ولم يعد يعرف كيف يتخلص من هذه الورطة. وكان قد سدد لمديرية الغابات عشرة آلاف ليرة، كتأمينات.. إذا تأخر فإنها ستموت عليه، فماذا يعمل؟ لم يعد يدري. مَنْ في بلدتنا يستطيع حل كل مشكلة؟ مَثَلَ الشيخ سليم بينَ يدي إبراهيم بيك وسط العَرَقِ والدم. أنا كنت هناك. لم يشأ أن يحكي أمامي. كان واضحاً أن لديه مشكلة. بادره إبراهيم بيك:

ـ عندك وجع قلب يا شيخ سليم.. فما هو؟

تلفت الشيخ حواليه، فقال زوبُكْ:

ـ احْكِ احْكِ. جفتفران أوغلو ليس غريباً عني. دواء وجع قلبك، على كل حال، عندي.

فحكى الشيخ سليم:

ـ احترقت يا إبراهيم بيك. القصة كذا كذا. وكل واحد أسأله يقول لي (اذهب إلى إبراهيم بيك يدلّك إلى مخرج.. إذا لم يَشُرْ عليك فلا مناص لك). أنت بابُ حاجاتنا، وأبو همومنا. صحيح أنك أصغر منا سناً، لكن عقلك أكبر.. أبوس يدك، دخيلك، أرشدني..

ضحك إبراهيم بيك:

ـ ليكن هذا كل ما تعانيه يا عمي سليم. سهلة. نحن نسحبها كما الشعرة من الزبدة، بإذن الله.

وذهبنا نحن الثلاثة، بناء على طلب زوبُكْ، إلى مركز المحافظة، عقدنا شراكة، وثبتناها عند كاتب العدل. تعهد سليم النقل من الغابة، بشراكتنا. وبمناسبة عقد الشراكة هونا يومها كثيراً. كان ابراهيم بيك يقول (ثِقْ أن مشكلتك قد انحلت) فَيُسَرُّ الشيخ أكثر، وينفق أكثر... لو أنكم رأيتموه!

وهنا قاطع إحسان الصف ضابط كلام حمزة بيك قائلاً:

ـ فلينفقْ. لا بد وأن زوبُكْ زادَهْ قد جعله يندم ألف مرة على وجود اليوم الذي وُلد فيه.

فقال جفتفران أوغلو:

ـ حاشاه! بفضلكم مشت الأمور على ما يرام.

ـ ماذا تعني؟ لماذا بفضلنا؟ لا تدخلنا فيها..

قال حمزة بيك:

ـ يا هوه.. بصفتكم أعضاء في المجلس البلدي، ألم توقعوا وتختموا على محضر ضبط ينص على أن ترعة القامشلك قد فاضت في منتصف شهر آب، وأن السيل قد جرف كل شيء؟

اسمع اسمع.. يريد أن يوصل الكلام إلينا، وقد كان توقيعي أنا أيضاً موجوداً على الضبط.. فهل يُسْكَتُ؟ أخذت دوري في الكلام، قلت:

ـ تطلَّع إلى هنا. لماذا تنبش تلك الشغلة الآن؟ نعم، لقد نظمنا ضبطاً ينص على أن ترعة القامشلك قد فاضت وجرف السيل كل شيء في منتصف آب. لكن، لماذا عملناها؟ من أجل منفعة البلدة. ليس لأحد مصلحة في ذلك يا صديقي. عندما تفيض الوديان، ماذا يحصل؟ يحطم السيل الجسور. لقد تم الحصول على مساعدة، وأصلح الجسر. لو لم نقل إن السيل قد خرب الجسر، فهل كنا نستطيع إصلاحه؟ إذا كان أحد قدم لنا عشرة قروش فلتلتصق بكبدي. إذا كنا قد عملناها في سبيل منفعة البلدة، فهل هذا وقت نبشها؟

وفي حين ظننت أنني أنزلت الحجر عن كاهلي، وإذ بصانع زوبُكْ زَادَهْ، الواطي حمزة يقول:

ـ أنت افهم كما يروق لك. ولاه، في ترعة القامشلك، طوال الصيف، هل يوجد ماء بطول الإصبع الخنصر؛ حتى تنظموا ضبطاً ينص على أن الوديان طافت، والجسور هُدِّمت، وانجرف كل شيء؟ من الذي اقترح عليكم هذا؟ ألم يكن إبراهيم بيك؟ وبعدما وقعتم على الضبط، ماذا حصل؟ قدمنا إلى مديرية الغابات كتاباً قلنا فيه «لقد كومنا جذوع الأشجار على حافة نهر القامشلك.. جاء السيل فجرفها!».. والسيل مصيبة من عند الله، وثمة ضبط في المتناول. وهكذا قبض الشيخ سليم أجرة نقل الأخشاب، بالرغم من كونه لم ينقل خشبة واحدة. وهل اكتفى؟ لا!!!.. مرة أخرى أيضاً. هذا

سيل يا خيّ، سيل.. سيول نهر القامشلك تجرف الأخشاب التي نكومها وتذهب بها. إصْحَ يا أفندي، لا سيل، ولا شجر، ولا جذوع.. ونحن نسحب أجرة نقل الجذوع. أي عقل هذا؟! هكذا هو العقل الذي أحكي عنه. إنه عقل بحق وحقيق. بمن تضر شغلة كهذه؟ ليس بأحد.. أما ربحها فكبير. لقد دخلت إلى بلدتنا نقود، لكأن عدة مساكين قد ذهبوا، وقطعوا أخشاباً، وحملوها، فنالوا عليها بضعة قروش. يا للنصيب!

عندما سمعنا بهذا رحنا نلطم وجوهنا. هذا يعني أننا، بتوقيع الضبط، قد بلعنا المقلب. قلت:

ـ يا ساتر! ماذا لو أعطى أحد خبراً، وجاء مفتش وسأل عن الترعة التي جرف ماؤها جذوع الأشجار وهدم الجسر؟ لكان احترق نَفَسُنا، ووقعنا.

أنظر إلى هذا الوقح الذي ينشف الدم والنخاع، جفتفران أوغلو، قال:

ـ لن يحصل شيء أبداً. زوبُكْ زَادَهْ يعرف شغله جيداً. لا يَعْقِلُ إلا بوتد متين. لقد قيل (إعْقِلْ حمارك بوتد متين، وبعدها توكل على الله). عندما تدخل مع زوبُكْ زَادَهْ في شغلة فإنك تربح نفسك تماماً. مَن الذي سيعطي خبراً؟ وهل بقي أحد لم يورِّطه إبراهيم بيك فيها.. مَنْ سيخبر عن مَنْ؟ نحن لماذا نتكلم بصراحة؟ جماعة مديرية الغابات رجال أصحاب مروءة. وعندما يكون زوبُكْ زَادَهْ كريمًا على هذا النحو، فمَنْ لا يكون صاحب مروءة؟ افتحوا أعينكم جيداً. إبراهيم بيك رجل من هذا القبيل.. فما بالكم تسبرون لي قائلين: لا يا سيدي، بهاء بيك.. لا يا سيدي، رضا بيك.. يا هوه!.. إذا صار هؤلاء نواباً، أو لم يصيروا، فما الذي سيزيد أو ينقص. نحن ماذا نريد؟ نريد أن ينال فقيرُ هذه البلدة شيئاً من منفعة. فلا تغمغموا لي بالكلام عن المعروف. معروف إبراهيم بيك لا ينسى.. يصب النقود على التراب والحجارة. لقد أجَّر رمال القامشلك لمسافة أربعين كيلو متراً. رمل في مقر الوادي، فكروا، الرجل يستخرج النقود من الرمل. هل سبق لرمال القامشلك أن درت نقوداً؟ هذه تخطر على بال مَنْ؟ لقد دخل صندوق البلدية مبلغ تسعمائة ليرة أجرة رمال. لماذا يقوم بهكذا عمل؟ من أجل الخير، ولكي تنهض البلدة..

قال أمين أفندي التاجر:

- بهذه أصبت. هو **غير موجود، لكن** الله موجود. إن تأجير رمال الوادي عمل جيد جداً.

ففتح جفتفران أوغلو فمه **وراح يصرخ**:

- مهما يكن إبراهيم بيك.. الرجل **يعرف** شغله جيداً. لقد أجر رمال وادي القامشلك، وسَبَّبَ الإفلاس لأكبر متعهد في المحافظة. حَوَّلَ رأسماله إلى **قط**، وجعله يرفع علم الإفلاس. فهل كنتم تعرفون ذلك، وكيف حصل؟ من أين ستعرفون؟ إنكم لا تحملون هذه الرؤوس إلا من أجل زيادة الحمولة على جذوعكم. عندما نُظم الضبط بفيضان الترعة، وتخريب السيل الجسر، وضع إبراهيم بيك يده على مشروع البناء. سيبنى الجسر من جديد. لقد نوى إبراهيم بيك أن يبني الجسر بنفسه، حتى ينفع العاطلين عن العمل في البلدة ببضعة قروش. هاجسه دائماً فعل الخير. ذهب إلى أنقرة، ورتب الأمور في الوزارة. ثمة ثلاثة تصاميم للجسور بأحجام مختلفة: كبير، وسط، صغير. صحبة زوبُكْ مع الوزير متينة. قال للوزير (القياس الأكبر هو الذي يناسبنا. الذي عندنا صغير، ونحن في حاجة للقياس الكبير) فقال الوزير (عفواً، لا **يجوز**.. لا يوجد أكبر من هذا في بلادنا غير جسر الغلاطة)[1]. فقال إبراهيم بيك (أنت **لا تعرف** ترعة القامشلك. إنها أهم من جسر الغلاطة... وما دام سيبنى جسر، فليكن القياس الأكبر بالمرة). أخذ ورد مع الوزير.. وأخيراً، لم يكسر الوزير خاطر زوبُكْ فقال (ليكن!)، أُعْلِنَ عن مناقصة لبناء الجسر. ونحن نعرف البقية، لقد اشترك في **المناقصة** أكثر من أربعين متعهداً من أربعين مكاناً من المحافظة. ومن متعهد إلى **متعهد عمل** إبراهيم بيك على كسر السعر، حتى تُوَفَّرَ أموال كثيرة. أخذ المتعهدون ينزلون **أسعارهم** يالله من هنا، يالله من هناك، فلم يبق غير أن ينفذوا لنا العمل مجاناً، أو أن يدفعوا لنا فوقها. لم يقدر أحد من المتعهدين على مجاراة متعهدنا الشهير في تنزيل الأسعار، فذهب إليه إبراهيم زوبُكْ وقال له (أُخْرُجْ من هذا العمل، وأنا أعطيك نقوداً دون مقابل).. لكن عقل المتعهد كان سقيماً، فقال بحزم (مستحيل).. فقال إبراهيم بيك (ما دام الأمر

١ - جسر في اسطنبول على خليج القرن الذهبي - المترجم.

كذلك فأنا سأتركها لترسو عليك، **فادفع** لي أنت)... عقله جحش.. **أيضاً** قال (مستحيل).. قال إبراهيم بيك (**تعال إذن** نتعهده شراكةً، ثم نقتسم الأرباح).. كذلك قال (مستحيل). في **الحقيقة لقد أراد إبراهيم** بيك مشاركة المتعهد، لكونه لا يستطيع القيام به وحده، لأن ذلك يتطلب القيام بعدة أعمال مسبقاً. غضب زوبُكْ زَادَهْ وقال (انسانيتي تتوقف عند هذا الحد.. الباقي عليك).

ورست مناقصة الجسر على المتعهد، فجاء بالشاحنات والآليات إلى طرف القامشلك، كما تعرفون، ونصبت الخيام للعمال وصففت أكياس الإسمنت. وها قد مر سنتان على ذلك، فلماذا لم يُبْنَ الجسر بعد؟ احزروا...

نظر بعضنا إلى الآخر، تساءلنا:

- حقاً، لماذا لم يُبْنَ بعد؟

فقال:

- لم يُبْنَ، ولن يُبنى. إذا كان هذا الجسر سيبنى فلن يفعل ذلك أحد غير **إبراهيم بيك. ماذا فعل** ابراهيم بيك عندما كان المتعهد يجهز للعمل؟ استأجر **رمال وادي القامشلك** من البلدية بتسعمائة ليرة في السنة، فلم تبق أمام المتعهد بالتالي **أية رمال للصبات** البيتونية. الرمال كلها لإبراهيم بيك. لا يستطيع المتعهد أن يأخذ من الوادي حبة رمل واحدة، ولا يوجد في المنطقة مقطع رمل واحد. لو أراد أن يدفع كل ما سيقبضه، لقاء صب البيتون، أجوراً لنقل الرمل، فإنه لن يكفيه. الرجل جن. لقد دفع التأمينات سلفاً، فما العمل؟

انبطح المتعهد على قدمي ابراهيم بيك قائلاً (أنا كلبُك، فاعفُ عني.. تعال تشارك.. أنت لا تَقُمْ بأي جهد، فقط اترك لي الرمال.. خذ ثلاثة أرباع الربح دون أن تمد يدك.. أَجِّرني الرمل الذي استأجرته بتسعمائة ليرة، بتسعين ألف ليرة في السنة). لكن عين إبراهيم بيك - ولله الحمد - شبعانة من النقود، فراح يجيبه على كل عروضه بكلمة (هُوء)[1]، ثم لا يضيف شيئاً، لكأن السكين لا تفتح فمه. عندها قال المتعهد

١ - لا.. بعنجهية. المترجم.

الشهير (ولاه . . كل ما سمعته عن قلة شرفك صحيح . سأقرمك بإذن الله!) . . وهرب .

أي، هكـذا . فمن أين لكم أن تعرفوا؟ فضائل زويُكْ كثيرة، لكن أين أولو الألبـاب؟ لقد ورَّد إلى صندوق البلدية تسعمائة ليرة، وفسد من أكياس الإسمنت ما فسد، والباقي أخذه الناس فأنجزوا به أعمالهم . وهل هذا قليل من الفضل؟ لا يمكن تقدير كمية الاسمنت التي سُحبت من هناك . . وها أنتم تنطون وتعترضون . أنا أحكي الذي أعرفه، لا يوجد أفضل منه ليكون نائباً، وإن صار غيره فسيكون عديم نفع . من كان لا خير فيه لنفسه، فلن يكون منه خير لوطنه . لنعمل من زويُكْ زَادَهْ نائباً، ونفلته في أنقرة . . فإذا لم يصر وزيراً قبل مضي شهرين، أحلق شاربيّ وأنهق في البازار كالحمار! يا أخوان . إنه يحصِّل نقوداً ولا سكّاكة العملة . يكتشف مصدراً للعملة من أي مكان يقف عليه . نحن في أي رمضان سابق كنا نأخذ نقوداً من (المسحراتي)؟ . . ما هذا العقل الـذي لزويُـكْ! أنزل مهنة التسحير إلى المزاد العلني، وعلق الناس ببعضها، وأجرها بخمسمائة ليرة، فأمَّن دخلاً للبلدية . كم شخصاً نحن في هذه البلدة؟ أيُّنا الميت وأينا العائش؟ لم يعد ذلك معروفاً . لقد سجل المختار، بناء على اقتراح زويُكْ، السكان بين ميت وحي . ما هذا العقل الذي عنده، أمات الأحياء وأحيى الموتى . من كان له دَيْنٌ على البلدية سجّله ميتاً، ومن كان للبلدية دَيْنٌ عليه سجله حياً . . ضِعْنا بين ميت وحي .

قال أمين أفندي الذي كان يرى ترشيح رضا بيك، رداً على زعيق جقتفران أوغلو لصالح زويُكْ زَادَهْ:

ـ نعم، صحيح . الحق حق . يجب أن نضع عقولنا في رؤوسنا . كلنا نعرف أن زويُكْ زَادَهْ رجل أعوج . لكن ماذا يقال؟ يقولون (الأفعى تسير بالتواء، لكنها، عندما تدخل جحرها، تدخله باستقامة) . وهكذا يجب أن تكون الحياة، عندما يصبح العمل على الباب، تتوجب الاستقامة . . والانتخابات، لقد وصلنا إلى بابها . إن كذب ابن الزويُكْ ودجله واحتياله السابقة أمر آخر . في هذه البلدة الفقيرة صار مليونيراً . كيف حصل ذلك؟ بالعقل . لو أنك الآن أخذت هذه البلدة، جمعتها وعصرتها، لما خرج منها، ليس مليوناً، ولكن ولا مائتا ألف ليرة . . فكيف استطاع زويُكْ زَادَهْ أن يصير مليونيراً من

وراء هؤلاء النـاس؟ هنـا تتجلى براعته . نعم، لقد خَشَّ عقلي، . . وصوتي سأعطيه لإبراهيم بيك .

والتفت إلي:

ـ ما رأيك؟

عندما سمعت ما سمعت، طار عقلي من يافوخي . ماذا أقول؟ لقد اختلط علي أثـر الـذئب بأثر الكلب، ولم يعد معروفاً البائع من الشاري . إنه رجل يحيي الموظف الميت، ويخصص له معاشاً من الخزينة . فماذا بقي؟ لقد انفرط معلاقي، وصار قلبي جمراً . . لكن ماذا يمكن أن يقال؟ قلت:

ـ لن أقول لكم شيئاً أيها الأصدقاء . أنا، منذ البداية، لم أكن أرى من هو أليق من زويُكْ زَادَهْ للنيابة . لقد ورد في تكرُّم الحزب بأنقرة (رشِّحوا من له موهبة في مجال الانتخابات) وعندما يكون زويُكْ زَادَهْ موجوداً فإن الناس لن تنتخب سواه . ثم أنتم ماذا شهدتم من حقارة رضا بيك وبهاء بيك حتى ترشحوهما للانتخابات؟ لو سمع الآن زويُكْ زَادَهْ أن رضا بيك وبهاء بيك سيرشحان نفسيهما للانتخابات لخسف بهما الأرض . إني أخاف عليهما منه . حرام!

وفي حين اتفقنا كلنا على ذلك، لم نستطع بأي شكل من الأشكال، إعادة إحسان أفندي الصف ضابط إلى جادة الصواب . واضح أنه لم يكن مقتنعاً بأي اسم من الأسماء المرشحة، ولا يريد سوى نفسه . نقول له:

ـ دخيلك ياخيّ إحسان أفندي، ارجع عن هذا الأمر .

فيقول:

ـ إذا كان هو زويُكْ، فأنا إحسان الصف ضابط . ليقل ما يشاء، وليفعل ما يحلو له . لقد شددت القوس، وضغطت على السهم، ولن أتراجع .

هو لم يقل رشحوني، لكن نيته كانت ظاهرة . كان يقول (إما صدر الدولة، أو غراب فطسان) . . ويمشي . ما أدركته هو أن إحسان أفندي يسير باتجاه تعاسته .

عندما عجزنا عن إقناعه، قلنا له:

- مادام الأمر هكذا، يجب أن تكلم زوبكْ زادهْ في الموضوع، وجهاً لوجه. . كلامنا، إذا لم يحصل هذا، فارغ.

ضربت النخوة إحسان أفندي، فقال:

- اتركوها علي. ماذا جرى لكم؟ ما بقي عندكم مروءة؟ يا حرام! من زمان وأنتم تحكون عن قلة أدبه، وبعدها تقولون: نعم؟

- الحق حق.

أرسلنا خبراً لإبراهيم بيك أن احضر بسرعة. فأرسل لنا يقول (لا تؤاخذوني، عندي شغل هام. تفضلوا إلى البيت). فذهبنا إليه جميعاً. كان إحسان أفندي في المقدمة، لكن، عندما اقتربنا من الباب أخذ يجرجر قدميه ويتقهقر. المهم دخلنا. لاقتنا أمه:

- أهلاً وسهلاً. عفواً، بهدوء لو سمحتم. إبراهيم بيك يحكي على الهاتف.

دخلنا. كان إبراهيم بيك يتكلم بالهاتف فعلاً، فأومأ إلينا أن اجلسوا. كان كلامه من نوع آخر. كان يحكي بصوت مرتفع:

- اسمع أخي اسمع. سلم لي عليه. لقد أسسنا جمعية إعمار المسجد، وباشرنا بجمع النقود. الباقي على حكومتنا. كم؟ مائتا ألف ليرة؟ لا أفهم ما تقول، ارفع صوتك يا هوه. ثلاثمائة ألف ليرة؟ قليل! ثلاثمائة ألف ليرة، ليس لمسجد، لزاوية صلاة لا تكفي. نريد مسجداً للصلاة. لقد أعطيت للمواطنين وعداً. قل للسيد البيك عن لساني، إذا خصص لي أقل من مليون فلن أقبلها، وسأعيدها. . وعندها يتبهدل، وأنا لا أتدخل في الأمر. ها؟ ماذا تقول؟ نعم. .

أثناء المكالمة سأل إحسان أفندي الصف ضابط حمزة بيك بهدوء:

- (السيد البيك) الذي يقصده، مَنْ يا ترى؟

فرد حمزة بيك:

- ومن قد يكون يا ترى؟ كم (سيد بيك) في بلادنا؟ واحد. السيد البيك هو رئيس الوزراء.

- رحماك يا حمزة بيك. . هل تعني أن ما يقوله الآن مُوجّهٌ لرئيس الوزراء؟

- . . . وماذا تظن؟

كانا يتهامسان، وزوبُكْ يحكي بالهاتف ويتوقف:

- لا أفهمك جيداً. حقاً ولاه؟ ها. . ممكن. بالنسبة للانتخابات؟ لا. لاتقلقوا. سنفوز بالأغلبية الساحقة. اذهب الآن إلى وزيرك وسلم لي عليه. البارحة تلفنتُ له على البيت. . لم يكن موجوداً. قل لوزيرك، هذا الديوث. . أيوه، هكذا. . قل له، هكذا وَصَفْكَ. . نحن هنا نريد سداً. فهمت؟ قل له ذلك. يجب المباشرة ببناء السد قبل الانتخابات. يجب إقامة سد على القامشلك. . ماذا؟ مائة مليون؟ ولو بخمسمائة مليون. . أنا لا أفهم، أنا أريد سدي وبس. قل له يجب بناء السد، والانتخابات ستكون سهلة. لا يهم ذلك. إذا رفعنا المسجد والسد فسنربح الانتخابات بالأغلبية الساحقة. . ماذا تقول ولاه؟ تكفي المباشرة بالعمل، والباقي ليس من شأنكم. . ها؟ لا. لا يمكن. .

همس أمين أفندي في أذن حمزة بيك (طز في العالم. ترعة القامشلك هذه ليست إلا ترعة جافة، فلماذا السد؟) فقال حمزة بيك (اهتم أنت بكيفك، فلو شاء إبراهيم بيك لعثر على الماء في أي مكان وجرّه).

ولا زال زوبُكْ على الهاتف:

- اسمع ولاه. . صار لي كذا ليلة وأنا أحاول الاتصال بوزير الصناعة، فلم أجده. لعله ما يزال يقضي أوقاته في ترقيص النسوان في مطعم المحطة؟ ماذا؟ والله عال! نحن هنا نناضل في سبيل الوطن والشعب، وأنتم تشربون العرق من سُرر النسوان! ها ها ها. . مزاح ياه. . هذا حقكم. حلال عليكم. ها؟ ماذا كنتُ أقول؟ قل لوزير الصناعة إننا هنا نريد مصنعاً أيضاً. مفهوم؟ يجب أن يُرسى حجر الأساس للمصنع قبل الانتخابات. . ماذا؟ أتقول مصنع ماذا؟ مصنع كالعادة. . فكروا فيها أنتم. . الذي يناسبكم اعملوه، نحن لا نتدخل في شؤون الحكومة. ما نريده هنا هو المصنع.

كان يتكلم بطلاوة، ثم، فجأة ينرفز ويشتم ويبهدل الآخر:

- هذا ما أريده. يالله، مع السلامة.

وطُقْ، أغلق الخط.

التفت إلينا، وكأن الغاضب المزمجر الذي كان قبل قليل لم يكن هو.

- إي أهلاً وسهلاً!

وكأنه، من فرط صراخه بالهاتف، في بحر من العرق. مسح عرقه وقال:

- إي سيدي. كنت أحكي مع أنقرة. اللعنة على الهاتف. وكأنه ليس هاتفاً، ولكنْ بلاء متصلاً بسلك. لو كنت طلعت إلى قمة الخضرلك وصرخت بهذا المقدار، لكانت سمعتْني أنقرة بأيسر من هذا. حكيت مع وزير التجارة. لا أخَيْرَةٌ على الحاضرين، صديق حميم. سنبني مصنعاً وأفكر في مكان له. لا أعرف أين سنبنيه. لو نشرنا النبأ لوقع كل واحد فوق الآخر. هكذا ياه، ليبنوه في أرضي، بل في أرضي أنا. . ففي حين يكون ثمن المتر في أحسن مكان بليرتين، يقفز إلى المائة. لهذا يا أخوان، حكاية إنشاء المصنع هذه يجب أن تبقى هنا. . لا تخرجها أبداً، أرجوكم.

وفجأة تظاهر بأنه يستذكر أمراً، فسأل إحسان أفندي الصف ضابط:

- إحسان أفندي. . حقلك الذي في سهل (بلْ). . كم دونمًا يطلع؟

فشبك إحسان أفندي يديه أمام صدره، وقال:

- سبعون دونمًا، ابراهيم بيك.

- أتعرف؟ وكأنه موجود خصيصاً من أجل إقامة مصنع عليه. وكأنه، يا شباب، مُوْصَى عليه من أجل المصنع. لنر. لنفكر أولاً، إذا حسبنا المتر بمائة ليرة، يطلع معنا. . . مبلغ كبير. . . أم أن مائة ليرة سعر غير مناسب؟

قال إحسان أفندي الصف ضابط بدهشة:

- أنتم أدرى. اعتبر الأرضَ أرضك. ما دمتم موجودين لا يقع علينا كلام.

قدم لنا زوبُكْ زَادَهْ سجائر، وجاءت والدته بالقهوة. . ثم قال:

- أي، ما الأخبار؟ لقد طلبتموني، فلم أستطع المجي بسبب الهاتف. . تفضلوا! . . .

فانبرى إحسان أفندي الصف ضابط فجأة. لكأنه خاف من أن يستلم الحديث أحد غيره:

- عندنا لكم عرض يا إبراهيم بيك.

- أستغفر الله. ماذا؟ أنتم تأمرونني إحسان أفندي . .

- الأمر لكم. نحن لنا الرجاء. منذ الصباح ونحن نتباحث في موضوع اختيار مرشح للنيابة. فلم نجد من يليق بها غيرك. ولأنك لا تكسر خاطرنا، فقد جئنا نرجوكم. . فاقبلوا رجاءنا هذا يا إبراهيم بيك.

- هذا غير مناسب يا إحسان أفندي. نحن نعرف كيف نقدِّر ونحترم. ماذا يعني هذا؟ أنترك كل هؤلاء الكبار. . و. . ؟ هذا لا يصير أبداً. مستحيل. دَوْرُكم قبلنا. ماذا سيقول الآخرون عنّا؟

وعندها، . . ألا يقفز ذلك الصف ضابط المتقاعد، دون خجل، ويقبل يده؟ ليس مرة، مرتين، . . بل إنه صار، محق مجق، يقبلها دون توقف. وزوبُكْ زَادَهْ يسحب يده، وذاك ممسك بها. يا هوه. هلْ كان يريد خلع يده من الرسغ؟ . . وزوبُكْ، كالرجال، يقول وهو يحاول سحب يده:

- ليَزْدَدْ مقبلو يدك . . ليزدد مقبلو يدك. . !

ياهوه. . ليس عندنا أي رجولة. . بعمر أولاده ويقبل يده؟ . . أم أنه كان يمصها، يلحسها، . . لا أدري.

- إذا لم تقبل رجاءنا يا إبراهيم بيك تكون قد كسرت قلوبنا. اسأل الأصدقاء. أليس كذلك يا أبناء البلد؟

فطأطأنا رؤوسنا:

- طبعاً!

- بالتأكيد!

قال زوبُكْ زَادَهْ:

- عندي بعض الملاحظات لو سمحتم. إذا رشحتموني عنكم، سيقول الناس، لكونهم لا يعرفون، إن عيني في المنصب. هؤلاء بشر، وعقولهم ليست أكياساً حتى نَزُمَّها. . يتقوّلون. أقول، بالنسبة إلي، الذي عينه بالمنصب ليتها تنقلع. إن مابعيني هو عشق الوطن وخدمته. . حتى أنني أفكر بترك منصب رئاسة البلدية.

فاشرأب جفتفران أوغلو:

- لا تقلها أرجوك . .

لا أدري، هل قالها من شدة فرحه أم ضيقه . قال زويُكْ زادَهْ:

- إنني أخسر كثيراً في خدمة البلدية . أريد أن أرجع إلى عملي .

أيّ عمـل؟ أرأيت إلى هذا الجربان ! ولاه، أنت لَكَ عمل؟ . . عدّة وفدان، حقل، قطيع، دكان، ورشة؟ تريد أن ترجع إلى عملك؟ . .

- لا تحسبوا قيمتي عشرة قروش! إذا كان كلامي سيسمع، فأنا أقول إن أكثرنا مناسبة للنيابة هو إحسان أفندي .

آه . لو أنك رأيت إحسان أفندي الصف ضابط . يا سيد، لقد بدا كالكلب يهزُّ بذيله أمام زويُكْ ويتدحرج .

- دخيلك، لا يجوز! التوبة! مستحيل! يا هوه، أنت موجود . وأنا، إذا ما قست بك . . لستُ أكثر من جرثومة لا قيمة لها . يا هوه . . إذا كنا بشراً . . متمدنين . . يا هوه . . . أستغفر الله .

انعقد لسان إحسان الصف ضابط، وأخذ يتلعثم ويلوش، حتى لم يعد يفهم كلامه :

- مستـحيل . . والله مستحيل . . بالله مستحيل . . من ثلاث إلى سبـع . . مستحيل . . يا هوه . . هذه حضارة . . . لكن . . جمهوريتنا . . تعيش . . . أليس كذلك يوه؟ . . إننا اليوم . .

قطع أمين أفندي هذا التهريج قائلاً :

- إنه قرارنا يا إبراهيم بيك . مرشحنا أنت تحديداً . لا تتعداك لو متنا .

فقال زويُكْ زادَهْ وهو يتغنج كالراقصات، لا وياً رأسه كالمحكومين بالإعدام :

- أعتبرُ هذا أمراً منكم . وما دمتم ترون ذلك، لا يسعني إلا الطاعة . لتسلموا لي . . لتعيشوا، من أجل الثقة التي أوليتموني إياها . .

وخطب فينا خطبة! عديم ناموس أصلي . وصار يقول لنا :

- تسلموا لي . . تعيشوا!

فنجيبه :

- تسلم أنت . . تعيش . .

ثم ودعنا عند الباب . لم يبق لإحسان الصف ضابط وجه كالرجال، فنكس رأسه ومضى . لو أنه تفوه بكلمة لبصقتُ في وجهه .

ذهب كل من جهة . أما أنا والشيخ بدر الفهمان فقد اتجهنا صوب المقهى . كان مدير الهاتف واقفاً عند أسفل عمود الهاتف الذي في الساحة، ومعه عامل صيانة الخطوط، وقد لبس في قدميه أظافر حديدية، وصعد إلى قمة العمود . وكان حارسان يضعان أمامهما جهاز هاتف ويقومان ببعض الحركات . ألقينا السلام . قلت لمدير الهاتف :

- خير إن شاء الله يا شوكت بيك؟

فقال :

- اتركنا بالله عليك . رأسنا غاطس بهمّ هذه الهواتف .

- ما الأمر؟

- آه! لو تعرف ما الذي جرى على رؤوسنا من يوم أن عَيَّنَ جليل المجنون نفسَه حارساً على الخطوط؟ الأسلاك دائماً مقطعة . استقدمنا فنيِّين من المحافظة، ليكثر خيرهم، جاؤوا يفحصونها .

- وهل الخطوط عطلانة؟

- وتسأل؟ منذ عشرة أيام والهواتف لا تعمل، ولا يمكن الاتصال بأي مكان .

صرخ الشيخ بدر الفهمان :

- ماذا تقول؟

- لماذا تستغرب يا شيخ؟

- كيف لا أستغرب يا شوكت بيك؟ منذ لحظة كان زويُكْ زادَهْ يحكي مع أنقرة . . قدّامنا ياهوه!

فضحك شوكت بيك وقال :

- يحكي ! هذا الرجل يحكي ولو حتى بدون هاتف . ألم يُوجدْ مقام (يونس بابا)؟ بسرّ آخر، غير سر يونس بابا، يحكي مع أنقرة . .

إذا انتشرت حماقتنا هذه في البلاد نتبهدل. قلت:

ـ لا أخي لا.. الشيخ بدر يمزح.. إبراهيم بيك ما حكى لا بالهاتف ولا بغير الهاتف.

هل فهمت يا سيد، هل فهمت؟ ما قاسيناه من زوبُكْ زَادَهْ تضيق اللغة بشرحه.

من يدري ماذا ارتكبنا من موبقات، وبماذا قصرنا، حتى أرسل إلينا ربنا هذا الفاقد الأخلاق جزاء لما ارتكبنا.

الجاموس الذي لفظ أنفاسه في المسجد

ما رواه مرتضى أفندي سلمه الله:

مرت تلك الانتخابات على خير. عملنا ما علينا، وقعدنا ننتظر النتائج. آذاننا مشرئبة. بعضنا قاعد بجوار الهاتف نافد الصبر، بعضنا الآخر قرب المذياع يقول: الله الله، أنا ما مرّ عليّ انتظار كهذا..، وآخرون في مقام يونس بابا يطجّون ويركعون.

عند المساء بدأت الأخبار تتوارد. هُزم حزبنا في مركز المحافظة، فقلنا: هيه، لنره في هذه الناحية. في الليل أبلغونا هاتفياً عن خسارتنا فيها بفارق مئة صوت.. الرحمة على تلك الناحية، دخيلكم، لنر تلك. خسرنا في بعض النواحي بفارق ثلاثين صوتاً، وفي آخر بفارق مئة صوت. اسكت اسكت، لقد تبهدلنا حتى في الناحية التي كنا نعتبرها قلعة الحزب. صناديق ناحيتنا فُتحت، والأصوات تفرز وتحصى.. لكن إحصاء الأصوات لا ينتهي بشكل من الأشكال. لماذا يا شباب؟ فلو كنا نحصي عدد سكاننا، من الكبير حتى المقمط في السرير، لكنا انتهينا منه. كلها حفنة ناخبين.

تم ورود أخبار نواحي المحافظة كلها، النتيجة، خسارة بفارق أربعمئة صوت.

ثم أذيعت نتيجة فرز أصوات ناحيتنا: لقد ربحناها بفارق تسعمائة صوت. وهذا يعني أن ناحيتنا قد نيَّخت المعارضة، وطرحتها أرضاً.

مَنْ قذف قبعته، ومن رقص، ومن دبك. مدفع الجاويش المدفعي السلطاني محمد، الذي يُخشى من مؤخرته أخذ يقعقع. لو رأيت الطبال فيصل الأعرج.. لو رأيت الزمار حسين النُوري كيف استعصى أمام باب بيت المحامي برهان، وتطاول بمزماره باتجاه النافذة وهو يعزف الألحان الراقصة. سحب عظم وجلد وشكري الحافي ملعقةً وكُبّاً، فَبَدَوا وكأنهما اثنان من قبضايات قونية.

الفارغ من أداء الصلاة يطب نفسه على العَرَق رأساً.. سكر وعربدة حتى الصباح. أجهزة الهاتف التي كانت خرسانة: تررررت ترررررت، أخذت تعمل.

قال المحافظ لزويُكْ زَادَهْ على الهاتف:

ـ أبوسك من بين عينيك يا برهوم!

وجاءته مكالمة من أنقرة أيضاً.

ذلك أن ناحيتنا هي التي رجّحت كفة حزبنا في انتخابات المحافظة ككل. نحن نرى أن زويك هو الذي ربح انتخابات المحافظة، وحده، وقد صار ستة أشخاص آخرين نواباً بمَعيّته.

نحن رشحنا زويُكْ زَادَهْ، مع أن بهاء بيك أحقّ منه بها. لكن، لو أننا لم نرشح زويُكْ زَادَهْ، لكان دخل بعضنا في الآخر. السبب في ترشيحه إذن، لم يكن هذا ولا ذاك.. فلو لم نرشحه لكنا علقنا في معركة أنانية دنيئة.. هذا أنا وذاك أنت. قلنا: لا أنا ولا أنت، اتركوها لهذا المنيوك زويُكْ.. وهكذا جعلنا من هذا المطعون في عرضه مرشحاً، ثم نائباً، وأطلعناه إلى أنقرة.

كان يوماً، اليوم الذي ودعنا فيه زويُكْ زَادَهْ إلى أنقرة. يومها قلب القصاب عثمان البلدة رأساً على عقب. نسأل: ما به القصاب عثمان؟ فلا يجيبنا أحد. عثمان يهذي، لا يفهم من كلامه حرف. ما الذي حلّ به؟ أهي لِقْوَةٌ أم لعثمة أم تأتأة تلك التي شَكَلَت حنكه، حتى لم يعد يُفهم من كلامه شيء؟

كان يركض ويصرخ. أيش حلّ به؟ لقد بَلبل البازار.

قال الشيخ بدر الفهمان:

ـ واخ.. أرأيتم؟ تفوووا!

ـ رأينا ماذا يا شيخ؟

ـ ما الذي يمكن أن يحدث بعد هذا؟ لقد انعقد لسان الرجل. لكنه يستحقها.. القواد، وهل يُمْزَحُ مع الأولياء؟ لقد صعد إلى مقام يونس بابا، وفكّ وضوءه عليه.

ـ وكيف عرفتَ ذلك؟

ـ جاء هو إلي. لقد خسر فحولته أولاً، ثم ها قد انعقد لسانه. واخ. قال لي: «دخيلك يا شيخ، فحولتي راحت.. من شهر وأنا وحرمتي مثل أم وابنتها.. ألْزُّ على حالي، ألز على حالي.. دون ثمرة.. رحماك يا شيخ، أنا انتهيت!». فهمت رأساً، قلت له (اوعى تكون شتمت يونس بابا ولاه؟).. لو كان سَبَّهُ، حكى عليه، لكانت أهون.

فوق المقام، العفو، خرىء. عديم الناموس.. هذا ولي، يمسخ. أرأيتم؟ لقد مسخه من تحت أولاً، والآن من فوق، في البداية خسر رجولته، والآن لسانه.. هل يمزح مع الأولياء ولاه؟

الشيخ بدر الفهمان يحكي، والقصاب عثمان مستمر في الصراخ.

ـ ماذا تقول يا سبعي؟

ولكن، لا يُفهم منه حرف. أمسكنا به، لكننا لم نستطع السيطرة عليه. كتفنا ذراعيه خلف ظهره، وسقناه إلى المركز الصحي. وبنظرة واحدة، من بعيد، عرف الطبيب وجعه:

ـ اتركوه! زائدته الدودية ملتهبة. اتركوه حتى لا تجعلوها تنفجر.

ـ والعمل؟

ـ على المشرط فوراً.

أرأيت إلى صاحب اللحية الضخمة، الشيخ بدر الفهمان؟ الرجل يبعق من زائدته، وهو يقص لنا عن ذلك الولي الملفق من عظام دلفين.

ألا تنفك عقدة لسانه عندما يصير تحت المشرط؟ من خوفه من المشرط صار يحكي مثل البلابل.

ـ دخيلك دكتور!

ـ أيش بك ولاه؟

ـ ما عندي نوبة ألم.

ـ ماذا دهاك إذن؟

ـ راح جاموس ضخم. لم نترك مكاناً لم نبحث فيه عنه، منذ الصباح، ولم نجده. جاموس كبير اختفى، عينك عينك. كان ورائي، انعطفتُ مقابل باحة المسجد، نظرتُ، لم أجد الجاموس. لقد سرقوه إذن. عدت، بحثت عنه.. لا أثر له.

قلت:

ـ ولاه عثمان أفندي.. أضعتَ جاموساً، قلها مثل الخلق. الزبد يرغي على فمك، ولا يفهم منك حرف.

- أنا، عندما أغضب، أصبح هكذا. المال سند الروح. ماذا يعني فقدان جاموس كبير؟ يا هوه، كبدي احترق. أفلا أصرخ؟ عندما أصرخ، أنا نفسي لا أفهم شيئاً من صراخي.

ولَكْ صارت وصارت.. صرت تحت المشرط، اسكت. اعمل عملية جراحية مجاناً، وتخلص مما تكابده. لكن ما فيه عقل.

نزل عثمان شرقاً. توزع والحراسُ ورجالُ الجندرمة في كل اتجاه.. لم يعثروا على الجاموس.. لم يتركوا إسطبلاً لم ينظروا فيه.

جزاء سرقة الحيوانات كبير. في بلدتنا لم يسمع بها من قبل، ولم تحصل. وخوفاً من الاتهام بسرقة الجاموس خرج الجميع يبحثون عنه، ليس في البلدة فقط، القرى أيضاً فتشت.

قال قائد الجندرمه:

- حينما سأعثر على الجاموس، إذا لم أهدم المكان الذي سأجده فيه، إذا لم أجعل سارقه يحصي نجوم السماء.. لا أكون رجلاً.

وحلف على ذلك يميناً معظماً.

خمسة عشر يوماً مرت، لم يعثروا على الجاموس. قال قائد الجندرمه:

- عشرون ليرة لمن يعثر على الجاموس، خمسون ليرة لمن يدلنا على السارق.

ولا جاموس. هل عرج ذلك الحيوان المبارك إلى السماء؟ لم نعثر عليه حياً، ولا ميتاً. مر شهر، وإذ بقائد الجندرمه يخرج منادياً:

- صدر عفو عن سارق الجاموس. فليعلن عن نفسه، ولن يمسه أحد بأذى. حتى إنه لن يتعرض لنكشة.

أيضاً، لاحس.. لا الجاموس ولا سارقه. أعلن القائد:

- ليطلقْ السارقُ سراحَ الجاموس ويأتِ ويأخذ مائة ليرة حلالاً زلالاً.

ولا أثر.. يا هوه، لا أثر.

ونحن في حمى البحث عن الجاموس، كبُر المحامي برهان المسألة. ألم يصبح إبراهيم بيك نائباً؟ طق المحامي برهان من الغيرة، وصار يطوّل لسانه على كل ما قدمه

إبراهيم بيك من إنجازات لهذه البلدة. واخ يا سيد.. قال لماذا المسجد طالما أن في البلدة مسجداً؟ تناهى إلى مسامعنا أن الزنديق برهان يقول عنا:

- هؤلاء لا يصلُّون يا هوه. كانوا في السابق يذهبون إلى المسجد من الجمعة إلى الجمعة.. يصلون الجمعة، مع أن صلاة الجمعة ليست من الفروض. ألأنهم يعرفون ذلك؟ لا، إنهم لا يميزون بين الفرض والسنة. لماذا كانوا يذهبون إلى صلاة الجمعة؟ من أجل العبادة؟ كلا.. لكي يلتقوا في باحة المسجد من أجل الحَرّ واللّوص، ومن أجل التباعق، والصلاة ذريعتهم. المسلم.، إذا أراد أن يصلي، يصلي الأوقات الخمسة. أين قُتِلَ بهلول؟ أنسيتم؟ ألم يطعنوا ذلك السبع بهلول من الخلف وهو يصلي الجمعة؟ هؤلاء مسلمون من النوع الذي يرسم ويخطط لضرب رجل وهو ساجد. وماذا فعل رمضان أخو بهلول؟ ألم يطلق النار على خال قاتل أخيه وهو في طريقه إلى صلاة الجمعة؟ هذا الإسلام، على مَنْ؟ كيفما كان فليعودوا إلى عهدهم السابق ويذهبوا إلى المسجد من الجمعة إلى الجمعة. الآن حتى هذا لا يفعلونه. لم يعد أحد يذهب إلى صلاة الجمعة. ينتظرون العيد.. يصلون مرة كل عيد.. مسلمو ماذا هؤلاء؟ مسلمو أعياد؟ يأتي العيد فيقفون للصلاة.. حاشا لله، أيخدعونه؟

نعم. هذا ما قاله الكافر ليسمم أفكار الناس به.. الله الله! إذا كنا لا نذهب إلى المسجد؟ هل يكفي مسجد واحد لبلدة كبيرة، خصوصاً وأنّ أعمدته طقطقت وآلت إلى السقوط فوق رؤوسنا؟ ما الذي يتوجب فعله الآن؟ أنتركه يسقط فوقنا أثناء السجود ليبقى المسلمون تحت الأنقاض؟ لماذا عزمنا على بناء مسجد آخر.. ليرض الله على إبراهيم بيك زوبَكْ زادَهْ، ولا يحرمنا منه.. لقد قام بالخطوة الأولى إذْ أسس جمعية إعمار المسجد.

وضعنا في البازار، وفي منعطف كل زقاق، صندوقاً خشبياً. الصناديق مدهونة بأخضر الكعبة، مكتوب عليها (أيها المسلم. ساهِمْ في بناء المسجد). صرنا نجيء بها مرة في الأسبوع، أو كل عشرة أيام، إلى مقر البلدية، ونفتحها بحضور الجميع. ننظر في الصندوق فنجده مملوءاً، بالكاد يستطيع رجلان حمله. وكل شيء موجود فيه، عدا النقود.. النقود وحدها غائبة. يضعون فيه ما يشاؤون. لقد حولوا الصناديق المدهونة

بأخضر الكعبة إلى صناديق زبالة. . أعقاب سجائر، أزرار، خرق قماشية. . لأقل: كل ما قد يخطر ببالك، عدا النقود. يا هوه، عندما وضعنا حاوية في البازار، صاروا يرمون أوساخهم على الأرض. . كانت الصناديق غير موجودة، أما الآن فقد حولوا صناديق التبرعات إلى حاويات زبالة. لكن لماذا؟ إنها من تضليل ذلك السافل برهان. لقد زعم أننا نبلع النقود التي نجدها في الصناديق. . ولاه، أين النقود حتى نبلعها؟ أنبلع الزبالة يا خَربان البيت؟ حينما كان يحمل صندوق التبرعات رجلان، ويطحّان من ثقله، كان الآخرون يظنون أننا سنجد بداخله كنزاً. . لكننا، بهذه النقود، لا نستطيع عمل عصفورة لباب المسجد، ناهيك عن المسجد. وإذّاك قدم زوبك اقتراحاً. قال: نضع على جانبي الطريق رجلين، نعلق في رقبة كل منهما محفظة، وكلما مر باص، شاحنة، سيارة صغيرة، يقف حاملا المحفظتين في وسط الطريق رافعَيْن أيديهما:

- قف! أيها المسلمون، سنبني مسجداً. فماذا يطلع من خاطركم؟

ايصالات بخمسين قرشاً، وبليرة واحدة. . قص قص قص. . وأنت تعرف، في الازدحام يخجل الناس من بعضهم. . يا غيرة الدين. . . ويفكفكون الأكياس.

الشغلة مشت. جمعنا نقوداً كثيرة. بلدتنا مفتوحة على البيع والشراء. . وكل من يجمع تبرعات للمسجد يأخذ عشرين بالمائة مما يجمع. صار الجميع يعلقون المحافظ في رقابهم، وينزلون إلى الطريق.

وبينما كنا نشد الهمة لجمع التبرعات، وإذ بشكري الحافي. . أنت تعرفه، ياه؟ ولد مسكين، طقّان عقلُه، مجذوب، يعيش على باب هذا وذاك. . وإذ به فلتان على الطريق، يفقس بأصابعه ويهز خصره قائلاً (وجدته وجدته. . هيه . . . . ـه!). . (هاتوا البشارة. . وجدته).

نحن كنا في مقر الحزب، وكنا قد فتحنا صندوقاً وأخذنا نفرز الزبالة، وإذ به. صحنا:

- ما هذا الذي وجدته ولاه مجنون؟
- هاتوا البشارة. لقدوجدت جاموس عمي القصاب عثمان.
- لا تقلها. أين يا ابني؟

- في المسجد. وجدته ساجداً قدام المحراب. صحت به (دا. . ها. .) فلم يتحرك.

نزلنا إلى الزقاق، وتوجهنا نحو المسجد. لقد غدا الجاموس الضخم بحجم فأر الحقل. شيء لا يُصدَّق. . جاموس كبير لم يبق منه غير العظام، وجلد أسود يضب عليها. حضر القصاب عثمان راكضاً، ووقف عند رأس الحيوان وأخذ يبكي ويقول (واخ واخ. . هذا ماكنت أحسبه).

قال الشيخ بدر الفهمان:

- لاتُسْمِعُوا هذه البهدلة لأحد. أرجوكم، خلوها هنا. لو سمع المحامي برهان بهذا لشرشحنا، وأطلع مُنادياً.

كان واضحاً أن الأمور جرت على النحو التالي: كان الجاموس وراء القصاب عثمان. . وهذا حيوان ياه، يميل إلى هنا وهناك. مال برأسه، صوَّب بصره من خلال باب المسجد، فرأى الستارة الخضراء في الداخل، فظنها مَرْجاً أخضر، فدخل. باب مسجدنا مثل باب الحمّام. تعرفه، ممسوك بقطعة من حديد من الداخل. لكي تفتحه يتوجب عليك أن تدفعه من الخارج، وتسحبه من الداخل، كي تشد قطعة الحديد الملفوفة على بكرة، فينفتح. فهل يعرف الجاموس ذلك؟ دخل إلى الداخل، فلم يجد مَرْجاً. . حاول الخروج، ما استطاعه. ضرب برأسه، لم يُفتح الباب. لو كان يعرف كيف يسحب الباب إلى جهته لكان تمكن من فتحه. بقي في المسجد شهراً بحاله. جرّب الحيوان قضم السجاد، اللباد، خشب الأرض. . وفي النتيجة، لم يستطع الصمود فسقط. سقط الحيوان المبارك قدام المحراب. . ذاب، ذاب، . . ذاب كله، عدا العظم والجلد. دفعناه، ركلناه، . . لم يتحرك. الحالة سيئة. ثبّت الحيوان عينيه وكأنه يقول (لاتدفعوني، لا تفعلوا لي شيئاً. . دعوني ألفظ أنفاسي). . لكن القصاب عثمان مصاب في ماله. . فراح يقول (يا مسلمين! . . الذي يحب الله يشيل).

رأيت أن هذا لا يجوز فقلت:

- الرحمة! اتركوه. لا حيل له يساعده على الوقوف على قوائمه. هاتوا له طعاماً إلى هنا، عله يأكل فتدب فيه الروح.

لكن، لم يصغ إليّ أحد. رفعوا الجاموس من ذيله، ومن رأسه، وأوقفوه على قوائمه بالرغم عنه. وإذ هوى، هوى معه القصاب عثمان. لقد وقف الحيوان وقفة النفس الأخير، استهلكه، ثم لفظه. كاد القصاب عثمان ينبطح تحت جثة الجاموس، أبعدنا الجثة وأنقذنا القصاب عثمان.

في هذه البلدة التي بقد راحة الكف، هل بقي كلام لم نسمعه. وصل الخبر إلى المحامي برهان.. فهل يلمّ لسانه بعدها؟ صار يقول:

ـ هؤلاء مسلمو أيش؟ يا هوه.. شهر بحاله، والمسجد مغلق على الجاموس لا يستطيع الخروج.. وهم لا علم لهم بذلك؟ أين صلاتهم؟ أين إمام المسجد ومؤذّنه؟ ألا يوجد من يكنس أو يمسح؟ ألا يوجد من يدفعه الفضول ليرى ما في الداخل.. ألا يوجد من يمط رأسه من الباب إلى الداخل؟

نسمع هذا كله. لو كان إبراهيم بيك موجوداً لكتم أنفاسه. يحكي لأنه وجد الميدان خالياً. من جهتنا أبلغنا إبراهيم بيك بذلك أولاً بأول. اتصل ابراهيم بيك بالفرقة الحزبية وقال إنه آت قريباً. لكن زوجته وصلت قبله. ما شاء الله على هذه المرأة، متأقلمة مع جو أنقرة بسرعة. زوجة نائب بحق.

إذا كان بودك الحقيقة: زُويُكنا ليس رجلاً. نعم، هو يكذب، يكذب، لكن هذا كذب؟.. عندما يسمعه الواحد فقد يشك بنصف كلامه.. أما أن يكون الكلام كله كذباً، من رأسه إلى قدمه؟..

حكت زوجة زويُكْ للمولِّدة الست خيرية أولاً.. ومن عندها انتشرت. لم تترك المرأة ألسنة الناس تتوقف. تتنقل زوجة إبراهيم بيك من باب إلى باب، وتحكي...

حينما وصلوا أنقرة، نزلوا لفترة في فندق. بعدها استأجر بيتاً:

ـ فيه شوفاج. كل أطرافه دافئة، حتى الممر. في مثله يشعر الانسان بانسانيته.

وذات يوم رن جرس الهاتف، فهرعت زوجة زويُكْ إليه:

ـ كان على الخط رجل. سألني (إبراهيم بيك موجود؟) فقلت له (لا. ماذا تريدون منه؟) فقال (بيننا عمل، نريد أن نراه لأجله) فقلت له (وماهو العمل؟ إذا كان من النوع الذي نعرفه، قولوا!) وإذّاك قال لي (مَنْ أنتِ؟ خادمة إبراهيم بيك؟ أم من تكونين

بالنسبة إليه؟) فغضبتُ وقلت (أنا زوجة ابراهيم زويُكْ أوغلو)[1]. فعدّل الرجل لهجته وقال (عفوا ياست، كنا نريده للتباحث في أمر يخص الحكومة. كنا نريد استشارة إبراهيم بيك في مسألة) سألته (مَنْ حضرتُكم حتى نقول له عندما يأتي؟) فقال (أنا رئيس الوزراء، لطفاً، قولي له إنني طلبته!).. وفي الحال انحلّتْ ركبتاي، وسقطت السماعة من يدي، وتكومت في مكاني. بعد قليل جاء رَجُلُنا وقال مازحاً (ما هذا يا امرأة؟ مالَكِ متكوِّمة هكذا مثل الجاموس المقدد؟) فقلت له (اتصل بك حضرة رئيس الوزراء. سأل عنك وقال إنه يريد أخذ مشورتك في مسألة تخص الحكومة) فقال لي (كم أتضايق من هذا الكافر.. يأخذون رأيي، ثم، لا يعملون به)... لإبراهيم في أنقرة شأن. الكل يستشيره. الحكومة لا تنصّبُ شخصاً ما لم تستشره. لو شاء إبراهيم لما أعطى وجهاً لأحد. لو رأيتم أنقرة. زويُكْ أوغلو فوق.. زويُكْ أوغلو تحت.. زويُكْ أوغلو على كل لسان.. وأنا أيضاً، ينادونني مدام زويُكْ أوغلو.. كل يوم يتصل بنا رئيس الوزراء..

نشرت زوجته هذا الكلام بين الجيران واحداً واحداً، حتى صاروا مسخرة على كل لسان. نحن شهدنا من زويُكْ خمسين ألف لعبة. وعندما حكت زوجته هذه الحكايا فهمنا.. الذي كان يتصل بها من خارج البيت قائلاً (أنا رئيس الوزراء) هو زويُكْ نفسه. يتصل بها، وعندما يصل البيت يقول عن رئيس الوزراء ما لا يقال، ويبيعها منفخة. وزوجته تنشر هذا الكلام هنا وهناك، وتقول (اسمنا كَبُرَ في أنقرة، وذاع).

وصلت زوجته قبله، حكت كيف ذاع صيتهم في أنقرة، فبهدلت زوجها، ومن جهته زويُكْ زادَهْ، وكأن هذا لم يكفِه، جاء وكساها بالريش.

اجتمعنا في رابطة المعلمين. كان الغرض من اجتماعنا إعلان خلوّ الحزب في بلدتنا من الانشقاقات. البلدة كلها لنا، أليس كذلك ياه؟.. جاء زويُكْ زادَهْ. في الحقيقة النيابة لائقة عليه.. كان عليه حلاوة من نوع آخر. نهضنا واقفين ففتح ذراعيه وقال:

ـ أرجوكم. أرجوكم لا تخجلوني.. تحبون الله اقعدوا.

ـ إي إبراهيم بيك، ما الأخبار؟ احك لنا حتى نسمع.

[1] ـ هكذا في الأصل. وهي مقصودة لزيادة التضخيم. المترجم.

العسل يسيل من فم زويْكْ زادهْ. في البداية كان يحكي على نحو جميل. . لكنه سرعـان ما أضاع رأس الشَّمُّوط: الحكومة لا تستطيع القيام بعمل دون استشارته. . علاقته مع رئيس الوزراء خوش بوش. . الأكل والشرب معاً. .

ـ ذات يوم اشتغلنا من الصباح إلى المساء. في المساء حل علينا التعب. قال رئيس الوزراء (تعال نَمْرح الليلة ونصرفْ نقوداً) فقلت له (ولاه. . يا ابني، غَيْرَ بَدَّلْ. . عيب علينا. يبِّس رأسه، فلم أستطع ثنيه. ركبنا سيارته الحكومية. قلت (تعال نترك سيارتك؛ ونأخذ تكسي، أحسن) لا يرد لي طلباً. تركنا سيارته وأخذنا تكسي. هذا المحل لي، هذا المحل لك. . لم ندع مكاناً لم ندخله. لكننا لم نجد مكاناً نلهو فيه من كل قلبنا. المهم، ولكيلا أطيل، عنـد منتصف الليل ذهبنا إلى أفخم كازينو في أنقرة. الجدران مرايا ومخامل. . الفرقة الموسيقية تعزف مقطوعة راقصة. رئيس وزرائنا، سلمه الله، رجل جيد ومرح. . لكنه، عندما يَسْكَرُ، يخبُص. شرب شرب. . ،ثم ركب رأسه وقال لي (تعال نَخْتَرْ اثنتين من هؤلاء، ونطلبهما إلى طاولتنا) فقلت له (ولك ابني، لا، ممكن الناس ما تعرفك أنت، لكن ماذا لو طلع واحد من معارفي هنا، وقال واخ على زويْكْ زادهْ، ترك شؤون الـدولة وجرى وراء النسوان). لم أستطع إرجاعه. ولأنني انشرحت على الآخر، فقد أضعت الجهات. . قلت في سري (فَلْتَسْكَرْ ملعقةُ الرز) ، وناديت أجمل امرأتين، ثم رحت أُخَمِّس. جلستـا معنـا، لكيلا أطيل، جاء الجرسون بالفاتورة، فنتشها رئيس الوزراء من يده. حاولت أخذها منه فقال (أرجوك، مستحيل. . أنت اليوم ضيفي. . الحساب علي). . يعني مهما يكن الأمر، رئيس وزراء كبير. لم أضغط عليه. فَرَدَ الفاتورةَ التي كانت مطوية طاقين، فانخطف لونه واصفرّ وجهه. ما الأمر يا ترى؟ هل أخذ عليه المشروب؟ لكن تَغَيُّرَ لونه، كما بدا لي، لم يكن من المشروب. ضربت عيني على الفاتورة، وإذا المبلغ ثمانيمئة ليرة وكسور. فهمت: ما معـه نقود تكفي لدفع الحساب، وكان انخطاف لونه من هذا السبب. لو قلت له (هات حتى أرى) ونترتها من يده، عندئذ رئيس وزراء كبير سيتبهدل قدام امرأتين. تحركت بسرعة، سحبت أم الألف من الرزمة، ومددتها تحت الطاولة، ودسستُ على قدمه. لكنه لم يلتفت، وثمة من سحب أم الألف من يدي تحت الطاولة. أنا ظننت رئيس الوزراء هو الذي سحبها، لكن أليست المرأة الشقراء

التي بجانبي هي التي سحبتها؟ نساء تلك الأماكن يعرفن رائحة النقود. اربطْ عينيها ومد لها قطعـة نقـود تعرفُ لك الورقة من أي فئة. سحبت من الرزمة أم الألف أخرى، أدخلتها تحت الطاولة ودسستُها في يده. عندها سحب آهاً وارتاح. قال لي (إبراهيم! لن أنساك أبداً. لقد أثْبتَّ لي أنك رفيق الروح، وصديق شهم. . غداً أردّها لك) فقلت له (ماذا تعني؟ وهل بين الأصدقاء ذكر للنقود؟. . . مرة لك ومرة لي. .) . . يعني، ما أردت قوله، نهارنا وليلنا معاً، وليس بيننا أي خلاف.

يا سيد، منذ أن عُرِف الكذب لم يحصل مثل هذا. يا هوه. . إن زويْكْ زادهْ هذا سيجعل قيمتنا، بين الناس، قرشين. ولاه، هنا ثمة حياديون، ومعارضون. . فهل يجوز سحبُ مثل هذا الكذب؟

أقـام في البلدة أسبوعـاً، وفي كل اجتماع يسحب كذبة جديدة. كذب ودجل طازجان. . ليس ككذبه السابق، فالرجل استفاد في الكذب كثيراً خلال إقامته في أنقرة. في السـابق كان يسحب، لكن ليس كهذا. زوجته من جهة، وهو من جهة. . وعلى سحب. عندما سمع المحامي برهان بهذا، كاد يرقص فرحاً. قال لنا (هذا هو المسخرة الذي انتخبتموه!) فماذا نقول له؟ لو قلنا (بل إن كلامه صحيح)، فهذا يعني أننا مع الكذب.

نحن ما دعوناه على ما بدا من أجل إصلاح ما خرّبه المحامي برهان، وكتم نَفَسِه، ولكن لكي يصبح مسخرة الزمان. ليس كما تحسب يا سيدي، لقد زوّدها كثيراً.

وقد عاد إلى أنقرة بعد هذا. قبل أن يغادر قال لنا (شكّلوا وفداً من البلدة، وتعالوا إليّ في أنقرة. سنقيم سداً على القامشلك، وسنبني مصنعاً في بلدتنا. شكلوا وفداً وتعالوا طالبوا بالمصنع والسد، حتى تكون لي عين أدعمكم بها).

ذهب. ونحن شكلنا وفداً من إحسان أفندي الصف ضابط وحمزة بيك جفتفران أوغلو وسطلمش بيك صاحب الفندق واسماعيل أفندي عبد الله ومني. وقد وضعنا ذلك الذي يزعم أنه فهمان في كل شيء، ويدسّ أنفه في كل المسائل، الشيخ بدر الفهمان، على رأس الوفد، واتجهنا إلى أنقرة.

وفي أنقره... آه، من الذي عانيناه هناك آه. . أية لعبة من ألعاب علي جنكيز أعدّ لنا عديم الناموس. . ألعاب لم تنزل في كتاب، ولم تحسب في حساب.

هذا يعني أننا عصينا الله، فسلطه على رؤوسنا، ليعطينا درساً، كي نعتبر. لكن ما عندنا عقل نفكر به. عندما نجعل هكذا رجل نائباً.. فَكِّرْ أنت بالباقي. هل يؤمل منا خير؟ نحن هكذا، لسنا أهلاً لأن تكون لنا بلدة، ولا حتى قرية. هكذا جئنا، وهكذا نمضي.. هل حلت بنا اللعنة، أم جاز بنا الدعاء؟

سنحتمل قدرنا.

ماشون غلط

الرسالة التي كتبها معلم اللغة الألمانية إلى صديقه:

.. الحبيب:

إني أختنق. متوقف عن كتابة الأدب. اختناقي حقيقة واقعة؛ الهواء لا يكفي، نَفَسي ينقطع. حتى الرياح التي تهبّ من قمة الخضرلك، والتي توقع الانسان من طوله، فإنها تدخل رئتي وكأنها غاز سام. ودون تفكير مني، ولكي أنقذ نفسي، أشرب. عندما أشرب أرتاح. في الصباح أجد لساني صديانَ وفمي ممروراً. كل مرة أستيقظ فيها أنوي أن لا أشرب ثانية، وأقطع على نفسي عهداً بذلك. أريد أن أنتفض وأصحو، لكن، دون جدوى. في بداية النهار أبدأ بالاختناق، لا هواء، لا هواء. أتيت إلى هنا ففقدت اندفاعي؛ وذلك الماء الذي كان ينبع من داخلي ويفيض، ماتَ ودفن تحت التراب الميت.

تدينُني. أليس كذلك؟ عندما أتخلص من هذا المكان سأدين نفسي أنا الآخر. ها قد مضى عام آخر.. العماليق لا تستطيع القيام بهذا العمل. لقد خُدرت وبقيت.. وقد صرت أضحك دون معنى، مثلهم تماماً. أسألهم عن أحوالهم:

ـ ماذا تعملون يا خي؟

فيجيبونني:

ـ ماذا نعمل يا سيد؟ إذا ضَرَبْنَا فعلى رُكَبِنَا، وإذا بكينا، فمن أعيننا!..

لا يوجد سوى الركبة والعين. وهل هذا طريق خلاص؟ وسؤال بقي دون إجابة:

هل ننزل إلى عند الشعب، تاج رؤوسنا، أم نرفع الشعب إلينا؟ المهم، سنفعل شيئاً.

كم هو هينٌ الجلوس في المدن الكبيرة والتفكير في الشعب. أفكر في حُسن نواياي، بل في جنوني الذي كان قبل مجيئي إلى هنا. لقد سيطرت عليّ لعبة اسمها الشعب. كيف خدعونا، ضللونا، وجعلوا منا حواة شعب!! الشعب يعرف!.. الشعب يعرف كل شيء.. عند الشعب تنبؤ نفاذ بالمستقبل.

كذب، كله كذب. قولنا (الشعب يعرف كل شيء) هو عبارة عن تهريج كبير. الشعب ليس حتى مع نفسه. إنه شيء آخر. يرى الشيء الصغير جداً عملاقاً ضخماً. إذا لم يكن كذلك، فكيف هو؟ كذباً نحبّ الشعب.. وكلما ظهرنا هرّجنا على الشعب. مصدقو هذا هم أمثالي. سنجفُّ، سننتهي ونذهب مثل الأسئلة الفارغة، مثل التنبؤ الممتد إلى آخر الصحراء اللامتناهية، مثل التخلف، الضياع، الجهل..

انتبهْ إلى عبارة (الشعب يعرف، الشعب يتنبأ)، لا تحتقر الشعب، ولا تعدّه لا شيء، امنحه الحب. كذب، لقد خدرنا الكذب الكبير.. فالشعب لا يعرف أي شيء، ولا يتنبأ بشيء. لو كان يعرف، لو كان يتنبأ، فهل كان خُدع طوال هذه القرون؟ كيف يُفبْرَكُ هذا الكذب المخدِّر؟ الحقيقة أننا لا نريد للشعب أن يتعلم، ولا أن يعرف. لو كنا أردنا ذلك لكنا اطّلعنا على حقيقة الشعب، ثم فكرنا بما يتوجب علينا فعله. لماذا نعتبر الشعب أكبر مما هو عليه؟ هل توسط الله للناس الذين لا يعرفون القراءة والكتابة؟

في آخر هذين العامين اللذين مضيا دون ثمن، وبمثالية غبية، ولكي لا أفكر في شيء، لا أجد طريقة لقتل الوقت غير لعب الورق في رابطة المعلمين، والشرب. لو جئت أنت إلى هنا، أعرف أية دروس ستلقي علينا، وأية نصائح ستعطينا. في أول عهدي هنا، كنت هكذا. كنت أنظر من خلال الزجاج المتسخ المغشى، إلى الرجال الذين زحموا المقاهي وتجمعوا حول الطاولات ورؤوسهم غارقة في الورق. أنظرُ إلى وجوههم القذرة وهي تتطاول تحت الضوء الميت، إلى أيديهم وكأنها معمل (خفان)، ترتفع وتنخفض بالورق المتسخ المدهّن بأثر الطاولات المرمرية المكسرة.

إن مَنْ يأت إلى هنا، سيصبح، بعد فترة، أشد سواداً منا.. نحن بشر وليس عمالقة.

ليس مثقفو المدن الوحيدين الذين يخدعون الشعب.. مثقفو الريف أيضاً. مثقف الريف يتوسط لمثقف المدينة كي يستطيع، هذا الأخير، خداع الشعب..، وأمثالهم هنا إحسان أفندي الصف ضابط والشيخ بدر الفهمان وحمزة بيك جفتفران أوغلو وأمين أفندي التاجر وإسماعيل أفندي عبد الله ومرتضى أفندي سلمه الله.

أمس اجتمعوا هنا، وراحوا يتناقشون في أن القرويّ يعرف كل شيء. كان يقال:

ـ أي ضابط أركان حرب بشحاطة هو!

ولإثبات جهل الضابط أركان حرب ذي الشحاطة، روى إحسان أفندي الصف ضابط الواقعة التالية:

«كنا في مشروع قتالي؛ انسحب فصيلنا المتنقل إلى جنوب تل لا تأتيه الريح. عندما حل الظلام قال لي الملازم أول (خذ الفصيل إلى المكان الفلاني). جمعنا الخيام وخرجنا إلى الطريق. الجو مظلم، لم نكن نلمح نجمة واحدة في السماء. كنت على حصاني أمام الفصيل. بعد خروجنا بنصف ساعة، سمعتُ صوتاً يأتي من الخلف:

ـ ماشون غلط!..

فقلت:

ـ من الذي يقول هذا؟

فلم ألق جواباً. بعد ساعة أو ساعتين جاء الصوت من الخلف أيضاً:

ـ ماشون غلط!

ـ من هذا

أيضاً لم ألق جواباً. وبعد زمن:

ـ ماشُون غلط!

ـ مَنْ هذا؟ ليخرج!

فلم يخرج أحد. تجاوزنا منتصف الليل. كان يجب أن نصل إلى المكان المحدد قبل زمن طويل.. استمر الصوت يقول (ماشون غلط!) من داخل الصف حتى الصباح. فماذا رأينا عندما حل الصباح؟ ألا نرى أنفسنا في المكان الذي انطلقنا منه؟ كنا ندور حول التلّ حتى الصباح.

الححتُ على الفصيل:

ـ مَن الذي كان يقول (ماشون غلط)؟

فقالَ أحدُ الرقباء:

ـ سيدي، حسين هو الذي كان يقول ذلك.

كان عندنا في الفصيل مجند كنا ندعوه حسين الأقرع. كان على وشك الانتهاء من الخدمة، ومع ذلك لا يتقن مشية الرجل العادي. قلت له:

- تعال ولا حسين إلى هنا، كيف عرفت أننا كنا ماشين غلط؟

فتقدم مني قائلاً:

- سيدي! عندما انطلقنا من مكان التوضُّع، كان الهواء يضرب خدي الأيمن. بعد انطلاقنا بقليل صار يضرب خدي الأيسر، ففهمت أننا عدنا من الطرف الآخر من التل باتجاه مكان الانطلاق، فصحت (ماشون غلط). ثم مشينا من جديد، فعاد الهواء يضرب وجهي، من اليمين تارة ومن اليسار تارة أخرى، فعرفت أننا كنا ندور حوالي التل.

- ولاه حسين، عندما سألتكم من الذي يصيح، لماذا لم تخرج إلي؟

فقال:

- سيدي. ما كنتم لتعيروا انتباهكم لحسين الأقرع، أو تصدقوا قوله بأننا «ماشون غلط».

عندما انتهى إحسان أفندي الصف ضابط من روايته، قال:

- مَنْ عنده عقلُ ابن ريفنا؟

لم أستطع صبراً، فقلت:

- أوَتقول عن هذا إنه عقل يا إحسان أفندي؟ أبناء المدن يفكرون مثلك أيضاً. مثلك تماماً (شعبنا ذكي. شعبنا مثقف). أين وجه الذكاء في هذا؟ أولاً: قلة العقل تبدأ من عندك. في أواسط القرن العشرين تعتمد على اصطدام الريح بوجه الانسان، بدلاً من البوصلة!.. إن اعتمادك، في هذا العصر، على وجه حسين الأقرع، لا يدل على ذكاء حسين، بل على غبائك. وهل الريح تهب دائماً من طرف واحد؟ لو كانت الريح تهب من اليمين تارة ومن الشمال تارة، ووافقت حسين الأقرع، فحسبت نفسك تروح معهم وتجيئون على محور واحد، فما الذي كان سيحصل؟

هكذا حكيت. لكن لمن؟ فلو كان هذا الشعب مثقفاً، دراكاً، هل كان يمكن لإحسان أفندي الصف ضابط العيش من تعب المساكين؟ لقد خدروا الشعب بقولهم (الشعب يعرف)، ونحن انضممنا إليهم دون وعي منا.

تجولت في قرى الناحية. وفي أول قرية بتُّ الليل فيها، صادف أن اضطررت للذهاب إلى المرحاض سألتهم:

- أين مرحاضكم؟

فناولوني ابريقاً نحاسياً وقالوا لي:

- هنا كله مرحاض! اذهب من هنا..

دخلت حصيدة قمح. وإذ كنت أحاول فتح مكان لنفسي بين العيدان المقصوصة المنتصبة، تراكضت كلاب القرية نحوي. ولولا سكان البيت الذي كنت مُستضافاً فيه، لقطعتني الكلاب الضخمة تقطيعاً. خرج الجيران، التف قسم منهم حولي، والتفتِ الكلاب حولهم. أنا بين عيدان الحصيدة، حولي حلقة من القرويين، وحولهم حلقة مِّن الكلاب. والكلاب تنبح فيصيح القرويون بها:

- وُشْتْ.. وُشْتْ!..

قال لي أحدهم:

- لا تخف يا سيد، شف كيفك!!

أترى إلى هذا الكيف؟ واقف على ساقي، أنا في المقدمة، الابريق في يدي، والقرويون ورائي يصيحون (وشت، وشت)، ووراءهم قطيع من الكلاب النابحة.. حتى البيت، وبهذه المراسم! ومع ذلك ها نحن نقول للواحد من هؤلاء العائشين بدون مرحاض، دون خجل من أنفسنا:

- أنت يا سبعي تعرف كل شيء. أنت متنبيء.. يا شهم!

ونطبطب على ظهره. نريد تنويمه، ونخدع أنفسنا فوقها.

هل تعرف مِمَّ يعيش سكان هذه القرية؟ إنهم بوابون. شبانهم، نساؤهم، رجالهم، كلهم،.. يذهبون إلى أنقرة، اسطنبول، ويعملون في الفنادق والبنايات، كبوابين، وما يحصِّلونه يرسلونه إلى آبائهم وأمهاتهم. كل خمس سنوات، عشر سنوات، يجيء الواحد منهم لزيارة قريته مرة. لا يستطيعون التخلص من قريتهم نهائياً. وعندما يهرم واحدهم يعود إلى هذه القرية ذات التربة القاصرة، يستقر فيها، ويرسل أبناءه وبناته للعمل كبوابين. عددت الأشجار، لا يوجد سوى أربع أشجار إجاص بري. السيول جرفت التربة، حتى أن الواحد هنا، يعطي واحداً ونصف الواحد، أو اثنين، يزرعون كيلوغراماً من الحبوب، يروونه بعرق جباههم، ليحصلوا منه على كيلوين. لا ييأسون من هذه التربة القاصرة.

لقد وقف أبناء هذه القرية على أبواب بنايات اسطنبول وفنادقها، ونظفوا مراحيض تلك البنايات والفنادق ذات الشوفاجات، المبلطة بالبورسلين الأزرق والزهري والأبيض. . وحين عادوا إلى قريتهم، لم يبنوا لأنفسهم مرحاضاً.

لماذا؟ هل نفكر في أسباب ذلك، ولو مرة؟

فلو قلنا إنها من قلة اطلاعهم. . فهذا غير صحيح. على مدى سنين يرون أجمل المراحيض، وينظفونها، ويستعملونها أيضاً. لكنهم لا يعملون لأنفسهم مراحيض. الاطلاع وحده لا ينفع؛ على المرء أن يأخذ ما يراه بالاعتبار، يُعجب به، ليرتفع من ثم إلى مستوى معين. إذا لم يرتفع إلى مستوى معين، فإن كل ما يراه فارغ. إنهم يعتقدون أن تلك المراحيض التي ينظفونها ليست لأمثالهم، وإنما هي للقاطنين في البنايات والفنادق التي يقفون على أبوابها.

وها نحن نزعم، زوراً، أن الشعب (ذكي، درّاك، متنبيء). لقد خدعونا وكذبوا علينا. . ضَلَّلنا فصرنا نضلل الشعب، دون وعي. لو كنا عرفنا الواقع المر، لو أدركنا أنه من دون التربية والتعليم، لا يمكن للانسان أن يكون مثقفاً، دراكاً. . . ، لَكُنّا فكرنا في ما يتوجب علينا فعْله. . لكن، عندما نقول (الشعب يفهم ويعرف)، لا يبقى للتفكير محل.

إن قولنا عن هؤلاء الذين يستخدمون مراحيض المدن المكيفة، المبلطة بالبورسلين اللماع، في حين هم ما عندهم مراحيض: (الشعب. . الشعب يفهم)، هو خدعة كبرى. أُنظر إلى هذا الجنون، من أجل تشليح الشعب أكثر، خدعونا نحن، حتى ظننا أن خداع الشعب هو شيء من قبيل (الشعبية).

سأحدثك الآن عن الشيخ بدر الفهمان: له قبعة مخملية، لها واقية شمس، مائلة دائماً جهة اليسار، وإلى الوراء. تحتها عرقية وسخة مزقّتة. عندما يذهب لصلاة الجمعة يضع قبعته بجوار حذائه، ويصلي وهو بالعرقية فقط. رجل بدين مدعبل، له وجه أليف، وكلامه قريب من الروح.

الجميع هنا يتحدثون بحلاوة، وإقناع. لا يمكنك تقدير نسبة الكذب في كلامهم الظريف الحلو، إذا لم تقارنه بغيره من الكلام.

أنا أرى أن أمين أفندي التاجر لا يقل ذكاء عن الشيخ بدر، بل إنه، في بعض الأحايين يبزه. أمين أفندي رجل قريب من القلب، يحلق شعره بماكينة نمرة زيرو. عندما يشرب الماء يضع إحدى يديه على رأسه. . ساقاه وكأنهما متصالبتان، يمشي كما تمشي البطة. . لا يُشْبَعُ من كلامه.

عندما يتحدث الناس هنا فإنهم يشتمون كثيراً، عدا إسماعيل أفندي، فهو لا يشتم. . عندما يغضب على الآخر فإنه لا يشتم ولا يصرخ، ولا يقول للرجل الذي أمامه غير عبارة (يا عبد الله!) عندما يقول (ياعبد الله) فهذا يعني أنه في أوج غضبه. . من أجل هذا لقّبوه (إسماعيل أفندي عبد الله).

أخي. مهما كتبت فلن أستطيع شرحَ ما أنا فيه من ضيق. يجب ان نلتقي، وأن أضع رأسي برأسك، وأحكي لك لمدة أسبوع او عشرة أيام. لقد قرفت على الآخر. أُقدِّمُ الطلب تلو الطلب من أجل نقلي من هنا. . ولا جواب. إنهم لا ينقلونني إلا إذا كنت مريضاً، وكان جو المنطقة يزيد في مرضي. عاينوني في مشفى المحافظة، فطلع معهم أنني لا أعاني من أي مرض. وقالوا إنني مثل الفجل (يعني قوي).

إنني أقبلُ أن أكونَ مريضاً في سبيل نقلي من هنا. أعرف مرضي جيداً: إنه اليأس، الحزن، الانهيار النفسي. أخرجُ من نفسي لأصبح انساناً آخر. يأسي يأتي من كوني لا أدري ما يتوجب علي فعله. إنني لا أستطيع العيش من أجل الآخرين، ولا من أجل نفسي. لو استطعت العيش من أجل الآخرين، سأستطيعه من أجل نفسي أيضاً، وأعرف أنني، بهذا سأسعد. لكن كيف؟

أبكي دائماً. لم يحدث أن ضحكت. قبل فترة مررت بأزمة عصبية كبيرة. كان يوم بازار البلدة، خرجت أتمشى في الصباح، فمرت من أمامي امرأة ملتفة بملاءة، بحيث لا يرى منها سوى عينيها. هكذا يمشين؛ يمشين وكأنهن غير مكتفيات بلف جسومهن كاملة. عندما يصادفن رجلاً قادماً من بعيد، على بعد خمسين خطوة، يدرنَ وجوههن إلى الحائط، وظهورهن إلى الرجل القادم، وينتظرن حتى يقطع خمسين خطوة أخرى. مشاهدة هذا المنظر، ألا تُخْجِلُ الانسان من انسانيته؟

كنت أتمشى وحدي فصادفت امرأة بملاءة قادمة من الجهة الأخرى. وعدا الملاءة

كانت تستر فمها بمنديل أحمر. ولأنها كانت تحمل بيديها تنكتيْ ماء، فإنها لم تلف نفسها بالملاءة جيداً. عندما رأتني وضعت التنكتين على الأرض، ووقفت، ولم تستر وجهها، ولم تدر ظهرها إليّ. كانت في حدود الأربعين من عمرها. كيف حدث ما حدث؟ لا أدري. تقدمتُ نحوها بسرعة، وقلت لها:

ـ يا أخــت.. تهربين ممن، ولماذا؟ ليس ثمة من هو غريب عنك في هذه البلدة؛ أولاد اخوتك، أولاد أخواتك، أبناء عمومتك، أبناؤهم، كلهم أخوتك، منك وفيك، وتهربين كما الغنم من الذئب؟ أرجوك أماه، قولي لي، ما هذا؟ الرجال لن يأكلوك.. أنتِ لم تلتفتي إلى الجدار، ولم تديري لي ظهرك.. لكن لماذا تسترين فمك بمنديل؟

لم أعد أتذكر ما قلته لها أيضاً. عندما قلت لها هذا، سحبتْ منديلها عن فمها، وفتحت فمها، وقالت:

ـ هاهو.. أرأيته؟

لم يكن في فمها سن واحد. قالت غاضبة:

ـ لماذا نتستر؟ وهل لنا وجه نقابل به الناس؟

وأمسكت تنكتيها من مقبضيها الخشبيين ومشت. أنا جمدت. لو أستطيع أن أحكي عن هذه المرأة لمثقفي المدن.

وبكيت. لم أستطع إمساك نفسي. لقد أصبحت رجلاً نرفيزاً، وحساساً جداً. في يوم البازار ذاك باشرتُ الشرب منذ الصباح.

سأضع هذه الرسالة في مغلف، وألقيها في البريد، وبعدها.. إلى الشرب. لو يتخدر جسمي كله، لو أقلع عن التفكير، فسيكون ذلك أحسن.

غداً سيصل إبراهيم زونْكْ زَادَهْ. لا بد وأني سأتعرف عليه وأحدثه.

أنتظر رسائلك.. رسائلك تسلي وحدتي.

بدينك بإيمانك احكِ الصدق!

ما رواه إحسان أفندي الصف ضابط:

هل سمعت حكاية وفدنا يا سيدي؟ قال لنا ابراهيم بيك زونْكْ زَادَهْ: شكلوا وفداً وتعالوا إليّ في أنقرة. سيقابلنا مع رئيس الوزراء ومع رئيس الجمهورية، ومن جهتنا سنطلب بناء سد ومصنع في الناحية. لكن نحن نريد أن يبدِّلوا لنا القائمقام أولاً. رجل كالأرنب، لا يشتغل شغلة ولا يتداخل بعملة، ولا يطلع بيده شيء غير البكاء، ونتف شعره، والضرب على ركبتيه، ونطح رأسه بالحيطان قائلاً (واخ يا أماه.. هل أنا الرجل الذي يتفسخ هنا؟). إذا كان له مأثرة، فهي أنه لا يحيد عما يتفضل به إبراهيم بيك.

لكن، مانفعه؟ لم يفد البلدة بعشر قروش. سنقول لابراهيم بيك (بدِّلْ لنا هذا القائمقام بقائمقام مثل البشر!).

سافرنا إلى أنقرة على هيئة وفد. أنا أعرف أنقرة. بعض الأصدقاء لم يرها قط. نزلنا في فندق. الشيخ بدر الفهمان استعرض فهلويته من جديد. قال:

ـ أيها الأصدقاء! عندما نصل إلى عند زونْكْ زَادَهْ، فإنه سيقابلنا مع حضرة رئيس الوزراء، ومع حضرة رئيس الجمهورية. وإن في الدخول إلى مقام عال، بثياب كهذه، لتحقيراً كبيراً. وهذا منصوص عليه في القانون حتماً. إذا رأونا بهذه الثياب لا يستبعد أن يحبسونا بتهمة التحقير. لذا أرى أنه يتوجب علينا أن نرتب أنفسنا بعض الشيء، وذلك بتبديل ملابسنا، حتى نصبح مثل رجال أنقرة.

قال حمزة بيك جفتفران أوغلو:

ـ نعم، صحيح. سيستقبلنا حضرة رئيس الوزراء، وحضرة رئيس الجمهورية. ستقول عنا الإذاعات الوفد الذي جاء يعلن ولاءه، والجرايد ستطبع صور وفدنا، وليس بيننا من له مؤهلات الطبع في الجرايد. قبل كل شيء يجب أن نتهندم.

أمين أفندي بدون ربطة عنق . . حول عجيزة مرتضى أفندي سلمه الله بنطلون عريض ، ضيق الأكمام ، وفي قدميه بابوج . أما الشيخ بدر الفهمان فهو طالع إلى أنقرة ، في عز الصيف ، بالجزمة المطاطية . ولإسماعيل أفندي عبد الله بنطلون من كتان لم يلامس وجه المكواة ، في حياته ، قط .

دخلنا إلى الدكاكين على هيئة وفد ، واشترينا ملابس . غير أن انساننا لا يعرف المدينة حتى يلبس مما يلبس أهلها ، ولا كيف يعقدون ربطاتهم . فإذا بدّلت ثيابه ، يظل الرجل الذي في داخلها رجلنا .

قلت للشيخ بدر ولأمين أفندي :

ـ خففا من شعريكما ولحيتيكما ، حتى يُرى وجهاكما ، وأعينكما .

وذهبنا إلى الحلاق ، حلقنا . ثم سألنا عن العنوان الذي معنا ، سألنا حتى عثرنا على البناية التي يسكن فيها ابراهيم بيك . عندما رآها أمين أفندي ، بناية بسبعة طوابق ، قال :

ـ قبّ صدري أيها الأصدقاء ، ويقولون لا يطلع من بلدتنا رجل؟ لقد أطلعنا رجلاً يفلق الأعداء . . السكنى في بناية كهذه ، ماذا تعني؟ ليرفع الله مقامه أكثر وأكثر . لقد سررت وكأني أنا الساكن هنا . . لا بد أن يكون زوبك زاده ساكناً في الطابق العلوي .

لكنه بهذه لم يحزر ، فإبراهيم بيك كان يسكن في الطابق الأول . رنّنا الجرس فطلعت زوجة إبراهيم بيك . عندما رأتنا اكتفت بإخراج أنفها من فتحة الباب ، وقالت ببرود :

ـ أهلاً وسهلاً . هل لكم حاجة؟ ابراهيم ليس موجوداً . .

كان واضحاً أنها لم تسرّ بمجيئنا . سألناها :

ـ وأين نجد إبراهيم بيك يا أختي؟

ـ والله غير معروف . قبل قليل اتصل به رئيس الوزراء . . ، يدسّ أنفه من جديد . سيستشير إبراهيم في بعض المسائل .

ماذا نعمل؟ المرأة البائسة صارت في أنقرة ففقدت انسانيتها . حمُرتُ وجهي وقلت لها :

ـ ما هذه العادات يا كنّتنا؟ إذا جاء أبناء بلدتك ، ماذ ، كلمة تفضلوا؟ تُدخلينهم ، تستضيفينهم؟

قالت :

ـ لامؤاخذة اليوم موعد استقبالي . عندي في الداخل ضيوف ، نساء . نساء وزراء وأصحاب مواقع . ولولا ذلك لقلت تفضلوا خذوا نفَساً .

ـ والآن؟ أين نجد إبراهيم بيك؟

ـ اسألوا عنه في المجلس أولاً ، فإن لم يكن هناك فستجدونه في القصر حتماً .

ـ اشتريتم قصراً أيضاً؟ عافاكم ، أعجبتموني!

ـ لا . أعني في القصر الجمهوري . . فإن لم تجدوه هناك فقد تجدونه في النادي

ـ ومتى يرجع؟

ـ ذلك غير معروف أبداً .

مشينا . ماذا نعمل؟ سألنا حتى وصلنا المجلس ، فوجدناه مغلقاً بسبب عطلته . سألنا حتى وصلنا القصر ، فاعترضنا الحارس المناوب . قلنا له :

ـ إعْطِ خبراً لزوبك زاده في الداخل أنّ أبناء بلدته قد وصلوا .

فسألنا :

ـ ما عمله؟ من هو؟

يا للحارس المسكين ماذا يعرف عن زوبك زاده؟ قلنا له :

ـ أنت إعطهم خبراً . الذين في الداخل يعرفونه .

اتصل الحارس بالهاتف ، ثم أرسل معنا رجلاً قادنا إلى الداخل عبر حديقة ، وصعد بنا إلى رجل في غرفة كبيرة . سألنا الرجل :

ـ عمّن تبحثون؟

ـ عن إبراهيم بيك زوبك زاده .

ـ مَنْ مَنْ؟ قلت من؟

أُنظر الآخر! لا يعرف إبراهيم بيك الذي تستشيره الحكومة في كل القضايا . . قال الشيخ بدر :

- يا ابني، أنت إعْطِ خبراً إلى الداخل، وهم يعرفون إبراهيم بيك.

- إذا كنت أنا لا أعرف، فمن الذي يعرف؟ قل لي، ما أوصافه، من هو، من يكون، ماذا يعمل؟

- ولا تعرف ماذا يعمل؟ إنه نائب!

- الله الله!.. أنا نائب، ولا أعرف نائباً بهذا الاسم. ما اسمه ما اسمه؟

- إبراهيم زويْكْ زادَهْ. نحن انتخبناه وأرسلناه إلى هنا.

همس أمين أفندي في أذن إسماعيل أفندي:

- في داخلي شك. مقالب زويْكْ زادَهْ كثيرة جداً.. أتراه كذب علينا بقوله إنه نائب؟

فغضب إسماعيل أفندي:

- اسكتْ! كيف تقول مثل هذا الكلام؟ لا تخبِّص الأمور في عقلك الجاهل. لقد شاهدنا البناية التي يسكن فيها.

- صحيح. مثلها لا يسكنه أقل من نائب.

أخرج الرجل ألبوماً، فتحه أمامنا، وقال:

- صور النواب هنا، ابحثوا عنه.

بحثنا عنه فوجدنا صورته:

- هه! هاهو.

سألنا الرجل:

- من أنتم؟

فقلنا له:

- نحن وفد. سنقابل زويْكْ زادَهْ، وهو سيقابلنا مع حضرة رئيس الجمهورية.

اتصل الرجل بالهاتف، فعثر على زويْكْ زادَهْ.

- إبراهيم بيك، أنا المساعد الأول لرئيس الجمهورية. حضر أبناء بلدتك يريدون مقابلتك.

- ليتفضلوا إلى البيت!

ذهبنا إلى بيته. هذه المرة طلعت لنا أمه:

- قبل قليل كان إبراهيم بيك هنا. طلبوه لأمر عاجل للحكومة، فذهب إلى هناك. يسلم عليكم وقال: لا يؤاخذوني، وليتفضلوا غداً.

أمضينا الليل في الفندق، وفي صباح اليوم التالي هطلنا على بيته. هذه المرة خرجت لنا امرأة غريبة:

- إبراهيم بيك ليس هنا.

- وأين زوجته؟

- ذهبت إلى الحلاق لتعمل (ستة أشهر).

- وأمه؟

- عند الجيران.

فرجعنا. دخلنا إلى المقهى. قال أمين أفندي:

- يا تُرى، الستة أشهر هذه، ماذا تعني؟

فقلت:

- في المدن تذهب النساء إلى الحلاق ويعملن ستة أشهر.

فدهش الجميع.

ذهبنا إلى بيته في المساء، غير موجود، في الصباح التالي، غير موجود. خمسة أيام ونحن نجري وراءه، ألبستنا الداخلية توسخت، اشترينا غيارات جديدة. نذهب إلى بيته فيقولون لنا (غير موجود). لقد نسي هؤلاء عاداتنا وتقاليدنا كلها. لا يوجد من يقول (تفضلوا، اشربوا قهوتنا، خذوا نَفَساً!).

لافائدة. قلنا: لنتناوب على بابه، كل واحد يناوب ساعة على باب البناية. يوم كامل مر، ولا أحد. يا ترى، هل يدخل بيته عبر المدخنة؟ قطعنا الأمل تماماً. اتخذنا قراراً بالعودة. كنا جالسين في مقهى الفندق. قلت:

- هذا العديم الناموس، ألن يزور البلدة أبداً؟

كان الشيخ بدر قد ضاق من صرف النقود في قراني الفندق. قال:

- بأي وجه سيزورها؟ ألن نبصق في وجهه حتى نغرقه بالبصاق؟

فقال أمين أفندي :

ـ لن تستطيع فعل شيء . يحلها فوراً ، وبحلاوة . سترون !

(ذهبنا إلى دمياط لنأكل الرز، فبقينا في البيت على البرغل) . أتينا إلى هنا لنطالب بإنشاء مصنع وسد ، وبقائمقام جديد . . ثم رجعنا عن هذا . هل سنبقى مغتربين في أنقرة؟ سنرجع إلى البلدة بالرغم عنا .

وإذا نحن نتحادث ، كان صاحب الفندق جالساً وراء درج النقود ، يستمع إلينا . تألم لحالنا فسألنا :

ـ ما مشكلتكم؟

حكيناها له ، فقال :

ـ هينة . أنا أجده لكم .

ـ كيف؟

ـ أتصلُ به في البيت .

ـ ماذا تقول يا آغا؟ نحن متناوبون على بابه ليل نهار . أهو يأتي إلى بيته؟

ـ انتظروا .

اتصل صاحب الفندق ببيت زويُكْ وسأل :

ـ إبراهيم بيك موجود؟ هنا المجلس .

ما قولك؟ ألا يطلع له إبراهيم بيك .

ناولني صاحب الفندق السماعة . قلت :

ـ ابراهيم بيك؟ شكرا لله على أننا نتحادث . .

عندما سمع هذا قال (واخ . . إحسان بيك أفندي؟! . .) ، ففهمت أنه يظنني (إحساناً) آخر ، فاستدركت :

ـ أنا إحسان الصف ضابط .

ـ أوه ، إحسان أفندي؟ أهلاً وسهلاً ، ماذا ، هل وصلت الآن؟

ـ ماذا تقول إبراهيم بيك؟ لقد جئنا كوفد ؛ ولقد صرنا إلى حالة يرثى لها ونحن نتسكع على أرصفة أنقرة بحثاً عنكم .

ـ ماذا تقول؟ تفو . واخ . . يا هوه أنا أعطيتكم عنوان البيت . يعني لم تجدوه؟ واخ واخ .

كيف لا أشتمه الآن؟ قلت لنفسي : بالله ، اسكت .

ذهبنا ، الوفدَ ، إلى بيته . استقبلنا استقبالاً ! . . لم يعد يدري ، هل يضعنا على الأرض ، أم في السماء . . نتحاضن ونتباوس . وأمه تقول :

ـ آه ، يا أبنائي !

ولا تضيف شيئاً آخر .

سحبتني أمه إلى الخارج مرتين وقالت لي :

ـ اه يا ابني إحسان أفندي آه . . ابني الوحيد هذا . لقد وقع في أيدي شراميط أنقرة ، ولم يعد يُعْرَفُ ليلُه من نهاره . . دخيلك يا ابني . .

زويُكْ زَادَهْ يحكي من هنا ومن هناك . . الموال القديم نفسه . . الحكومة تستشيره في كل شيء ، وهو أعطاها حتى لم يبق عنده شيء . . يحكي عن كل شيء ، عدا المصنع والسد . يا هوه ، نحن لماذا جئنا إلى هنا؟ تحادثنا حتى المساء . صار وقت عودتنا إلى الفندق .

ـ إي إبراهيم بيك ، عن إذنك!

ـ ماذا؟؟ خلال أربعين عاماً جئتم هذه المرة ، فهل يجوز ذهابكم؟ أنتم الليلة ضيوفي . مهما حصل لا أتركـكم . مستحيل . هذه الليلة على الأقل . .

وغمز بعينه وأضاف :

ـ لنمرح الليلة . يجب أن تروا أنقرة على كل حال .

نزل أمامنا وخرجنا إلى الطريق . لم تتسع لنا سيارة واحدة . ملأنا سيارتين . زويُكْ مع أربعة من الأصدقاء في السيارة الأمامية ، ونحن وراءهم . أجرة السيارة التي في المقدمة دفعها زويُكْ . سأل أمين أفندي سائق سيارتنا :

ـ كم تريد يا ابني؟

ـ سبع ليرات ونصف .

قال لي أمين أفندي :

ـ ادفع أنت ونتحاسب فيها بعد .

دفعت. نزلنا. دخلنا أحد الأمكنة. زوبُك في المقدمة. وكل من يرى زوبُك ينحني حتى يصل الأرض، قائلاً:

- تفضل يا بيك أفندي.

نَمُرُّ بجوار الرجل المنحني، فيقول زوبُك:

- يعرفونني، كلهم يعرفونني. نالوا من فضلي الكثير.

انظر معي إلى هذا الواطي. يظل يقول عندما ينحني الجراسين، (يعرفونني، كلهم يعرفونني. نالوا من فضلي الكثير!)، حتى يفقع الانسان. يظننا لانعرف شيئاً أبداً، نحن ولاه؟ كم من الأماكن والأشياء رأينا.

كان مطعمًا ممتازاً. أكلنا وشربنا. قال زوبُك:

- تعالوا نخرج من هنا. يجب أن نمرح.

عندما وصلت فاتورة الحساب، مدّ كل منا يده إلى محفظته. وأنا مددتها أيضاً. زوبُك، لكونه دعانا، سيدفع في كل الأحوال. لذلك مددنا أيدينا إلى النقود، وأمسك كلٌّ بيَدَيْ الآخر، وأخذنا نتدافع، أنا ادفع، أنت لا تدفع.. حتى صرخ زوبُك زَادَه، مظهراً آغويته:

- هيه!

وقذف أم الألف ليرة على الطاولة. أرأيت؟ آغا!..

أخذها الجرسون وعاد بعد قليل.

- عفواً، لم نستطع فرطها. ألا يوجد فراطة؟

فتش زوبُك في جيوبه. لاه لاه.. أرأيت؟ ما معه فراطة، وأمين أفندي سيقول لي الآن (ادفع، ونتحاسب فيما بعد).. لكن أنا أعتق منه. قلت:

- أمين أفندي. ادفع أنت ونتحاسب فيما بعد!

دفع أمين أفندي مائة ليرة، معتبراً إياها في عداد الأموات. خرجنا، ركبنا السيارات.

الرجل لا يحمل في جيبه قطعة أصغر من أم الألف. فدفعنا أجرة السيارات. دخلنا هذه المرة مكاناً جميلاً مثل الجنة. النساء، كما لو أنهن في الحمّام، نصف عاريات.

العازفون مجموعات مجموعات. أنا، أشكر الله، رأيت الكثير من البارات وما شابهها. لكن، مثل هذا، لم أر. ينظر الشيخ بدر الفهمان إلى الذين يحيون زوبُك فيندهش:

- يا هوه.. كل هؤلاء البشر يعرفون إبراهيم بيك؟ شيء غير معقول.

فيشد زوبُك على نفسه أكثر:

- يعرفونني. أفضالي كثيرة على هؤلاء الكلاب.

صف الجرسون طاولتين. جلسنا. سألنا زوبُك:

- ماذا تشربون يا آغوات؟ قولوا!

قلت فجأةً:

- فِسْكي.

سمعني جفتفران أوغلو فقال:

- أنا أيضاً فسكي.

قال أمين أفندي:

- نحن معا في السراء والضراء.. فسكي أيضاً.

قال الشيخ بدر الفهمان:

- فسكي ماذا ولاه؟.. فشكي؟

الله يشهد أنني ما ذقت الفسكي ولا سمعت به. قال اسماعيل أفندي عبد الله:

- لا نحيد عما عرفناه عند أبينا. عرق. حليب السباع.

قال الشيخ بدر وهو يمسد لحيته ليؤكد تمسكه بالإسلام:

- أنا لا أشرب.

- دخيلك يا شيخ، أنت تخمّر العرق في بيتك سراً، ولا تشربه هنا بالكأس؟

- اسكت. قل التوبة. من يسمعك قد يصدق ذلك.

قال مرتضى أفندي الذي كنت أنا إلى يمينه، مخاطباً إياي وأمين أفندي التاجر:

- دخيلكم. لا تتحركوا. خلّنا نشرب كثيراً، ولنطلب أغلى المشروبات.

- لماذا يا مرتضى أفندي؟

- وهل هذه تحتاج إلى لماذا؟ في جيبه أمهات الألف ليرة، فإذا لم يفرطوا له أم الألف هنا، فسنحترق. سيجعلنا ندفع الحساب.

صرنا نشرب الفسكي كما يُشرب الماء. قال اسماعيل أفندي عبد الله:

- أنا لم أستطعم هذا الفسكي. هاتوا لنا حليب السباع. لا تَحِدْ عما رأيته في بيت أبيك.

لا أدري، هل أوما لهم زوبُك، أم أن عادة المحل هكذا. فجأة قَدِمَتِ النساء إلى طاولتنا. قال مرتضى أفندي:

- أعجبني مجيء النساء. في هذه الحالقستبلغ الفاتورة ثمانمائة تسعمائة ليرة، وعندها يفرطون ألف ليرة زوبُك.

أنا أعرف مشاكل البارات، وإن لم يكن شخصياً، سمعت عنها من أصدقائي القدامى.. عندما تأتي النساء، لا يمكن مغادرة الطاولة بأقل من ألف ألفي ليرة.

لو رأيت الشيخ بدر الفهمان لدهشت. لم يبق غير أن يجلس الشقراء في حضنه، وهي تفرك لحيته وتقول له: -

- حجي أفندي!

نسي الفهمان قضية الحلال والحرام، وصار يشرب الكأس الذي تضعه الشقراء على فمه ببلعة بلعتين.

اما أنا فقد وقع نصيبي على أكثرهن خصوصية. امرأة صيفية وشتوية في الوقت ذاته. حيثما أمد يدي أجده مكتنزاً. آخر شيء أذكره هو أن المرأة قالت لي:

- تعال يا حلوي.

وأخذتني إلى خلوة خاصة. بعد ذلك لاأذكر شيئاً. فتحت عيني وإذا أنا في غرفتي في الفندق، والآخرون نيام على الأسرة. دخلت الغرفة المجاورة فوجدت البقية تشخر. أيقظتهم بالزجر:

- قوموا يا شباب، تحركوا. ألسنا وفداً؟ هل جئنا للنوم؟

أحد الذين استيقظوا سأل:

- أين أنا؟

وآخر:

- أنا كيف جئت إلى هنا؟.. أوش ش..

لا أحد يعرف كيف أتى إلى هنا. قال إسماعيلُ أفندي عبد الله:

- اتركوني أرجوكم. لم تبق لدي قوة تحركني.

نعم. لقد غدونا مثل الخيار المخلل في مطربان. الشيخ بدر الفهمان غائب.

- ماذا جرى للشيخ؟

ذهب أمين أفندي ليتبول، فعاد وهو يصرخ:

- هيه!.. واخ.. لقد جُننت يا شباب!

أقام الدينا وأقعدها، ولَمَّ الفندق علينا. يصيح دون توقف:

- ولاه.. ولاه. ما في شرطة؟ ما في دورية؟ أين الجندرمة؟ لقد شلحتني القحاب.. لم يبق معي خمسة قروش.

شده مرتضى أفندي من زيقه، وانفرد به:

- اسكت يا خيّ. إذا علمت الجرايد؟ إذا كتبوا أن الوفد الذي جاء يطالب بالمصنع، شلّحته العاهرات، فإن هذا يعني أننا لن نستطيع العودة إلى البلدة مرة أخرى. أرجوك اسكت.

- وهل يمكن السكوت؟ ثمانمائة ليرة ذهبت. ما في دِيْن؟ ما في إيمان عند أولئك السفلة؟ لم يتركوا لي قيمة علبة سجائر.

- دخيلك اسكت. عندما نرجع إلى البلدة، كل يوم لك مني علبة سجائر.

ثم ضرب مرتضى أفندي، الذي كان يحاول إسكات أمين أفندي، ضرب يده على نقوده، فلم يجدها فزاغ، وصار يبرم كالصيّاح، ويصرخ مستغيثاً:

- واخ، لقد نُهِبْتُ. أيها المسلمون!

مددت يدي إلى جيبي الداخلي وأنا أقول لهم (أرجوكم اسكتوا!)، وفي الحال دخلت معهم في موال (دخيلكم، دخيلكم..). لقد شلحونا جميعاً.. وإذا نحن نلطم وجوهنا، كان صاحب الفندق يضحك، وكذا القهوجي والزبائن. لقد تبهدلنا أمام أهل أنقرة.

قال حمزة جفتفران أوغلو:

- لم يعد البقاء هنا ينفع. تعالوا نرجع إلى البلدة بسرعة.

ـ ومن أين تكاليف العودة يا خيّ؟ هل سنشحد هنا؟

حمزة بيك محتاط. يصير شيء، لا يصير، درز في بطانة جاكيته من الداخل كيس نقود. سرقت النساء ما سرقن، فتشن مشطن. لم يعثرن على الكيس المدروز بالبطانة الداخلية.

قال حمزة بيك:

ـ تكاليف العودة مني، وستكون دَيْناً عليكم تدفعونه إذ نعود. عندي خمسمائة ليرة فصّلتُها على جواربي الصوفية، لم تعثر عليها النساء.

أعرف أن الأصدقاء الآخرين قد خبأوا نقوداً، هنا وهناك، لكن أحداً غير حمزة بيك لم يعترف بذلك؛ باعتباره الأكثر هبلاً بيننا، كما ترى من تصرفه هذا.

بالنسبة للعودة، نَعُود، لكن أين الشيخ بدر؟ لا يجوز تركُه هنا. قال مرتضى أفندي:

ـ الشيخ بدر سيرينا أنه فهمان من جديد، الله أعلم، لربما هو في حضن المرأة الشقراء ما يزال.

ماذا جرى للنساء اللواتي كنّ معنا؟ ونحن كيف وصلنا الفندق؟

ظللنا نائمين طيلة النهار. أوشك المساء على الحلول، ونحن نفكر كيف نجد الشيخ بدر، وإذا به يدخل وهو يئن ويتأوه. رأسه مضمد، لكن كيف؟ لقد شقشقوا قميصه وضمدوه به. هوى على السرير وهو يئن.

ـ يخرب بيتك، يا شيخ، لعل الشقراء غلبتك بالمصارعة؟ ما هذا؟

وهنا، ألا يقول:

ـ يا أصدقاء. قد لا يمرّ عليّ الصباح. سامحوني!؟

ـ رحماك يا شيخ. ليمدّك الله بمدده. كيف تقول هذا؟

ـ عمري انتهى يا ولاد البلد. جميل مع ذلك أنني صبرت وصمدت. لو كانت كل تلك العصي قد نزلت على ثور، لما صمد، ولكان مات. جميل أنني صمدت يا آغوات..

ـ ما شاء الله. نعرف أنك صامد. عندما سنعود إلى البلدة سنحكي لمواطنينا عن صمودك. هل العصي التي نزلت عليك، عصيّ امرأة؟

ـ ما لي حيل يساعدني على الكلام. لو كانت عصي امرأة، لنزلت على قلبي أحلى من العسل. لقد اجتمع علي فيلق من الرجال. ظلوا يضربونني بالعصي حتى الصباح يظهر على أحدهم التعب، فيأخذ منه العصا آخر. لم يبق في عظم سليم، ولا قطعة لحم..

ـ طيب ما مشكلتهم؟ ماذا أرادوا منك أيها الغريب؟

ـ ماذا أرادوا؟ نقود. لقد بلعتُ شيئاً من ذلك الزقوم الذي يقال له (عرق) فصرت مثل الخرقة.. ثم صحوت على ضرب العصي.. (ادفع الحساب).. الحساب ثلاثة آلاف ليرة.. (طيب أنا أكلت وشربت بثلاثة آلاف ليرة؟.. اتركوني واذهبوا أنتم، وأنا أدفع الحساب. هل الصداقة هكذا؟) رميت محفظتي أمامهم وقلت (خذوها!.. ولن أدفع فوقها عشرة قروش). طلع في محفظتي مائتان وخمسون ليرة. قالوا (ادفع حتى لا نطحن عظامك ونجعلها رماداً!). قلت (تُفوني، اذروا رمادي.. ما معي شيء). قالوا (ولاه حجي. نحن نعرفك.. ياما مرّ علينا من أمثالك.. إطلع النقود).. والله ما في.. بالله مافي.. عاجلوني بالعصا. حسبتها، لا مخرج. قلت (قفوا أرجوكم، عندي بضعة قروش مخبأة في كيس مدروز بالقميص الداخلي، متروكة لحياة أو موت.. خذوها، تحلّ لكم كما حلّ لكم حليب أمهاتكم). مزقوا القميص فوجدوا ألف ليرة. ضربوني بالعصا، قلت (دخيلكم، لا تفعلوا شيئاً. في الحزام نفقات كفني، خذوا الحساب، واتركوا الباقي لكم). أخذوا نفقات الكفن، وهي خمسة آلاف ليرة، كلها. قالوا (خمسة آلاف ليرة؟ أليس كثيراً لكفن واحد بلعوص مثلك).. واستمروا في الضرب. يضربون ويقولون (نقود..، نقود..) والذي يتعب يناول العصا لرفيقه، حتى قلت (فتشوا عن النقود.. جدوها وخذوها!). (ولاه، نحن نعرفك. الشيطان لا يعرف المكان الذي تخبيء فيه نقودك.. هات، يالله، هات).

أصبح الصبح. حسبتها: ستبقى جثتي بين أيديهم. أفرغت النقود من دكة سروالي وأعطيتها لهم. ضربوني أيضاً فقلت لهم (ياهوه، بالرغم من كل هذه الجمايل التي تتلقونها من زوبُكْ زادَهْ؟ في المساء كنتم تنحنون له طاقين. أليس عيباً هذا الذي تعملونه معي؟ لو سمع زوبُكْ زادَهْ، ألا يضيّق عليكم عيشكم؛ فقالوا (من هذا زوبُكْ زادَهْ؟)

وإذ قلت (إنه إبراهيم بيك . . النائب)، غضبوا على الآخر . . (أهو الرجل الذي قال لنا أن تأخذ الحساب منك؟ . . (. .) عليك وعلى نائبك!) ونزلوا بي ركلاً . ظلوا يركلونني حتى الصباح، وعندها دفعوني خارج الباب . سألت وأنا أزحف . سألت حتى وصلت الفندق . . أنا ميت، لن يصبح علي الصبح .

ـ أرنا وجهك . . لماذا أنت مضمد هكذا؟

فراح يتوسل .

ـ أرجوكم لا تفكوه .

لكننا فككنا قطعة القماش عن وجهه بالقوة . نظرنا وإذا الشيخ بدر الفهمان بلا لحية ولا شارب . . ولا حاجب ولا رمش . . لقد حصدوا من وجهه حتى الزغب، فصار أحلس أملس .

ـ ولاه شيخ . . ما هذا؟

ـ لا تسألوا يا إخوتي . لقد ربطوا يدي ورجلي، وغسلوا رأسي بعشبة الحمام(١)، وجعلوني أمعط!

ـ لقد جعلوك شبيهاً بغلمان الحمّام . يا شيخ، فهل ثمة شيء آخر؟

غرغرت عينا الشيخ بدر الفهمان بالدمع . .

ـ أيها الأصدقاء . لقد نفدت طاقتي . شلّحوني بنطالي . في بنطالي من الداخل كيس مدروز . افتحوا الكيس على ملكم . بهذه النقود تحملوني إلى بلدتي، وتدفنوني هناك، عسى الانجرجر جثتي في بلاد الغربة . لا تدعوا أحداً من سلالتي أو من المعارضة يرى وجهي، ولا الأعطال التي في جسدي .

غادرنا أنقرة في صباح اليوم التالي . أول شيء قمنا به هو: ذبحنا عجلاً عند القصاب عثمان، أخرج القصاب عثمان ضِرْفَ(٢) العجل، أدخلنا الشيخ بدر داخل

١ ـ مادة لزجة، يُدهن بها الجسم بقصد إزالة الشعر . المترجم .

٢ ـ الضرف: جلد الحيوان بعد سلخه . وقد كان يستعمل في مناطقنا لنقل زيت الزيتون . المترجم .

الضرف، ومددناه على الفراش . وما هو إلا أسبوع، سمعنا أن الضرف قد دوّد، ومن رائحته لم يعد ممكناً الاقتراب من بيت الفهمان .

سحبنا الشيخ من ضرف العجل، عرّقناه وغسلناه، فسحبنا سمه من جواه في الحمام . ولأنه قد صار بلا شعر، فقد صارت هيئته كهيئة الأقزام . بقي الشيخ في بيته شهرين، وعندما نبت له حاجبان ورمشان وشاربان، ربى شعره وأطلق لحيته وشاربيه، وصار يخرج من البيت .

لما رجعنا من أنقرة، فوجئنا بأن قائمقامنا المسكين، المجنون، قد نقل إلى مكان آخر، وترك البلدة ومشى . ورضا بيك كاتب الديوان يقوم بمهام القائمقام بالوكالة . لو نظل بلا قائمقام أحسن، كيفما كان رضا بيك، فهو ابن بلدتنا، منا وفينا .

خلال شهر من نقل القائمقام استلم جفتفران أوغلو رسالة من إبراهيم زوبك .

قرأ لنا الرسالة التي يقول فيها إبراهيم (قلتم بدّل لنا القائمقام، فنقلتُ شكواكم إلى وزير الداخلية . لقد اطلعتُ على الشكوى التي قدمتموها إلى مجلس الوزراء، فقلت مثلما قلتم في شكواكم، إنه يدين بدين سري، وإنه يضحك في وجوهنا، في الوقت الذي يحفر فيه لأفراد حزبنا في الخفاء، وإنه يدخل مع المعارضة في مساومات سرية، ويؤيدهم، ويخرّب الوحدة الوطنية، ويعمل تكتلات، ولا يكتفي بالسلام والكلام مع المعارضة، بل إنه ضُبط من قبلنا وهو يلعب بالنرد مع أمين شعبة حزب المعارضة في الناحية، وإنه شرب معه عرقاً بالسر .

وقلت: إما أن تنقلوا القائمقام، أو أقاطعكم . . وبعدها، لقد أعذرَ مَنْ أنْذر . أدامهم الله لنا، لم يخجلوني، سحبوا الصلاحية من القائمقام، وربما أحالوه إلى المحكمة . . والآن أرسلُ لكم قائمقاماً جديداً، جرّبوه أولاً؛ فإذا ما صار معكم، يعني إذا لم يعجبكم، اكتبوا لي، وأنا أنقله . جسوا نبض القائمقام الجديد الذي أرسلتُه، فإذا طلع حريصاً على خدمة البلدة والحزب، فليبق عندكم، وإلا نفكر في غيره . . الحمد لله أن البلاد لم تدخل في أزمة قائمقامية .

لا تتركوا بالكم ينشغل على السد والمصنع، فلقد أخرجتُ من الموازنة العامة المبلغ الذي يغطي إنشاءهما، وبإذنه تعالى سيُبنى سدّنا في القريب العاجل، وسينبعث الدخان

من مدخنة مصنعنا . وهذا الدخان الذي سينبعث من مدخنة مصنعنا ، سيعمي عيون الأوباش المعارضين . .) .

استمعنا إلى الرسالة بدهشة . نحن لم نشتكِ من القائمقام المنقول ، ولم ننظم بحقه ، ضبطاً ولا مبطاً . ما هذه العَملة؟ سَلام مَلام القائمقام على المعارضين كله كذب في كذب . كان القائمقام المسكين ، من خوفه ، لا يغادر بيته أو مكتبه . . فكيف سلم على المعارضين؟

قال حمزة بيك :

ـ فهمت . هذه لعبة جديدة يدبرها زوبُكْ . كتب شكاية عن لساننا ، ووقّع عليها عنا . وقد أرسل لنا هذه الرسالة حتى إذا حصل التباس فيها بعد نقول (نعم . . لقد اشتكينا منه) .

بعد مغادرة القائمقام السابق بخمسة عشر يوماً ، جاء قائمقام جديد . حكى لنا كاتب الديوان رضا بيك كيف أن الرجل دخل دار الحكومة وقال :

ـ أين غرفتي؟ دلوني عليها .

رآه آذن القائمقامية ، رجلاً غريباً ، فقال له :

ـ أنت غلطان . هذا ليس فندقاً . . هذه دار الحكومة .

فقال له :

ـ وأنا القائمقام !

فكادت شفتا الآذن تتمزقان . قال له :

ـ شرِّفْ !

وأدخله غرفة القائمقام . وعندها أتى كاتب الديوان رضا بيك للمباركة :

ـ أهلاً وسهلاً سيدي !

ـ في الأيام العشرة الأولى ضغط علينا القائمقام الجديد كثيراً . . لا تسأل . . قلنا له إننا سنشكوه لزوبُكْ . . فماذا قال؟ قال :

ـ هيه ! أنا ياما رأيت زوبكات . أنا لا أعرف زوبُكْ ولا مُبُك . . يهبُّ عليّ وكأنه النسيم . الحكومة انتقتني وأرسلتني إلى هنا كي أربّيكم . . أنتم ولاه لا تعرفونني . إذا ما جعلتكم مثل القرد المروض !

انظر انظر . . إذا كتبنا لزوبُكْ زادهُ عنه ، ألا يجعله مثل الواقع عن ظهر الجحش بضربة عصا؟

قال رضا بيك كاتب الديوان :

ـ اسمعوا اسمعوا . . أنا أفهم هذه اللغة . تصرفات كهذه تعني أن الرجل بَلّاع . . يريد رشاوي . . يريدكم أن ترشوه . واضحة ! إنها تجربة سنين ياولدي . هذه الشعرات لم تشب في الطاحون . عندما يأتي موظف جديد إلى مكان ما ، ويبدأ يعمل هكذا وهكذا ، فهذه يعني أنه يبغي الرشوة . اصبروا قليلاً . . بعد فترة يلين ويصبح مثل شمع العسل .

هيه ! الله يرضى عليك . أرأيته أنت؟ هل طلب منا ومنعناه؟ فمه ضيق لا يدخل فيه شيء . . ليأخذ الرشوة التي يريدها ، ولتمش أمورنا . . وهل نحن من الجبناء الذين يهربون من دفع الرشوة؟ نحن ماذا كنا نعاني من القائمقام السابق؟ لقد كان فاشلاً حتى في أخذ الرشوة . لو كان أخذ رشوة واحدة ! . .

في الحقيقة ، قبل مضي شهر واحد ، تبدّل القائمقام ، ولان . لم نر من قبل قائمقاماً يفهم في شؤون المواطن ويتحمس لها مثله . صار ينجز العمل الذي من شأنه أن يعلق في باب الحكومة عشرة أشهر ، بعشرة دقائق فقط . لا يعرف عبارة (لا يصير) . لقد اعتاد الموظفون على الذرائع . .

ـ القانون هكذا . . النظام هكذا . .

أما هو فقد قطع دابر الذرائع قطعاً .

ـ هوب ! عمل المواطن يُنجَزُ . لا أحب الحكي . القانون والنظام موجودان لخدمة المواطن ! أرأيت إلى شهامة هذا القائمقام؟ وفي يوم ، فجأة ، قال :

ـ سأوزِّعُ الأراضي !

ووزعها . وزع كل ما للحكومة من أراضي حدائق ، أراضي تشجير موجودة منذ القديم .

يا هوه ، حكومة ضمن حكومة؟ كل من له شغلة عند الحكومة ، عصيانة من أربعين سنة ، ولا يستطيع حلها ، يحلها له بدقيقة . صارت الناس تدعو للقائمقام بالخير .

في يوم كنا في اجتماع حزبي ، نتبادل الحديث من هنا وهناك . . قال الشيخ بدر الفهمان :

ـ أأقول لكم شيئاً أيها الأصدقاء؟ شغلُ القائمقام هذا لم يخش عقلي.
كان شعر الشيخ بدر قد نبت، ولحيته طالت فصارت بحجم قبضة اليد، وعاود الخروج بين الناس سألناه:
ـ لماذا يا شيخ؟ ما به شغل القائمقام؟
فقال:
ـ أعمال لا تخش العقل. إن في تصرفاته ما يؤذي العقل. أنتم قولوا ما تشاؤون، أما أنا فأشكّ في هذا.. لا يمكن أن يكون هذا الرجل قائمقاماً رسمياً.
ـ ماذا تعني؟
ـ نعم. لا يمكن أن يكون قائمقاماً رسمياً. يعني أنه ليس قائمقاماً حكومياً. لا يمكن أن يكون طيباً على هذا النحو، ويتعامل مع المواطنين بهذه الأريحية.. هذه الشغلة فيها (إنّ).. أبداً، لو استقرأتمْ أفكار هذا الرجل، لوجدتم أنه ليس قائمقاماً حكومياً.
ـ طيب لماذا؟
ـ لا أعرف. هذه يعرفها جنابُ المولى. لكن، إذا كنت أعرف شيئاً، فهو أنه لا يمكن أن يقدّم قائمقام رسمي كلَّ هذه الجمايل، ولا يمكن أن تصادف قائمقاماً حكومياً بهذه الجودة.
ـ اسكتْ يا شيخ. اسكت حتى لا يصل الكلام إلى مسمعه.
وقد بقي هذا الكلام في مكانه. والقائمقام يوزع الأراضي. أفرزَ مكان البازار، وباع منه أرضيات لبناء الدكاكين. استخرج سندات تمليك للبيوت التي ليس لها سندات تمليك. لم يدع شغلة دون إنجاز.
وفي يوم اتصل المحافظ هاتفياً بالقائمقامية من أجل مسألة ما. ولأن القائمقام لم يكن في مكتبه، فقد رد على المحافظ كاتب الديوان رضا بيك. قال رضا بيك:
ـ حضرة القائمقام كان هنا قبل قليل، ثم خرج لتوزيع الأراضي على المواطنين.
صرخ المحافظ:
ـ ماذا؟ قائمقام ماذا؟ ألم نعزل قائمقامكم ونسحب منه صلاحياته؟ أهو ما يزال على رأس عمله، دون علم السلطات؟

فقال رضا بيك:
ـ رحل القائمقام، ولله الحمد، وجاءنا قائمقام جديد.
ـ متى جاء الجديد؟
ـ إنه هنا منذ ثلاثة أشهر.
ـ الله الله.. وأنا لا علم لي بذلك؟ كيف حصل؟ لم يمر بالمحافظة. أين هو الآن؟
ـ خرج لتوزيع الأراضي.
ـ أية أراض؟
ـ الأراضي. إنه يوزعها بأسعار منخفضة.. وزّع مكانَ البازار، ساحةَ الناحية، فسحةَ المسجد.. وزعها كلها وانتهى، وهو الآن يوزع المقبرة.. السيد القائمقام في المقبرة منذ الصباح!
دهش المحافظ:
ـ كيف ذلك؟ يوزع المقبرة؟ من أين جاء هذا القائمقام؟
فقال رضا بيك:
ـ سيدي. لقد اختاره لنا إبراهيم بيك زوبُكْ زادَهْ من بين القائمقامات، وعينه لنا.
فقال المحافظ:
ـ مادام الأمر كذلك فأنا آتٍ إليكم غداً.
وفي اليوم التالي، قبل الظهر، وصل المحافظ. أين القائمقام؟ ليس موجوداً.. إذا كنت نبيهاً فاعثرْ عليه.. أرسلنا إلى بيته.. أخذ السيد القائمقام حقيبته في الليل وغاب. المحافظ اندهش. قلنا: لعل إبراهيم بيك أرسل في طلبه، أو أنه ذهب إليه في شأن ضروري. غضب المحافظ، صرخ وعيّط، ومضى. كتبنا لزوبُكْ زادَهْ (القائمقام الذي عينته لنا اختفى). فجاء جوابه (أنا ما عينت قائمّقاماً ولا مائمّقاماً.. ما دام عندكم رضا بيك، وهو ابن البلدة، لماذا القائمقام؟ رضا بيك يفهمكم، فليبق عندكم قائمقاماً بالوكالة..).
لم نقدر على فك رموز هذا اللغز ولا بشكل من الأشكال. وفجأة، وكان يوم

الجرايد وصلت عربة البريد، وزعت الجرايد. كنا في المقهى، فصار كل مَنْ يمسك بالجريدة يقول:

ـ آآآ. . .

وينخشب.

نظرت في الجريدة لأعرف سبب دهشة الناس، فماذا رأيت؟ صورة كبيرة لقائمقامنا: (تم إلقاء القبض على قائمقام مزيف).

ياه هكذا ياسيد، خلال أربعين سنة، يجيئنا قائمقام جيد، فيطلع مزيفاً؟

ولو أن المسألة انتهت هنا، لكان ذلك حسناً. ملأ المفتشون البلدة، قُبض على ثلاثة موظفين في دار الحكومة، أصابتهم شغلة القائمقام، ورُحِّلوا. . أما رضا بيك، فلأنه ذكي، وصاحب تجربة، فقد نفذ منها.

سَنَنّا أسناننا وقعدنا ننتظر زوبُكْ زَادَهْ. غضبنا إلى درجة أننا سنأكل زوبُكْ زَادَهْ نيئاً. وهل تُنسى اللعبةُ التي لعبها عليناز وبُكْ زَادَهْ؟

قال الشيخ بدر:

ـ ذلك الرذيل زوبُكْ، يعني إذا صار نائباً، لا يأتي إلى هنا أبداً؟ ألن يقع في أيدينا؟ أنا لا أكون الشيخ بدر إذا لم أغرقه بالبصاق!

عندما يبقى مثل هذا الكلام بيننا، يغتاظ المعارضون. لماذا قيل إن (اليد تقطع وتبقى داخل الكم؟) كيفما كان، هو رجلنا، ونحن انتخبناه للنيابة. فماذا نقول للغرباء؟ من دون شيء القيل والقال شغّال.

وبينما نحن هكذا، نسن أسناننا وننتظر، سمعنا أن زوبُكْ زَادَهْ وصل البلدة عند منتصف الليل، دون أن يُري نفسه لأحد، وأغلق على نفسه باب البيت. اجتمعنا في مقر الحزب، وبدأنا نتشاور في كيفية التحرك بانتظار زوبُكْ، وإذا به يرسل إلينا خبراً:

ـ في تمام الثانية بعد الظهر سأستمع إلى شكاوى المواطنين في مقهى سلطمش بيك. . ليتواجدِ الجميع هناك.

ذهبنا إلى المقهى فوجدنا المعارضين قد سبقونا إليه. المحامي برهان، دون حرج أو خجل، موجود هناك. في الثالثة وصل زوبُكْ زَادَهْ. ومع دخوله دوى تصفيق حاد. أول

مَنْ أشعل التصفيق المحامي برهان. . لم يبق عند بني البشر خجل يا سيد. . يا هوه، وهل يُصَفَّقُ لهكذا رجل مبهدل؟

قال الشيخ بدر الفهمان:

ـ نحن لم نشأ أن نُري وجهنا الحقيقي للغرباء، لكنه هو الذي يمسكنا على الأصعب، فأرسل إلينا كي نأتي إلى هنا. . فهل أسكت الآن وأغمض عيني أمام كل هؤلاء الغرباء؟ ألا أحكي على الملأ ما فعله بنا زوبُكْ؟

فقال حمزة بيك:

ـ اسكت أنت الآن. أنا سأبدأ الكلام. أنت تتكلم في الآخر. ذلك أن رأسك قد تعرض للبلاء الأكبر. يا شيخ، ستحكي كيف نتف شعرك ولحيتك، لكن بعدنا.

قال مرتضى أفندي:

ـ أنا فقدت في ذلك الكازينو خمسمائة ليرة، معلاقي احترق. . أنا أيضاً سأحكي!

وأنا أيضاً عندي كلمتان سأقولهما. ياه، يعني إذا صار نائباً، فهل يفتح شغله على رأسنا؟

اتجه زوبُكْ زَادَهْ إلى الطاولة التي بجوار وجاق المقهى وأخذ يتحدث دون اكتراث:

ـ مواطنيَّ المحترمين! لقد عطلتُ أعمالي في المجلس، وجئت كي أسمع شكاواكم. سأستمعُ إلى شكاواكم وطلباتكم واحداً واحداً. . مهمتنا الاستماع إلى شكاواكم، جميعاً، سواء أكنتم من حزبنا أو لم تكونوا. . لا فرق!

غضب أمين أفندي على الآخر:

انظر إلى هذا. . خرج الصوص من البيضة فلم تعجبه قشرتها. قال جاء يستمع إلى شكاوانا قال. . ولاه، ألست ابنَ هذه البلدة؟ ألم تخرج من بيننا؟ ألا تعرف شكاوانا حتى جئت تستمع إليها؟ انظر إلى هذه الأفواه أولاً.

كان في المقهى من يصفق لكل كلمة يقولها زوبُكْ، لذلك لم تُسمع كلمات أمين أفندي. وزوبُكْ يتحدث دون اكتراث للتصفيق:

ـ نعم، سأستمع إلى شكاواكم وببالغ الاهتمام، لكن، لي عندكم رجاء. . قبل أن استمع إلى شكاواكم، سأخبركم ببعض الأمور. لقد أتيت لأقدم لكم كشفاً

بالحساب. أيها الأصدقاء، صدّقوا أنني لم أُضِعْ دقيقة واحدة في أنقرة سدى.. أعمل من أجلكم ليل نهار، وأتلهف إلى عمل يصيب بلدتنا بخير. تعلمون أن وفدكم قد زار أنقرة، قبل مدة من الزمن، ولقد استضفتُ الوفد في أنقرة.. وأرجو ألا يؤاخذونا إذا كنا قد قصّرنا في شيء. لقد أخذت وفدنا إلى رئيس الوزراء، وقابلتهم معه. قلتُ لرئيس الوزراء، بحضور الوفد، إن مواطني بلدتنا يريدون إنشاء مصنع للإسمنت.. وهذا ما جعلهم يأتون إلى هنا، وقد جعلوني واسطتهم. قلتُ لرئيس الوزراء (نريد مصنعاً للإسمنت).. وهاهو الوفد بيننا..

والتفت إلى الشيخ بدر الفهمان، وسأله:

ـ يا عمي الشيخ بدر. قُلْ حتى يسمع المواطنون بآذانهم.. ألم أقل هذا الكلام لرئيس الوزراء، بحضوركم كوفد؟ قل حتى يسمعوا..

قلت لنفسي (هاها!!.. هذا هو الوقت المناسب لأن يضع الشيخ بدر الحجر في مجراه، فيتبهدل إبراهيم زونْك زَادَهْ من ثم، وتصبح قيمته قرشين).

ـ بلى! لقد حصل مثلما قال إبراهيم بيك.

تفو! انظر إلى سفالة هذا الشيخ. ألا يخجل من لحيته التي بقدّ عِدْل، ويكذب؟ آخ يا مبهدل.. اللحية لا تجعل الرجل رجلاً.. للعنزة لحية هي الأخرى. تابع زونْك:

ـ قِفْ واحكِ، حتى يسمعك المواطنون كلهم.

فوقف الشيخ:

ـ نعم، هكذا، بالضبط. لقد صعد إبراهيم بيك بوفدنا إلى عند رئيس الوزراء.. شربنا قهوة وشاياً.. وبعدما تبادلنا أطراف الحديث من هنا وهناك، لمدة ساعتين، قال إبراهيم بيك لحضرة رئيس الوزراء (لقد جاء وفدُنا إليك برجاء..) فقال رئيس الوزراء (العفو، أستغفر الله، إنهم يأمرونني، طلبات الشعب بالنسبة لنا أوامر.. على رأسي، فليتفضلوا!).. نحن وقتها ارتكبنا خطأً، كان يجب أن نضرب الحديد وهو ساخن، ما دمنا لمسنا الرغبة عند رئيس الوزراء كان يجب أن نطلب مصنعين، ثلاثة.. لكن ضُرب على بصيرتنا فقلنا (نريد مصنعاً واحداً). أشرق وجه رئيس الوزراء المبارك. ليكن المصنع الذي تريدون، وهل تُناقَشُ قضية مصنع واحد؟ وقال (قولوا لي، هل تريدون مصنع

سكر، أم مصنع إسمنت؟) فقام إبراهيم بيك، لا حرمنا الله منه، وقال (ما دام صارت وصارت، فليكن مصنع إسمنت). كبس رئيس الوزراء على الجرس المثبت بطاولته.. ظننت أنه سيطلب لنا قهوة من جديد، لكنه قال للرجل الذي دخل (قل لوزير الصناعة أن ينشيء في ناحية هؤلاء السادة مصنع إسمنت فوراً!).

الله الله! هل رأى هذا الشيخ ذو اللحية الضخمة مناماً، أم ماذا؟ أنتَ وجدتَ وقتاً، بين العصي التي أكلتها في بار أنقرة، لمقابلة رئيس الوزراء؟

قال زونْك زَادَهْ:

ـ يا عمي الشيخ. إن ما ذكرته صحيح كله، لكنك نسيت شيئاً. أنا، بعد أن طلبت إنشاء مصنع قلت (ونريد سداً أيضاً)... قل للمواطنين حتى يسمعوها من فمك.. قلها؛ بدينك، بإيمانك، هل قلتُ هذا أم لم أقله؟

ـ بلى، قلت. قلتَ (نريد سداً أيضاً)، فتفضل رئيس الوزراء بالقول (ماشي! ليبن سدٌ أيضاً). وبعدها قلنا له (عن إذنكم)، فقال رئيس الوزراء (لماذا أنتم مستعجلون؟ أنا مسرور بلقائكم) لكننا لم نبق عنده، ثم إنه ودعنا حتى الباب.

ياهوه! متى حصلت كل هذه الأمور؟ لا يُطاقُ كذب كهذا. أنا لم أنفصل عنهم لحظة. لا بد أنهم تركوني نائماً في الفندق، وطلعوا لمقابلة رئيس الوزراء.. ولسبب ما لم يخبروني بذلك.. الآن انْفَهَمَتْ.

قال زونْك:

ـ أمين أفندي، إحْكِ أنت أيضاً، حتى تطمئن قلوب الجميع. لقد نسي الشيخ بدر بعض التفاصيل، فاحك عنها أنت. أنا قلت لرئيس الوزراء (لاتوَرجحنا هَهْ!..)، هل تذكرت ذلك؟ احك بصراحة، قلتُها أم لم أقلها؟ بشرفك قل الحقيقة..

فوقف أمين أفندي التاجر وقال:

ـ بلى. نحن ما عندنا كذب، لقد قلتَ هكذا. حتى إنك قلت لرئيس الوزراء (إذا كنتَ تنوي مغمغة الشغلة، تراني لا أنظر في وجهك ثانيةً، وسأقطع السلام الذي بيننا، والكلام)..

انجلت الأمور تماماً. تركوني وذهبوا إلى رئيس الوزراء، إذ ليس معقولاً أن يتواعدوا جميعاً على الكذب.

التفت زوبُكْ زادَهْ إلى اسماعيل أفندي عبد الله :

- إسماعيل أفنـدي، باللهِ عليك، قل، هل أخذتكم من هناك إلى عند وزير الصناعة، أم لم آخذكم؟ ثم، ألم أقل للوزير (نريد سداً على السريع)؟ قل، اسماعيل أفندي، بربك ونبيك قل الحق. . قلتُ هذا أم لم أقله؟ قل حتى يسمعوا. .

- بلى. قلت ذلك. قلتَ (نريد سداً).

- أين سطلمَش بيك؟

فانبرى سطلمش صاحب الفندق :

- تفضلوا إبراهيم بيك.

- انظر هنا. . ألم أقل له (إذا لم يُبْنَ السدُّ سنتزاعل)؟ بشرفك وعرضك قل الحق.

- قلت. . واللهِ قلت. . بالله قلت. .

يحكي زوبُكْ، يحكي، ثم يوقف واحداً من وفدنا ويقول له :

- بدينك وإيمانك قل الحق. . بعرضك وشرفك قل الحق. . بربك وكتابك قل الحق، قلت هذا أم لم أقله؟

والكل يجيبه : بلى، لقد قلت.

- أين أخونا إحسان أفندي الصف ضابط؟

كنتُ مستتراً بين الكراسي، لكن عديم الشرف لمحني :

- تفضلوا إبراهيم بيك.

- أخي إحسان أفندي، قل الحق، قلت هذا أم لم أقله؟

ماذا أعمل الآن؟ إذا قلت له (لا، لم تقله) أكون قد كذَّبتُ كلَّ هؤلاء الناس، وفوقها لا يبقى لحزبنا اعتبار. حلفت يميناً :

- بلى قلت. لا يجعل الله لي نصيباً في الخروج من هذا الباب، إذا كنت أكذب. . لقد قلتَ ذلك. وتصبب مني العرق.

قال زوبُكْ :

- هكذا أيها السادة المواطنون. لقد سمعتم بآذانكم وصدّقتم. مصنعُكم سيبنى قريباً، وكذا سدُّكم. فثقوا بحكومتنا، وصدقونا.

فدوى التصفيق. المحامي برهان كاد أن ينفتق وهو يصيح :

- ليسلم قادتُنا، يعيش قادتنا، ليخلدوا على مدى الدهر.

قلت له في سري (ليبعث لك البلاء).

فرغ المقهى وتفرق الحشد. اتجه كل إلى جهة وزوبُكْ إلى بيته، ونحن إلى مقر الحزب. لا أحد يتكلم. لم يبق لأحد وجه ينظر فيه إلى الآخر.

قلت للشيخ بدر الفهمان :

- تفو عليكم! طلعتم لعند رئيس الوزراء؟ لماذا أخفيتم ذلك عني؟

- من الذي طلع ياه؟ من رأى وجه رئيس الوزراء؟

- ولاه. . تفو. . ستنجقم. . تحلف كذباً، دون خجل؟

- قدام كل هؤلاء الناس ماذا تفعل؟ لا يجوز أن تقول : لا، لم تقل ذلك. . هذا واجب حزبي طبعاً، معلوم. .

التفت إلى أمين أفندي وقال :

- متطلبات العمل السياسي هكذا. . يجب أن نتكلم. ماذا تعني مقابلة رئيس الوزراء؟ إنها ترفع اعتبارنا.

- ويلي عليكم. تفوا. . وأنت يا سطلمش بيك، كيف شهدت زوراً؟

- وهل من الرجولة تكذيب كل هؤلاء الرجال؟ إنه واجب الصداقة. ثم إنك بززتنا جميعاً في الحلفان الكاذب.

- لو كنت أعرف. . هل كنت أعرف؟ لقد ظننت أنكم طلعتم دون علمي، وإلا كنتُ حكيت الحق.

قال الشيخ بدر:

- صار الذي صار. الآن تعالوا نستدعِ زوبُكْ زادَهْ إلى هنا ونحكِ معه زوجاً من الكلام. . هذا القليل الأدب.

طيب. إذا عثرت على زوبُكْ، احك معه كلمتين، مائتي كلمة إذا شئت. لقد ركب سيارته وتوجه إلى أنقرة.

هذا هو زوبُكْ، يجعل الرجل يحلف يميناً باطلة وعيناه مفتوحتان.

آه ما قاسيناه، آه ما سنقاسيه بعد.

الباب الذي فُتح بالغلط

الرسالة التي كتبها مدرس اللغة الألمانية في المدرسة الإعدادية إلى صديقه:

.. الحبيب.

أخيراً تعرفت على إبراهيم زوبُك أوغلو[1]. لم يجر انتخابه في الانتخابات الأخيرة، فبقي في أنقرة بعد الانتخابات، لمدة سبعة أشهر. كان يأتي بين الحين والآخر، ولكني لم أستطع رؤيته، بشكل من الأشكال. الآن ترك أنقرة وأقام في بيته الذي هنا.

تعرفت عليه، في إحدى الأمسيات، في رابطة المعلمين.. قام الرجل، فجأة، وحضنني. إنه ليس كما يحكون عنه، لا بل إنه، وهذا هو الأغرب، على عكس ما يحكون عنه. لقد دخل الرجل قلبي. نعم، هو لم يُنْهِ دراسة الثانوية، لكنه واسع الاطلاع. لهجته قريبة من الدارجة هنا، حديثه حلو، جدير بأن يسمع.. رجل درّاك. ولقد سُرَّ هو بحديثي على ما أظن.

إنه الآن في الأربعين من عمره، قلما يخرج من بيته.. وحيد، منعزل. أبناء بلدته لا ينوون إقامة صداقات معه، حتى إنهم لم يعودوا يقتربون منه؛ يسلّمون عليه من بعيد، ويعبرون. من جهته، لم يعد يمر بمقر الحزب أو بالبلدية، وبين الحين والآخر يجيء إلى رابطة المعلمين. يجلس وحيداً، لا أحد ينضم إليه، أحياناً يحكي مع الموظفين.

واضح انعزاله. ياه، وهو لا يشتكي من أحد. أصدقاؤه في الحزب ناقمون عليه، والآخرون من أبناء البلدة لا يطيقونه. ليس غريباً أن يُعامل بالكراهية رجل قام بكل تلك الألاعيب! غير أن العقل لا يستوعب كيف أن رجلاً كهذا استطاع خداع كل الناس.

---

١ ـ هكذا في الأصل ـ المترجم.

في أول جلسة لي معه توصلتُ إلى قناعة أن رجلاً مثله لا يمكن أن يكون مثلما حُكي عنه.

وأنا أودّعه، بعد لقائنا الأول، دعاني إلى زيارته في بيته، المساء التالي.

بعدما أُبعِدَ إبراهيم بيك عن الانتخابات، لم يعد أبناء بلدته وأصدقاؤه في الحزب يتحدثون عنه، كما في السابق، حتى إن اسمه لم يعد يذكر إلا لماما. ما عدتَ تسمع كلمة (زويُكْ زَادَهْ)، (ابراهيم زويُكْ)، (زويُكْ).. وإذاك حل بالبلدة نوع من السكون والخمول، ودُفنت في التراب الميت تماماً. لقد فقد الناس هنا اندفاعهم؛ ترى واحدهم الآن ماشياً وقد سيطر عليه نوع من الوحشة، والتردد في الخطو.

مرة أتى الشيخ بدر الفهمان على ذكر إبراهيم زويُكْ زَادَهْ. قال لي:

ـ أنت لا تعرف ذلك الخنزير. حذارِ أن تراه هكذا فتصدقه. عندما يتوجه الملحدُ جهة القِبلة، فإن هذا لا يعني أنه صار مسلمًا. من يدري، وهو في مكمنه هذا مثل الوحش، أيّ سقاطات يدبر! لكنه لن يستطيع تخديرنا هذه المرة، لن يستطيع خداع أحد. حتى القرد فتح عينيه. لم يبق له اعتبار، وقيمته، بالقياس إلى أي شخص، لم تعد تساوي قرشين. إنه الآن يلتجي هنا وهناك، لكن أحداً لا يعيره اهتماماً. لقد انسحب خيطُه من البازار.

قلت:

ـ شيخ بدر، كيف خُدعتم طوال هذا الوقت؟

فقال:

ـ لا تدقق. لقد استغفلنا.

وأضاف:

ـ إياك أن تشفق عليه، وتدور حواليه، فيمحقك. لا تنسَ هذا أبداً.

ـ ثمة شيء لم أفهمه يا شيخ بدر، كيف لم يُنْتَخَبْ مدبّرُ كل هذه الألاعيب للنيابة مرة أخرى؟

فضحك باستخفاف، وقال:

ـ نحن لا زلنا مهابيل، رشّحناه مرة أخرى. لكن، هذه المرة، صدر الأمر من مقام عال. أتى الأمر من أنقرة على هذا النحو: لا يدخل اسم زويُكْ في قائمة المرشحين.

فلقد انكشف الوجه الحقيقي لهذا المبهدل. لو سألت عن حقيقة زويُكْ وحشوته، لوجدت أنه لم يكن ذكياً إلى ذلك الحد، ولم يكن على تلك الدرجة من المعرفة. إن معرفته، كلها، تجلت في عملية (فتح الباب).

ـ فتح الباب؟ كيف؟

ـ فتح الباب، كالعادة. لقد اعتمد هذا الرجل في حياته على فتح الأبواب. ولأنه محظوظ، فقد دخل من كل الأبواب التي فتحها. لم يكن زويُكْ يفهم بالسياسة. عندما توفي أبوه بقي مع أمه. ورث عن أبيه كم حقلاً، فباعها كلها، واستهلكوا ثمنها. بقي لهم البيت. أشفق عليه رضا بيك، فوظفه في دار الحكومة. لكنه لم يقعد عاقلاً، فطردوه.. وحتى يتمكن من الزوغان عن الأنظار، ذهب إلى مركز المحافظة. في تلك الأثناء كانت حكاية الحزب وما حزب، ما تزال حديثة العهد. لم نكن نعرف ما هو الحزب، كنا نسمع باسمه وحسب. تأسس حزب جديد وجاء إلى المحافظة، ولم يكن قد وصل إلى ناحيتنا. وبينما كان زويُكْ ماشياً في أحد شوارع المحافظة، سمع ضوضاء تنبعث من وراء أحد الأبواب، ففتح ودخل. ولقد كان محظوظاً بفتحه هذا الباب ودخوله منه. ماذا تقول بتركه كل أبواب البيوت والدكاكين التي في المحافظة، وفتحه ذلك الباب بالذات؟ لو كان قد دخل من باب المبنى المجاور، لكان خشّ في مقر الحزب القديم. الباب الذي دخل منه، كان باب الحزب الذي تأسس حديثاً، ووصل إلى هذه المحافظة. عَبَرَ الباب الخارجي، صعد إلى الطابق الثاني، فتح باباً آخر قاده إلى الداخل. نظر فوجد مجموعة من الرجال حول طاولة مستطيلة يتصايحون ويتجادلون. وجد كرسياً خالياً، فجلس معهم. كان الذين إلى جواره، والذين مقابلهم، يتصارخون، فقام، مثلهم، ضرب الطاولة بقبضته، وباشر بالصراخ. الحزب مؤسس حديثاً، والذين كانوا هناك لم يكونوا على معرفة ببعضهم، فظنوا زويُكْ واحداً منهم، لا سيما أنه فاقهم جميعاً في الصراخ. لقد حكى لنا ذلك بنفسه أكثر من مرة..

ـ والله يا شباب، أنا لم أدخل من ذلك الباب على بيّنة. لو أنني دخلت من الباب المجاور، لكنت صرت في مبنى الحزب القديم. لكني صرت بينهم، وحكيت مثلهم تماماً. وقفت من هذه الجهة، وحكيت مثلهم. ألا يقال (قسمتك تطلع في ملعقتك؟)

تطلعتُ إلى المجتمعين حول الطاولة، فوجدتهم يصيحون بصوت واحد، فصحت أنا بعشرة.. أرادوا أن يزنقوني، فما استطاعوا.

كم مرة حكى لنا عن هذا. لقد بدأت حزبيته بدخوله من باب لا يعرف ما وراءه. أنا سألته:

- يا ابني، يا زوبُكْ، ماذا كنت تصيح؟

- ولو يا عمي الشيخ. كانوا يصيحون (حرية)..، فصحت (حرية).. في الإسلام يجب أن نساير الناس.. سايرتهم. وفي المساء قال واحد منهم:

- لنسجل أعضاء الهيئة التأسيسية.

كانت تلك أول هيئة للحزب باعتباره مؤسساً حديثاً. عندما بدأوا التسجيل، ولأني كنت أشدهم صراخاً، فقد سجلوا اسمي في الرأس. وبينما هم يسجلون عرفني أحدهم، فسألني (ألست ابن زوبُكْ الذي في المكان الفلاني؟). قلت: بلى. فقال: اذهبْ إلى ناحيتكم، وأسس فرقة للحزب هناك، وكن رئيسها!). قلت (تمام. لكن، يا عمي، هذا العمل لا يصير بالحكي، يلزمه كثير من النقود.. بالنسبة لي، ما معي قرش واحد). فقال: (وهل أبقى ذلك الحزب مع بشر نقوداً؟ على كل حال، لا تقلق، سندبر لك ما يلزم لتأسيس فرقة الحزب).

قدموا لإبراهيم زوبُكْ نقوداً، فجاء إلى هنا، وأسس الحزب، لكن، من خوفه من احتمال أن يحصل شيء ما، لم يستلم هو رئاسة الفرقة، كما أنه لم يدخل في الهيئة التأسيسية. قال (أنا لا غاية لي سوى خدمة البلدة.. ليس لي عين في السياسة).. حملني مسؤولية رئاسة الفرقة. ما أردت قوله هو أن حظ زوبُكْ يكمن في فتح الأبواب.

عندما ذهب مرة أخرى إلى مركز المحافظة، لم يفتح الباب الذي اعتاد على الدخول منه في السابق. فتح باب الغرفة المقابلة، ودخل. قال لنفسه (لِنَرَ) (لنغيّر الباب هذه المرة، ولنر ما سيقسم لنا!). يومها كان في الحزب تكتلات، انقسم حزبنا إلى كتلتين، إحداهما بقيت في الغرفة القديمة، والثانية في الغرفة التي دخلها زوبُكْ. إحدى الكتلتين ستنهي الكتلة الأخرى. لم يكن زوبُكْ على علم بالتكتل أو بالانقسام. دخل الغرفة فوجدهم مجتمعين حول طاولة مغطاة بغطاء أحمر، وقد راحوا يتصايحون. جرّ كرسياً وجلس، نظر

إلى أفواههم وأخذ يصيح مثلهم. فظن المجتمعون زوبُكْ واحداً منهم. مرة أخرى شال حظ زوبُكْ.. غلب التكتلُ الذي كان في الغرفة التي دخلها زوبُكْ التكتلَ الآخر. لم يكن عقل زوبُكْ يستوعب شيئاً من كل هذا.. كان يفتح باباً من الأبواب التي تصادفه، ويدخل، عله ينال شيئاً. وذات مرة تأسس حزب جديد داخل حزبنا. قال زوبُكْ (يالّله) ودخل من باب، وإذا هو في المقر القديم. لو كان دخل من باب الغرفة التي فيها الحزب الجديد لاحترق، ولما كان رأى النيابة في منامه. إبراهيم هذا يدعو الله ليلاً نهاراً، قائلاً (يارب! لا تجعلني أفتح بابا بالغلط). عندما انتخب نائباً، وذهب إلى أنقرة، حصل ما كان يحصل دائماً. لقد غدا معروفاً أنه، في داخل كل حزب من الأحزاب، يمكن أن تجد الوئام، أو التناحر. وفي كل مرة، في الحزب أو في المجلس، كان زوبُكْ يفتح الباب الذي فيه جماعة رئيس الوزراء، ويدخل منه. يجدهم يتباحثون في مسألة من المسائل، فيجلس، ويخوض معهم في الحديث، ويهز رأسه قائلاً (نعم) لكل ما يقال.. ويحكي بصوت عال: أولاً هكذا، خامساً هكذا، عاشراً هكذا...

قبل الانتخابات بستة أشهر، فتح أحدَ الأبواب ودخل. كانوا هذه المرة يحكون في موضوع لا يحبِّذه رئيس الوزراء، وكان الذين في الغرفة من خصوم رئيس الوزراء.. وما الذي يُدري الغريب زوبُكْ زادَهْ بذلك؟ فأخذ يقذف (بلى، هكذا!).. (هكذا لا يجوز!)... وكان يحسب أن ما يقوله، إذا وصل إلى أذن رئيس الوزراء، سيملأ عينه. نعم، ولقد وصل إلى أذن رئيس الوزراء، فغضب وقال: (باه! هكذا إذن؟ نحن نُنزل هذه الأعواد العفنة من الجبل، ونجعل منهم نواباً، حتى يعارضونا؟)

وأصدر أمره:

- في المرة القادمة لا تنزلوا اسم هذا الزوبُكْ ابن الزوبُكْ في قائمة المرشحين.

فليلحسْ زوبُكْ كله الآن، فالحظ لا يمشي دائماً، والمرء لا ينال نصيبه كل مرة من فتح الأبواب.. وهكذا، ذات مرة، الباب يفتح بالغلط.

لقد استند نجاح زوبُكْ زادَهْ كله، حسب الشيخ بدر الفهمان، إلى فتح الأبواب والدخول منها.

عندما وصلت بيته ازدادت دهشتي إلى أقصاها. أحد جدران الغرفة التي أدخلني

إليها، مغطى برفوف، الكتب مزدحمة فيها. وهذا يعني أنه رجل مثقف، مهووس بالقراءة.

وعرفت، منذ البداية، أن الناس هنا، عندما يروون حادثة عنه، يبالغون في روايتهـا. حتى إنني، في كثير من الأحيان، لم أكن أميِّز الحقيقي من الملفق في كلامهم. لكن، عندما تعرفت على إبراهيم بيك، أيقنتُ أن ما رُوي عنه، من أوله إلى آخره، كان مُفبركاً. لقد بدأت، في داخلي، أتألم عليه. واضح أنه مبتلى بأبناء بلدته.

شربنا، والشرب يعمق العلاقة ويقوي الود. إنه رجل ذكي، لمّاح، سريع الاندماج. كيف لم يدخلوا اسمه في قائمة المرشحين؟ لو كان واحد بالمائة مما روي عنه صحيحاً، لكان استطاع هندسةَ أموره. وحتى في حال عدم ترشيحه للنيابة، كان دبر نفسه في منصب هام. هذا ما كنت أقصد الوصول إليه.

بعدما رفعنا ثلاثة، أربعة أنخاب. قال لي:

ـ لقد سمعتَ عني، على مدى ثلاث سنوات، الكثير من القيل والقال.. بسلامتهم، أبناء بلدتنا، ورَمُوا أذنيك.

لم أُخفِ عنه شيئاً. حكيت له بعضاً مما سمعته عنه. ثم قلت:

ـ كيف لا يستطيع رجل مثلكم التشبثَ بحزب السلطة؟ لو صحّ واحد بالمائة مما رُوي عنكم، لكان يجب أن تكونوا وزيراً، أو شيئاً من هذا القبيل. وفي أسوأ الأحوال (مديراً عاماً).

فأجابني باللهجة المحلية الخالصة:

ـ ماذا تقول؟ نحن أيضاً، قبل أن نذهب إلى أنقرة، كنا نفكر هكذا. لكن، عندما وصلنا إلى المجلس، ماذا رأينا؟ كم من الزوبكات هناك!.. هيه هيه.. زبكيتنا لم تساو شيئاً هناك. لَكَمْ تلد الأمهات زُوبكاتٍ، كم! تلد كثيراً يا أخي. زوبكيتنا ما عملت شيئاً هناك.

سررت من سخريته من نفسه. كان يتكلم ويضحك:

ـ ليذهب أبناء بلدتنا إلى أنقرة، ويروا كيف تكون الزُبكيَة.. الذي لنا، ليس أكثر من اسمٍ وكنية.

واشتكى من أبناء بلدته:

ـ كل معروف أسديته لهم، حوّروه واستخدموه ضدي. هل حكوا لك حكاية رشدي بيك؟

ـ لا. كيف صار أن نسوها؟ واخ واخ.. يا سيدي، جاء إلى هنا طبيب حكومي يدعى رشدي بيك. شاب غض، في أول طلعته. تخرّج من كلية الطب، فعينوه، مباشرةً هنا. لم يستطع التأقلم مع هواء وماء البلدة.. وإذا كان بودك الحقيقة، لقد قرف منها. وها أنتم ترون، مكان لا يصلح للحياة. لا تجد من تتحدث إليه، وإذا وجدته، فإنه يبدأ الحديث بزوبُكْ، وينهيه بزوبُكْ. شارف رشدي بيك على الجنون، وصار يكتب الاستدعاء في كتف الاستدعاء، قائلاً (دخيلكم، خذوني من هنا، وعينوني طبيب صحة، ولو في جهنم!!).. لكن، من يسمع؟ انهارت أعصاب الدكتور رشدي، وصار يخانق كل من يظهر أمامه. صادق المحامي برهان.. تعرفون برهان؟

ـ نعم، لقد تعارفنا.

ـ واحد ما عنده شرف. وَسَّخ مهنة المحاماة، وجعلها مخجلة. عنده دكان أمام مبنى الحكومة. أقصد بقولي دكان، مكتباً. يدخل عليه قرويٌّ، فيبادره قائلاً بسرعة (هل أسجن الذي أساء إليك، أم أعلِّق مشنقته؟).. فيندهش القروي: كيف عرف هذا المحامي شكواي؟ لا يوجد في ناحيتنا قروي لم يُسَأ إليه.. إذا لم يحصل شيء فإنهم يسيئون إلى أنفسهم.. يبقى واحدهم في رأس الجبل وحده، لا يستطيع القعود عاقلاً، فيسيء إلى نفسه. يكون الرجل متلقياً الإساءة، ودخان الغضب ما يزال يتصاعد منه، فلا يشبعه حتى الشرب من دم خصمه. فهل يرضى بسجنه؟ يقول باللهجة الغاضبة إياها:

ـ دخيلك أيها المحامي، واقع على عرضك.. بل أُشْنُقْ هذا الواطي!..

فيقول المحامي برهان:

ـ استدعاء الشنق بمائة ليرة، واستدعاء السجن بخمسين.

سعر الاستدعاء عنده مثل أسعار الأدوية في الصيدليات. يدفع القروي مائة ليرة، ويستكتبه استدعاء تعليق مشنقة. بمضي يوم، يومان، يتلاشى غضبه، ويكون قد اعتقد أن الاستدعاء الذي كتبه له المحامي، سيؤدي بخصمه إلى المشنقة، فيبدأ بالتألم عليه.

والمشكلة، بالنسبة للخصم، قد تكون عبور عنزته بِكُرم بستان الشاكي، أو دخول دجاجته حاكورته. يتألم في داخله. فيهرع إلى المحامي برهان:

ـ أرجوك يا محامي، لا تفعل شيئاً.. أنا تراجعت عن هذا العمل.. حرام، لا تشنقه، إنه جارنا، وعنده عيال، فلا تحرق قلوبهم عليه، حرام! تعال نزقّه في السجن خمسة، أو عشرة أعوام، عساه يتربى.

ـ فيقول المحامي برهان:

ـ يجب أن نكتب استدعاء آخر إذن!

ويأخذ منه خمسين ليرة أخرى.

إنه سافل من هذا النموذج، يمتص دماء القرويين، ولا يشبع.

شكا له الدكتور رشدي همه، فقال له:

ـ لا يقدر على حل هذه الشغلة أحد غير إبراهيم بيك، فإذا شاء يعينك في قلب اسطنبول.

جاءني الرجلان معاً، وحكيا لي القصة. نظرت إلى حال الشاب فاحترق فؤادي عليه. اسألني عن السبب. لقد خربتْ أعصابه تماماً.. فجأة يرقصُ حاجباه، وتضطرب عيناه، وأنفه وأذناه.. ويبكي على طول الخط. إنه ابن بائع مهلبية، فإذا انتقل إلى مكان آخر، غير اسطنبول، لا يبقى له أمل في شيء آخر، غير دخول مشفى المجانين.

قلت لهما:

ـ سأقوم بما يمكنني القيام به.

وصرفتهما.

بالنسبة لما يمكنني القيام به.. ماذا يمكنني؟ لا شيء. الله وكيلك، الكل يظننا نستطيع القيام بأي عمل، وبنجاح. أخي، لقد فسد المجتمع اليوم، من رأسه إلى أساسه. اليوم الوزير، بالرغم من كونه وزيراً، لا يحل لك شغلة دون رشوة!.. ولا أحد يستمع إلى نائب، أو يعيره التفاتاً. كل ما في الأمر، لكوننا نائباً، فإنهم يعملون لنا بعض التنزيل في مبلغ الرشوة. هذا كل ما في الأمر. عندما تكون الشغلة لمواطن عادي، يحلونها بخمسة آلاف، شغلتنا تنحل بثلاثة آلاف. لمنصب النيابة تنزيل من ثلاثين إلى أربعين

بالمائة! حاولت من أجل الدكتور رشدي كثيراً، دون جدوى. كانوا يجيبونني هكذا: (أليست تلك البلدة قطعة من الوطن؟). في الحقيقة كلامهم صحيح.. فبلدتنا أيضاً قطعة من الوطن.. لكنها قطعة ناشفة، خالية من الدسم. نظرت فوجدتهم يمغمغون الشغلة، فجلست معهم على الصفقة، بكل صراحة. ذلك أنهم يعتقدون أنني مُرْتَشٍ من الدكتور رشدي. كيف لك أن تعرف الناس؟ لا أحد يشتغل بلا شيء، أو عن روح أبيه. في المحصلة عرفنا: إذا دفع ثلاثة آلاف ليرة، يصبح نقله إلى مكان جيد ممكناً. قالوا لي: هذا كرمى لك أنت هَهْ! إنه ليس مبلغاً صغيراً حتى أدفعه من جيبي.. وإذا أبلغته بهذا فسيفكر بأشياء كثيرة. عدت إلى البلدة، سحبت كلاً منهما إلى طرف، وأفهمته ما جرى. أخرج الدكتور رشدي من جيبه نقوداً، عدها أمامي، فطلعت أربعة آلاف ليرة. قلت له:

ـ أعِدْ ألف ليرتك إلى جيبك، وأرسل هذه النقود، بالبريد، إلى هذا العنوان.

ليتك تصدقني، لم ألمس النقود بيدي.. فأنا أخاف القيل والقال! حتى إننا تكلّفنا بعزيمة للرجل الذي سيحل له شغلته، وهذه طلعت من جيبنا. حلال عليه، مسامح.. ومع ذلك قام المحامي برهان بإعلان اسمنا، على أننا نرتشي. قال الواحد لازم ما يجن.. ولاه واطي ـ الكلام ليس لك ـ إي أنتما اللذان جئتما إليَّ متوسلين، ووقعتما على قدميّ،.. وأنتما اللذان أرسلتما النقود.. كل ما فعلته أنا هو أنني تألمت لحاله، وتوسطت له، كعمل انساني. يعني، ما أريد قوله، إنهم سفلة من هذا الطراز.

كان ابراهيم بيك أوغلو يحكي بصدق. وعندما كان يحكي عن الوساطات والرشاوى، وكيف تفشت في البلاد، كانت الدموع تختنق في عينيه، ويوشك على البكاء.. وأنا بالكاد أمسكت نفسي عن البكاء.

بصراحة؟ لم أعد أصدّق أي قيل وقال عن إبراهيم بيك.. وعلى العكس، أنا الآن مؤمن بأنه رجل مثقف، محب لوطنه.

قال لي:

ـ لا بد أن يكون قد مر على رأسكم الكثير خلال الفترة التي أمضيتموها هنا.

فحكيت وأفرغت ما بداخلي. منذ أن جئت إلى هنا، لم أرَ الراحة كما رأيتها في تلك

الليلة. حكيت له كيف أنني كنت، في بداية كوني هنا، في حمى الأفكار المثالية، وكيف أنني بدأت، مع مرور الزمن، أشعر بالانهيار، وكيف أنني بدأت أنتهي. وقلت:

- أخاف من أن لا أصحوا أبداً.

لقد صار ابراهيم بيك زويُكْ زادَهْ الرجل الوحيد الذي يفهمني.

كانت خديعتنا، في البدء، من هذا: كنا نظن أن الوطن ينهض بتثقيف أبنائه واحداً واحداً، ومن خلال إمكاناتهم الخاصة. نتعلم في المدن الكبيرة، ونأتي إلى النواحي. كنا نعتقد أننا سنلقى بعض الايجابيات.. أوهووو.. كيف خُدعنا! خدعونا!..

قال لي إبراهيم بيك:

- يا أخي.. الذي يأتي، يأتي إلى العرس، أو إلى العيد.. إذا كان القروي سينهض، فيجب أن ينهض الجميع معا. ماذا يعني أن يعينوك هنا، ثم لا يسألون؟ ليأتِ ابن اسطنبول أو ابن أنقرة إلى هنا حتى نرى.

في تلك الليلة شربنا كثيراً. غادرتُ منزل إبراهيم بيك مع مطلع الفجر، وشعاع من أمل يبصّ في رأسي. يستطيع إبراهيم بيك تخليصي من هنا إذا أراد. أنا أعرف أن مجتمعنا فاسد، ومهما عملنا فسوف لن نبقى سليمين ضمن هذا المجتمع الفاسد. إذاً.. لم يفهمني بالغلط.. فإني... الألفا ليرة التي وفرتها خلال السنوات الثلاث التي أمضيتها هنا... إنك تفهمني.. أليس كذلك؟ صدقني، عندما أكتب لك عن هذه الأشياء، أخجل من نفسي كثيراً.. لكن، ليس لي أمل بالخلاص.

صباح اليوم التقيت بإبراهيم بيك في رابطة المعلمين. خجلت من مجرد النظر في وجهه.. تقدم نحوي، وضع يده على كتفي وقال:

- سنجد لها مخرجاً.

في المساء، ونحن نشرب في مطعم سطلمش بيك، بدأ كل من مرتضى سلمه الله وأمين أفندي التاجر، كالعادة، بالتلفيق على زويُكْ زادَهْ. لم أستطع صبراً، فقلت:

- عيب ياهوه! عيب! صار لي ثلاث سنوات عندكم.. ما عندكم حكي تحكونه عن غير زويُكْ زادَهْ؟ لو كنت لا أعرفه، كان يمكنكم التقوّل عليه.

وبينما أنا أدافع عن إبراهيم بيك، كان أمين أفندي يضع يده على ذقنه وينظر إليّ بتمعن. ثم قال مشفقاً عليّ، وكأنني مصاب بمرض معدٍ:

- لاه لاه لاه. لقد احترق هذا المدرّس... ما دام قد أمسك بطرف الواطي زويُكْ، فهذا يعني أنه سينال منه خازوقاً في القريب العاجل.

وبصق على سبابته وراح يجرها على الطاولة، وأضاف:

- آه، وها أنذا أسجل هنا.. قريباً ترون، وأراهنكم: إذا لم يأتِ هذا المدرّس إلى هنا، وهو يتخبط قائلاً (النجدة! لقد احترقت على يد الواطي زويُكْ).. فأنا لا أكون أمين أفندي، وأحلق شاربيّ.

ولكي أتخلص من هذا الكلام المزعج، تركتُهم واتجهت إلى غرفتي، وبدأت أكتب لك.

الآن أصبحت أفهم معاناة ابراهيم زويُكْ أوغلو وأحزانه. أحاسيسنا مشتركة. أعرف أنه، مهما قدم لأبناء بلدته، فإنهم لن ينفعوه بشيء.. وكل عمل جميل يقدمه لهم، سيفسرونه على أنه عاطل.

آمل أن أتخلص من هنا قريباً. سأعتبر الأعوام التي أمضيتُها هنا ليست من عمري، وأنني لم أعشها قط.

تحياتي ومحبتي

ما الزُويكية

الرسالة التي كتبها مدرس اللغة الألمانية في اعدادية البلدة إلى صديقه :

أخي الحبيب.

غداً سأنصرف من هنا. لا تحسَبَنَّ أني مسرور لذلك، لا ولستُ حزينا. لا أعرف كيف أشرح لك حالة روحي.

بالرغم عني سأكتب لك عن ذلك المخلوق اللا إنساني، المسمى زوبُكْ زادَهْ. لا يُعقل أن يوجد في الحياة انسان بلا أخلاق على هذا النحو. نعم، في مسرحيات شكسبير يمكن أن تجد مثله. لكأنه ممثل كبير، أعجبه الدور المسند إليه، وهو دور الخائن، فقفز من على الخشبة، نزل، وغلّ بين الناس.. إلى الحياة الحقيقية. هذا الرجل لا يحيا، وإنما هو يمشي على الطريق الذي رسمه له القدر السيء. لا يمكنك المجيء إلى أمامه، فهو يسيء إلى بني جنسه على الدوام.

عندما عاد من أنقرة، لم يعد ثمة من ينظر في وجهه. لكن الجميع، في دواخلهم، يخافونه.

كم مرة قال الشيخ بدر الفهمان.

ـ انتظروا، وسترون! من يدري أيَّ خنزرة يدبِّر؟ سيجرجرنا إلى لعبته المبيتة.. كان الله في عوننا حتى لا نخدع..

منذ شهور وهو يراوغ. في اليوم التالي لإرسالي الألفيْ ليرة له، مع الولد عظم وجلد، ذهب إلى أنقرة. ولدى عودته قال (تمام! اعتبر شغلتك مقضية!).

بعدها مرت شهور، ما صار شيء، ولن يصير.

غير أن زوبُكْ الآن عاد محبوب المواطنين جميعهم.. المعارضون والحزبيون، الكل، يرفعونه على الراحات. فلقد طلع، فجأةً، بنغمة (المحافظة). إبراهيم زوبُكْ

سيعمل هذه الناحية محافظة، وعندما تصير محافظة، ستنحل كل مشاكل الناحية. إذا جاءهم محافظ، فإن الطرق ستُشق، والمعامل ستُشاد، ومدرسة ثانوية أيضاً. لا يوجد حديث الآن غير حديث تحويل الناحية إلى محافظة.. ولئلا يُزعِلوا الحكومة، أنزل المعارضون آرماتهم، وأغلقوا مكاتب أحزابهم. لقد توحد الجميع حول زوبُك، وما بقي غير أن يعبدوه. طلع وفد إلى أنقرة، وطبيعي أن يكون زوبُك زادهْ على رأس الوفد. أقام المحامي برهان وقادر المعارض، والآخرون على اختلافهم، عرساً في البلد، استمر من الصباح حتى المساء. الجاويش محمد، طيلة النهار وهو يفعفع بمدفعه من قمة الخضرلك. الطبال فيصل الأعرج والزمار حسين النّوري دقا وعزفا حتى منتصف الليل. وقبل أن يغادروا إلى أنقرة، صعد رئيس الوفد، زوبُك، إلى عربة البريد، وألقى خطبة، حكى فيها عن المكاسب التي سيحققها الناس من تحويل الناحية إلى محافظة. ثم صعد الوفد إلى العربة، وذُبِحَ كبشان على نية التوفيق.

كنت أنظر إليهم بدهشة من وراء الساحة.

الآن أيقنت أن زوبُك، ليس شخصاً واحداً، ولكن نحن، جميعاً، زوبكات!

لو لم يكن في داخل كل منا زوبُك، لو لم يكن كل واحد منا زوبُك، لما كان ترعرع زوبُك كهذا. تجتمع قطعة زوبكية، من كل واحد منا، فتشكل زوبكاً كهذا فوقنا. ومع أن الزوبكية فينا، في دواخلنا، فإننا، عندما نرى زوبكياتنا متوحدةً في شخص واحد، نغضب منه.

الزوبكات موجودة في كل مكان.. حيثما ذهبنا سنجد الزوبكيين أمامنا.

أنا لا أقول هذا لأن إبراهيم زوبُك احتال عليّ، وابتز مني نقوداً. أقوله حتى أستطيع التفكير على نحو سليم. كان يجب أن أُخدع أنا الآخر. لم أخبر أحداً بأني خُدعت. في الحقيقة أنا الذي أردت أن أُخدع. الزوبكات تستفيد من إحساسنا هذا، وتخدعنا. والأصح من هذا أننا، نحن، نخدع أنفسنا أولاً، ومن ثم نرغمهم على خداعنا، إرغاماً. إننا نجمع الزُبكَنات التي في دواخلنا، ونوحدها، ونصنع منها زوبكاً بالقوة. في الحقيقة. نحن زوبُك.. أنا، أنت.. وعندما يظهر أمامنا زوبُك فإن في زوبكيته شيئاً منا.

استقلتُ من مهنة التدريس، وغداً، صباحاً، سأغادر.

أعرف أنني سألاقي زوبكات كثيرة، في كل مكان سأقصده، فهذه الزوبكات تعيش فينا، نحن الذين جعلنا منهم زوبكات، ثم قذفناهم إلى الميدان. هدفي الوحيد الآن هو الخلاص من هنا.. لكن، هل سنستطيع التخلصَ من الزوبكات أو من زوبكيتنا؟

ولأني لا أقدر على الإجابة عن هذا السؤال، فأنا لا أدري أين سأذهب، ولا ماذا سأعمل.

سأكتب لك من المكان الذي سأحل فيه، وسأخبرك ما إذا كنت قد تخلصت من زوبكيتي أم لا.

مع محبتي

فهرس الفصول

الجاموس الذي لفظ أنفاسه في المسجد
ماشون غلط
بدينك بإيمانك اخْكِ الصدق
. الباب الذي فُتح بالغلط
. ما الزبكيّة .

صدر عن الاهالي

١ ـ النباتات الطبية واستعمالاتها	د. محمد العودات و د. جورج لحام
٢ ـ المعتزلة والفكر الحر	د. عادل العوا
٣ ـ ساعة الشؤم (رواية)	غابرييل غارسيا ماركيز، ترجمة صالح علماني
٤ ـ من الانجاهات الفكرية في سورية ولبنان	د. عبدالله حنا
٥ ـ والليل الذي يسكنني (شعر)	ممدوح عدوان
٦ ـ الفضاء هذا العالم الجديد	مجموعة من الباحثين، ترجمة عيسى طنوس
٧ ـ السينما والقضية الفلسطينية	حسين العودات
٨ ـ أناباز (قصيدة طويلة)	سان جون بيرس، ترجمة عبد الكريم كاصد
٩ ـ الفرسان الثلاثة (للاطفال)	سليمان العيسى وصلاح مقداد
١٠ ـ الداء السكري	د. مية الرحبي
١١ ـ المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة	علي القيّم
١٢ ـ أزهار الكرز (أشعار يابانية)	ترجمة عدنان بغجاتي
١٣ ـ وضاح وليلى (للاطفال)	سليمان العيسى
١٤ ـ القيامة والزبال (مسرحيتان)	ممدوح عدوان
١٥ ـ الذاكرة والغضب (رواية)	فائز الزبيدي
١٦ ـ حكاية الرجل الذي رفسه البغل (قصص)	وليد معماري
١٧ ـ حكى لي الأخرس (سخريات صغيرة)	خطيب بدلة
١٨ ـ قداس من أجل فلاح اسباني (رواية)	رامون خ. سندر ترجمة عاصم الباشا
١٩ ـ البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف	د. أحمد جاسم الحميدي
٢٠ ـ الذهب (قصة للأطفال)	يحي الشيخ
٢١ ـ التلوث وحماية البيئة	د. محمد العودات
٢٢ ـ مسرح الريادة (دراسة)	عبد الفتاح قلعه جي
٢٣ ـ طبرصف والزينبية	عدنان عمامة
٢٤ ـ الكاتبات السوريات ١٨٩٣ ـ ١٩٨٧	مروان المصري
٢٥ ـ حطين	يوسف سامي اليوسف
٢٦ ـ زوبُك (رواية)	عزيز نسين، ترجمة: عبد القادر عبد اللي